
رواية
فيصل خرتش
أهل الهوى
Jidar
Culture & Publishing
الفائزة بجائزة الطيب صالح

أهل الهوى

الكتاب: **أهل الهوى**
المؤلف: فيصل خرتش
رواية

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
info@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى 2025
الترقيم الدولي:**978-1-326-23042-5**
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Tyrant

Author: Faisal Khartash

Novel

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

.Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions

ISBN: 978-1-326-23042-5

فيصل خرتش

أهل الهوى

رواية

• الغريب:

"ثم رأيتُني"

كنت أمشــي في الســوق فرأيتهم يجتمعون على رجل، أخذوه من بين الناس، كان يسبّ السلطان، الذي يعين القوي على الضعيف والغني على الفقير.. سحبوه إلى أمام باب المسجد الكبير.. كبّروا عليه ثم ذبحوه، قالوا: "هذه أضحية السلطان في أول أيام العيد".

بهت الناس وظلّوا واجمين. أما أنا فقد أغمي علي، رشّــوا الماء على وجهي، قال لي أحدهم: انهض أيها الضــعيف، لقد ذبحوك أنت، فرّ الجميع إلا ثلاثة كانوا يحملون جثة الرجل المذبوح. ركضت وراءهم، وأنا أصيح: «أين تأخذونني؟».

فما ردوا جواباً.. أعدتُ الصراخ دون أن يخرج صوتي، قال أحدهم: "سندفنك في التراب" قلت: "لا...لا أحب أن أدفن.. أريد الحياة وأكره التراب".

قال آخر: "اصــمت واتبعنا." تبعتهم إلى المقبرة.. مقبرة الغرباء.. وحفرت القبر معهم.. ضــرب أحدهم القبر بكفه فانفجرت الماء منه، غســلوا الميت الذي كان مغطًّىً بالدم والوحل.. وعندئذ رأيت الحق المروّع لقد كان وجهي.. حتى ثيابه المعفرة كانت ثيابي.

توهمت بادئ الأمر أنني مريض، أو أن مسّــاً قد أصــاب عقلي، حملت المصحف الشريف وقرأت سورة يس.. قرؤوا معي على روحي، ثم أهالوا التراب على جسدي..

في اليوم التالي جئت المقبرة، حمت حول القبر، كانت هناك، شجرة ريحان نبتت في الليل.. بكيت نفسي، وأردت أن أ حفر القبر لأخرج الجثة من التراب، وإذ بصوت يناديني.. اتركها.. لا تحفر القبر.. إنه أنت: الغريب..

أنا القتيل أتحدث إليكم من وراء قبر، لقد اختارني الله من أجل هذا "لقد أصبح المكان مقدساً" هنا شهدت برهان ربي الذي خلقني.

كنت إنساناً صالحاً، لا أكذب ولا أفعل الفاحشة.. لم أظلم أحداً أبدا.. إلى أن كان ذلك اليوم.. يوم جئت ورأيتها مستلقية في فراشي.

***

...كنّا قد خرجنا توّاً من حرب حزيران، الناس جفّفوا دموعهم وتركوا عيونهم معلقة بين الأرض والسماء.. ينتظرون على أبواب بيوتهم أسماء الشهداء والأسرى.

زلق عدنان الفلاح نفسه في دهليز الدار، الوقت كان متأخراً، والليل يسترخي نائماً في سرير النجوم.. وحين فتح باب غرفته اندفع ضوء القمر يفرش جسده على أرض الغرفة.

ما هذا؟ كاد أن يتراجع، لكنه لم يستطع، قلبه تسمّر عند العتبة.. أنفاسه تخنقه.. ما هذا بحق الله؟ حاول أن يشدّ قدميه.. أن يفعل أي شيء.. لم يستطع أن يتقدم، ولا أن يتراجع.. هل تحوّل إلى تمثال من حجر، لكنه يعي ويرى.. يشاهد أمام عينيه، شيئاً لم ير مثله أبداً.

كانت هناك امرأة، تستلقي في فراشه، بجانب الفراش فراش آخر.. المرأة تكشف عن ساقيها، ساقاها بلون النور المشوب بحمرة خفيفة، من هذه الطالعة من النور لتدخل في ضوء القمر.. وجهها مظلّل بعتمة المكان، تابع بعينيه تفاصيل جسدها.. بطنها تنزلق في حفرة صغيرة، صدرها يمتلئ بالعذوبة.. قلبه يقرع طبول الحرب، المرأة ألقت يداً فوق رأسها، بان تحت إبطها ناعماً كصحراء.. خلع حذاءه، ومضى كالمضبوع، تمدّد

بثيابه فوق الفراش الآخر، أخرجت المرأة آهة صـغيرة وقلبت جسـدها على طرفه.. نظر إلى مؤخرتها، سروالها الوردي الشفاف.. أي يوم هذا؟ أية ليلة هذه؟

عدنان الفلاح لم يقرب امرأة بعد، لا يعرف كنوز الجسـد، وهاهي المرأة أمام عينيه مرتمية، العرق البارد ينضـح غزيراً، بربكم ماذا يفعل في مثل هذا الموقف؟ المرأة نامت على ذراعها، ثنت ذراعاً وسّـدت رأسـها عليه، ثم ألقت بالذراع الثانية فوق رأسـها، وهو يرى ولا يسـتطيع أن يفكر.. أيمد يده؟ رجله؟ يجلس فوقها، قد تصـرخ، من هي هذه المرأة؟ من الجن؟ من الإنس؟

أعادت المرأة رأسـها إلى ما كان عليه، واسـتلقت على ظهرها.. وانفرج صـدرها عن ابتسـامة هادئة، ناعمة، معاتبة، سـرتها تقول لـه أن يقبّلها وهنا اسـتدار عدنان إلى الجدار، وراح يقرأ آية الكرسـي، ثم أسـماء الله الحسـنى، وقل هو الله أحد.. دخل إلى الجامع الكبير.. توضّـأ ثم صـلّى ركعتين، وقرأ ما تيسّـر من قصـار السـور.. حتى هدأت روحه.. واسترخى جسـده.. وخفّ الضغط على قلبه ورأسـه، حاول أن ينام فلم يستطع، تأوّهت المرأة فاشتعل كلّ شيء فيه مرة أخرى.

عاود محاولته مرّة أخرى وفي كلّ مرة كانت تنده عليه بجسدها.. وفي كلّ مرّة يخيب بالنشوة المبكرة.. إلى أن عزم وتوكل وقرّب جسده ووجهه إلى جسدها، لكنه ارتدَّ جزعاً وابتعد يلتصق بالحائط.. ماذا جرى؟ رأى ناراً واسعة تحيط بالمرأة وتفصل بينه وبينها.. أقعى كفأر في زاوية البيت، سمع ضحكة رخيّة، ثم امتدت يدها البضة إليه، أمسكت يده وسحبته إلى داخل النار..

.. بلغ عدنان الفلاح الثامنة عشـرة منذ شـهور قليلة، وهو الولد الأخير لرسـمية، ولنقل بشكل آخر، إنه الذكر الوحيد لها من ستة أزواج، قبرت خمسة منهم.. وتستعد لدفن السـادس الذي يلتصـق بجلدها الممطوط، ويكحُّ ويسـعل بشكل منتظم وهي، أي رسـمية تبعده عنها بقرف، لكنه يأبى إلا أن يتقرّب إليها بلهاثه المتقطع، وهو يعلك شفتيها.

لم يكن عدنان ابناً للزوج السـادس، إنه ابن الزوج الأول، وقد مات والده عنه وهو ابن خمس سنين، فكفله عمّه بالرعاية والتربية، بينما راحت رسمية تخلع زوجاً وترتدي الآخر، إلى ان اسـتقرت على الزوج الأخير هذا، وكان العم قد تزوّج من واحدة جديدة،

بعد موت زوجته هو الآخر واشــترطت الزوجة الجديدة الحياة معه دون ابن أخيه، فأرسله إلى أمه رسمية لترعاه فدلّلته واعتنت به، وضعت لــه في رقبته شبّة وخرزة زرقاء كي تحميه من العين، وكانت تعلق له على باب البيت قطعة من رئة خروف بعد أن تزرع بها حبات الشــعير لتحميه من أعوذ بالله من الشــيطان الرجيم، وعدنان ينام وحيداً، لماذا؟ لأنه كبير، ويوجد في المنزل غرفة فارغة خصّصــت له، بينما خصّصــت الأخرى، التي فوق غرفته لزوج أمّه وأمّه ليســتمع إلى عراكهما الليلي ونفور الأم وإقدام زوجها عليها وســعاله المتواصــل، أما اليوم، أو هذه الليلة، فإنه لم يســمع شــيئاً، ســمع فقط أنفاس المرأة التي كانت تســتلتقي جانب فراشــه، والتي ســحبته ليدخل النار معها، وعندما اجتاز عدنان الفلاح دائرة النار وجد نفســه داخل جنة صــغيرة، فيها كلّ ما تشــتهي النفس.. الماء والخضــرة وأشــجار الفاكهة، والحوريات الصــغيرات والغلمان المولدون.. استلقى فوق الخضرة، ثم أشار بيده فقطفت الفاكهة ونزلت إليه في صحون مذهّبة، أكل بعضها، وألقى ما تبقى منها في النهر.

ثم إنــه خلع ثيابــه، وألقى نفســه في نهر المــاء، أحسّ بنشــوة البرودة تطفئ نيران جسده، فأوغل فيها.

عميقاً، ســحبته المرأة إليها فأحنى رأســه على صــدرها، ثم راحت تداعبه، وتقبّله وتشــمه وتضــمه إليها، كان مطيعاً كرفّة نســيم على غلالة رقيقة، أخرجته من الماء وأراحته على جسدها المستلقي فوق خضار يملأ مساحة العين وسمع صوتاً رخياً ناعماً يأتيه من عمق الحياة فأرخى كلّ جسده وأغفى.

انزلقت أولى حبيبات النور على أرض الدار فاســتيقظت الخضــرة تســبّح خالقها وحركت شجرة الكباد أوراقها فانتشرت الرائحة تعبق في المكان.. كان بيت عدنان الفلاح مسيّجاً بالخضرة والشجيرات الصغيرة، في وسطه بحرة ماء، وعلى أطرافها شجيرات الريحان، عصافير غرّدت وندى ملأ رؤوس الزهر، دبّت الحياة في مخلوقات الله وعدنان الفلاح كان يتمتم بكلمات غير واضــحة ورأســه فوق جســد المرأة التي كانت تنام في فراشــه، برفق دفعته اليد البضّــة فرفع وجهه الملتصق على الصدر الأبيض وابتعد إلى

فراشـه تاركاً بقعة حمراء مكان راحته، والمرأة ظلّت مسترخية بطولها الفاخر وبياضها وشهوتها ونقرات الضياء بدأت تلدغ جسديهما، وحين عمّ النور المكان فتح عينيه وأدارهما باتجاه فراشه، لم يجد شيئاً، وجده فارغاً، وقف أمام المرآة فوجد وجهه شاحباً، هل كان في حلم؟ هل كان ذلك حقيقة؟ ولكن الفراش موجود، فأين المرأة؟ خرج إلى باحة الدار، أنعشته ظلال الخضرة، يا أبتِ إني رأيتُ ... وضع رأسه تحت صنبور الماء، نفضه.. سمع صوت أمه يناديه، دنا من الصوت، قال الصوت: تعال يا عدنان سلّم على زوجة عمك "عاليا". ستزورنا عاليا بضعة أيام لأن عمّك مسافر.. كانت ترتدي رقائق الصباح البيضاء، وضعت فنجان القهوة في يدها اليسرى، ومدّت اليمنى لتصافحه، تقدّم إليها يلفّه الصمت والحياء والخوف ورعشة اليد وخفقان القلب.. بصعوبة أخرج "أهلاً وسهلاً".. يقال إنّ عاليا كانت أجمل نساء عصرها، وكانت النساء تدعوها إلى صباحاتهن ليتباركن بحسنها، وكن يتناقلن إشاعات كثيرة عنها، ويقال: إنها ولدت من امرأة لم يمسّها رجل ... ولدت من ماء المرأة فقط.. ويقال إن أمير الجان واقعها فحبلت وأنجبت عاليا، ولما بلغت الفتاة سن النساء أدهشت كلّ من رآها.. خطبها أمراء وقادة جيوش ووزراء، ولكنهم عندما كانوا يعرفون قصتها يتوجّسون خيفة فيبتعدون عنها.. ومرّة وقد كانت تنشر الغسيل على السطح بان وجهها وصدرها وتحت إبطيها، وقف أمامه صقر يحدّق إليها بعينين حادّتين، أخفت ما ظهر منها، وأسرعت تنهي نشر غسيلها، وعندما أرادت النزول، التفتت إلى الصقر فشاهدته شاباً وسيماً كأنه فلقة الصباح، ولم تدر كيف ذهلت، وانسلت إليه، لتقف أمامه وتتملاه، وتذوب فيه، تقدّم منها وعانقها طويلاً ثم تركها وطار.. ومنذ ذلك اليوم كان يأتيها في منتصف ليلة الرابع عشر من الشهر القمري، يوسّدها يده ويعانقها حتى الفجر، وقبل أن تغيب نجمة الصباح يقبّلها قبلة الصباح ويرتدي ريشه ويطير.

وعندما ماتت زوجة العم، وبعد عشرين يوماً دلّوه على عاليا.. شاهدها فدفع نصف ماله إلى أمها وبعد أسبوع كانت عاليا في منزله.. عاشا زوجين سعيدين، وهاهو يسافر

البارحة ويودعها أمانة عند رسمية، لن يتأخر، بضعة أيام ويعود، وانسحب عدنان مذهولاً من هول ما رأى.. هي ذاتها المرأة التي حرمته من عائلة عمه، وهي ذاتها التي.. التي.

لم أشأ الكتابة.. أغمضت عيني فرأيت كلّ ذلك.. تضاءل العالم لأجده بين يدي كرة صغيرة، وضعت يدي أسفل ذقني ورحت أفكر وأتبصّر، كنت أريد أن أعرف دقائق الأسرار.. لكنني كنت لا أطيق التراب.. شعرت أنني أكاد أختنق، فمضيت إلى المقبرة.

كان الوقت ليلاً والقمر في المحاق، جعلت أصابعي أمامي ومشيت على نورها، وعندما وصلت إلى قبري وجدت شجرة ضخمة تفرش جسدها فوق قبري، يا حيّ، يا قيّوم، ضربت أصابعي في الأرض فانفجرت عين الماء، توضّأت ثم صلّيت، ودعوت الله فانكشف القبر عن جثتي المكفّنة بالأبيض.. حملتها ومشيت.. قلت: أدفنها في البحر، وإلى البحر مشيت.. استأجرت مركباً ومضيت به بعيداً، كان الليل يرسل الهول في البحر، ولما ابتعدت كثيراً خفت واستلقيت بجانب جثتي.. وإذ بصوت يملأ الماء، قال: ألم أقل لك أن تترك الجثة داخل التراب؟ ولكنني وجدتها فوق التراب.. التفّت إلى الصوت، فإذا بنور أخضر يملأ المكان، ضرب القارب بكفّه فشقّه، أمسكت جثتي وجلست فوق سطح من الخشب، مدّ النور الأخضر سجّادة فوق البحر وصلى ركعتين.. كنت مضطرباً وخائفاً ثم بدأ الاطمئنان يسري في عروقي، قال: ادفنه هنا، قلت يجب أن نغسله، قال غسلتموه قبلاً، قلت: قد يكون معفّراً بالتراب، ثم أخذه من يدي، وصعد به السماء، وضعه في إناء من الفضة، وضرب غيمة بكفّه فتساقط مطرها يغسل جسدي.. ثم أنزلني فوق اللوح، صلّى علي، وقفت وراءه ثم أنزلنا الجثة في البحر، طافت فوق الماء، ثم شقّت الكفن، وخرجت منه تطير باتجاه السماء، اختفى الصوت والنور الأخضر، وشاهدت جسدي معلقاً بين الأرض والسماء.. أوقفني الملاك الأول حارس أبواب

السـموات، قال لجسـدي لا تدخلها أنت ... قلت: أعود إلى الأرض، قال: أنت تظلّ هناك أما هو، فيظلّ هنا، لا يدخلها أحدٌ إلا بسلطان..

وها أنذا تائه أقصّ عليكم حكايتي.. لم أشـأ ذلك، ولكنني حين أغمضت عيني، رأيت كلّ شيء محفوظاً في لوح أخضر عليه حروف من نور.. سأروي لكم الحكاية.

***

.. عندما ترك عدنان الفلاح تحية الصـباح ترفّ على وجه المرأتين، فتح باب الدار وألقى نفسـه في أرض الله الواسـعة، كانت البرية تفتح ذراعيها له فاسـتلقى في امتدادها.. ظلّ هكذا أياماً، إلى أن جاع فأكل مع وحوشـها وشـرب مع غزلانها، توسّـد الأرض وأوراق الشجر وغطى بصره بنجوم السماء، كانت الرجفة الأولى لا تزال تسري في عروق جسده ولا يزال جسد المرأة يذوب بين أصابعه، وتحت لسانه..

ثم كان ذلك الفجر الذي خرج من جذع شـجرة طيّب، انفلقت الشـجرة وخرج النداء، خرج قوياً كأنه يشـقّ المكان، تراخت أعصـاب عدنان الفلاح وسـقط فوق بقايا الشـجر.. يا هذا.. جاءه النداء لكنه ما أدرك شـيئاً، وعند المسـاء فتح عينيه، خرج من المكان ورأى ملائكة صـغاراً تدور فوق رأسـه: ترف بأجنحتها وترتّل ترتيلاً، ثم ومن شـق الشـجرة.. انزلق النور وخرجت حورية بيضـاء، جسـدها بلون العاج، مدّت رجلاً، تلتها الأخرى، كانت عارية كغزالة تجتاز البحر، صدرها متوثّب يقفز أمامها، رفعت إصبعها، وأطعمته من إناء العسـل مرة وثانية وثالثة حتى أشـار بيده: أن تتوقف، ضـحكت، ثم انسـلّت متراجعة، دخلت جذع الشـجرة الطيبة وتركته وحيداً.. رحل الملائكة الصـغار أيضـاً، وانتعش المكان بالرائحة وانهالت الموسـيقا والأناشـيد والابتهالات وعمّ النور وانسربت الحياة توقد شموعها فوق كلّ شيء.. دار المكان سبع دورات في رأسـه، وجاءه الصـوت قوياً، انهض فما نهض، ردّد الصـوت نداءه، مرة أخرى، فنهض، وترك البرية.. خرج إلى نهر ماء، فاستقى، ثم اغتسل سبع مرّات وحين خرج جاءه الأعمى.. أمسكه من

يده، ودخل به ستراً طويلاً، وإذ بفسحة خضراء مظلّلة بغيوم صغيرة، قال الأعمى: هنا ولدت، تلك هي أمك، وذاك هو والدك.. وأنا الذي غسل جسدك بماء تلك البركة.. فاذكر المكان..

كان الأعمى طويلاً عريض الكتفين مجدور الوجه، جلس في وسط الخضرة وأخرج من جيبه ناياً أحيا به خضرة المكان.. واصطف الحرس على جانبي البستان يؤدون نشيد الوداع.. وعلى صوت الناي جاءت الحوريات، انتثرن فوق المرج الأخضر، كلّ واحدة ترتدي لوناً.. كلّ واحدة لا تشبه الأخرى، جئن من ناي الأعمى ومن سحر المكان، انفلتت الدوائر لتعيد تشكيل الحياة، مرة أخرى وأخرى.. والأعمى يهدر متسرباً مع أنين الناي القادم من بعيد.. شدّتني أميرة الملوك إلى صدرها: ارتمت على طراوة الجسد الناعم، ألقمتني صدرها فرحت أعبُّ رحيق الحياة.. انتظرتني ساعة أو أكثر حتى أفرغت كلّ صدرها، عند ذلك غفوت بين ذراعيها، وكطفل مسّدت شعري وتململت أصابعها فيه.. ورأيت: طريقاً طويلاً، يمتد من العين إلى العين، كان الطريق من ماء الفضة فمشيت فيه، تقف على طرفيه كلّ نساء الأرض.. والغيم يظلّل المكان، وعندما خطوت الخطوة المئة بعد الألف، سمعت صوتاً عظيماً، وتفرق شمل المكان، ماذا جرى؟ لم يبقَ أحد، وظلّلت وحدي أتابع الطريق، ثم ظهرت امرأة في نقطة الأفق البعيدة، تمدّ يديها أن تعال وتقدّمت وتابعت المسير.. وعندما نقرتني الشمس على عيني.. أفقت فما وجدت المرأة التي أرضعتني، ما وجدت أحداً، غاب المكان عن المكان، يا أبتِ، يا هذه، يا أنتم، أين تكونون؟ ودخلت في الغياب.. وجدت الأرض خالية إلا منّي، بيضاء بلون الفضة، جاءني صوت الناي، التفتّ حولي فلم أجد أحدا ً، وفي الخطوة الأولى، أمسكت بي يد، التفتّ فوجدت الأعمى يأخذ بيدي ويدلّني على الطريق، أوصلني إلى باب المدينة العتيقة، فوجدت عدنان الفلاح يقف عند البوابة ينتظرني، ربط الأعمى يدي بيده، قال لي:

أدخله المدينة.. واتركه على هواه، لكن قُصّ◌َ عنه الحكاية، ذاب الأعمى في◌ّ◌َ، ودخلنا جميعاً من بوابة المدينة.

***

- **مقهى الدنيا:**

قبل ذلك جرى ما جرى وانتهت البلاد ووقف العباد يفتحون أفواههم، ويرخون أجزاءهم السفلى، وجاءت الأنباء عن حرب لم تقع، كنّا نجلس على فسحة من تراب نطيّر طائرات الورق ونصنع من دفاترنا المدرسية السفن الحربية لنقذفها في الماء.. وكان عدنان الفلاح واحداً منّا.. نقاسمه ألعابنا، وتضع لنا أمهاتنا الزيت والزعتر على رغيف الخبز لنمضي إلى مدارسنا.. وكان هو يقف مودّعاً لنا..

ذلك اليوم لم نذهب إلى مدارسنا.. قالوا اليوم.. وقعت الحرب، هكذا أعلنت الحرب من كلّ مذياع، وتجمهر الناس ينصتون إلى النبأ العظيم.. قال رجل: الله أكبر.. قال آخر.. سنصلي في تل أبيب.. زغردت النساء، والأولاد رفعوا أعلام بلادهم وانطلقوا يهتفون بحياة زعمائهم الوطنيين..

"يا جماهير شعبنا الأبي في صبيحة هذا اليوم الخامس من حزيران.."

الله أكبر..وكان المساء وعطلت الناس أشغالها والله أكبر في كلّ مكان، اجتمع الناس في دوائر كثيفة ينصتون إلى أقوال الإذاعات العربية، حطّمنا كلّ دفاعات العدوّ وأسقطنا أكثر طائراته.. قرأنا الصحف في الأيام التاليات.. وجرت الاتصالات بين الزعماء العرب، وأكدوا جميعاً على خوض المعركة، حتى النصر.. لقد بدأت العصابات العدوان على المتحدة فانقضت الجيوش العربية لتنهي أسطورة إسرائيل.. واندفعت الجماهير تُحيّي جيوشها، رجل يرفع رجلاً على كتفيه، وابتدأت المسيرة.. قال رجل بصوت مرتفع: حتى شوارع تل أبيب..

ردّ الجميع بصوت ملأ ضياء الشمس الحارقة، حتى شوارع تل أبيب وانطلقت المسيرة عنيفة هادرة مشى فيها كلّ من يدبّ ومن يزحف، ومن يطير.. بلاد العرب

أوطاني، من الشـــام لبغدان، ومن نجد إلى يمن إلى مصـــر فتطوان، ها هي أمة العرب تهتف هادرة فأين أنتم أيها الجبناء؟

... كان بيت عـدنـان الفلاح يقع في زاويـة المقبرة العليـا.. القبور المكتظّة على يمين الطريق الضيق.. والأرض الرحبة التي تنتظر الأحياء الذين سيموتون على يسـار الطريق ثم تبدأ البيوت الطينية التي تشـبه بيوت القرى، ويضـيق الدّرب عند باب بيت عدنان الفلاح..

دخل والده الذي لم يكن والده على الأم التي كانت تنسـج أشـعة الشـمس لتزخرفها على الجدران المكلّســة بالأبيض، كان يهتف بحماس شـــديد، وهو يحيّي انتصـــارات جيوشنا.. أخرج الراديو ووضعه على النافذة ليسمع وهو يجلس بجانب زوجته الرؤوم.. قالت له: ماذا أصابك؟ قال لها: ألم تسمعي بعد؟ إنها الحرب.. قالت: أي حرب؟

في رأس المقبرة هذه توجد البيوت.. بيوت طينية حمراء مســقوفة بالعمد، ومن بينها بيت عدنان الفلاح، حوالي عشرين، ثلاثين بيتاً لا أكثر.. جاء رجل منهم من أقصى المدينة وبنى بيتاً، ظلّ وحيد عشـــرات الســنين.. لم يقرب أحداً ولم يدخل المدينة مرة أخرى، يأكل من خشـــاش الأرض وممّا يصـــطاده من طير أو حيوان، لم تكن هناك مقبرة، كان هناك نبع صغير ينبع من أعالي الأرض ويصبّ في وطائها حوله شجيرات صغيرة وكثير من الخضار، وأصوات هائلة للبعوض والضفادع والطيور والهررة والكلاب.. نصب الرجل شـــباكه وعاد عند الصـــباح، وجد رِجْلاً فتوجس خيفه.. وعندما تابع الرجل وكشـــف النباتات التي كانت تغطّيها، أمســكت يده يداً.. هذه اليد كانت لامرأة عارية، نحيلة ونشـطة، وشعرها موغل في السواد.. من أنت يا أمة الله؟.قالت له: استر علي.. ستر الله عليك، فســترها الرجل وأخذها إلى منزله، ســـار أمامها وتبعته، ولما لم يكن هناك أحد بعد فقد مشت دون أن تضع كفّها على فرجها، كما تفعل المرأة عادة عندما تكون عارية أمام رجل لأول مرّة، بخاصـة أن الرجل يســير أمامها.. دخلا البيت، وألقت نفســها على قدميه تطلب منه أن يبقيها عنده.. أشـاح بوجهه عنها.. وطلب منها أن تجد شـيئاً تسـتتر به، فأخذت ثوباً معلّقاً لـــه وزلقته على جسدها.. ثم جلست أمامه.. من أنتِ؟ صمتت

المرأة وقالت سأحكي قصتي لك يوماً ما.. دعني اليوم آكل وأنم.. أنا لم آكل منذ عدة سنوات.. و.. صمتت.. نهض الرجل، أعدّ لها طعاماً.. التهمت كلّ شيء وألقت رأسها على وسادة ونامت، وتابع الرجل حياته كما كانت في السابق ولم يتغيّر شيء عليه، لكنه ظلّ يسأل نفسه: "من تكون هذه المرأة؟".

في شهر آذار من ذلك العام وعندما التقى كوكب الزهرة بالقمر استيقظت المرأة. في البداية مدّت يديها على طولهما ثم فتحت عينيها بعد ذلك أنهضت نصف جسدها ثم جلست ولم يكن الرجل موجوداً عصر ذلك اليوم، أحسّت رائحته، نهضت فاستحّمت، وفردت شعرها على كتفيها، وجلست تنتظر الرجل، وعند غياب الشمس عاد الرجل ومعه بعض الطرائد .. استقبلته باسمة فحيّاها.. وأخذت ما معه وأعدّت له كلّ شيء وجلست أمامه تنتظر أن يبدأ الطعام فبدأ، أكلا وشربا، كانت تحادثه وهو لا يردّ عليها.. وعندما انتهيا، سألها جملة واحدة، من أنتِ؟ فصمتت هي الأخرى، وبعد قليل.. قالت: سأقول لك من أنا يوماً ما.. فانهض الآن وتعال إليّ.. أشاح الرجل عنها، وفي أثناء ذلك خلعت ثوبها وندهت له بتوجّع فما أجاب نداءها، طلبت منه أن يراها.. فالتفت إليها.. امرأة من شبق وتوجع وفتنة، بياض من الجسد الأليم، شعر فاحم، عينان شديدتا السواد، حرّكت ساقيها على بعضهما، مدّت يدها.. فلم يستجب لندائها.. قال: إني أخاف الله ربُّ العالمين.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. نهضت إليه، وضّمته من الخلف، شمّت راحة رقبته، أحسّ بنهديها يضغطان على ظهره برفق وليونة.. أبعد يديها عنه، قال لها: عندما تقولين لي، من أنتِ.. أجيبك، تأوّهت المرأة وقالت: في الزمن الحالي، لا أستطيع.. إذاً نبقى على ما نحن عليه.. ولكنني أريدُك.. أنا لا أرغب امرأة لا أعرف عنها شيئاء. وظلاّ هكذا زمناء.

.. ظلّت المرأة تتجوّل مع الرجل في الغيضة الصغيرة، تصطاد معه ويجلسان على أطراف النهر الصغير، تقصّ عليه الحكايات وتمازحه، وهو لا يجيبها، لأن البياض قد ملأ نصف شعره وطالت ذقنه، وأصبحت نصف بيضاء هي الأخرى، بل إنها كانت تلاعبه وتضحك منه في بعض الأحيان.. فقد استيقظ يوماً ما، نظر إلى مكان نومها فلم يجدها، انتظرها قليلاً فلم تأتِ، ارتدى ثيابه ونهض يفتش عنها، دخل الغيضة، بحث عنها،

صـــرخ عليها: يا امرأة، يا امرأة، فلم يجبه أحد.. قلق عليها وانســـلق دماغه داخل غطاء رأســـه، اتّجه إلى الأماكن المحيطة، القريبة، وكاد أن يدخل المدينة ليســـأل عنها، ولكن ماذا يقول للناس؟ عاد عند المساء، وجلس وحيداً على ضفة النهر.. لم يكن يريد شيئاً لا طعام ولا شـــراب، كان يريد أن يبكي فقط، وفجأة انزلقت المرأة وجلســـت بجانبه تحيّيه.. نظر إلى وجهها، كانت تضحك، وهو أوقف دمعة في محجر العين، تركها ومضى إلى البيت، تبعته لتشـــرح له أين كانت، لكنه لم يتوقف.. وعند مدخل البيت ســـبقته ووقفت أمامه عند العتبة، تطلب إليه أن ينصـــت إلى كلامها، رفع يده وصـــفعها بقوة رجل، ودلف إلى البيت، لفّ نفسه بغطائه، وأجهش في البكاء.

.. بعد زمن.. بعد عدة أزمنة، دخل الرجل ولنقل إن اسمه بدران..، إلى البيت فشاهد المرأة في وســطه، عارية على سجّادة منسـوجة من الخرق الملونة.. كانت تضـمّ كفيها إلى بعضـــهما وتســـتقبل الشـــمس الداخلة من فتحة الباب.. تفتح رجليها وهما منثنيتان، وتلصـــق باطن القدمين إلى بعضـــهما.. بدران أو الرجل لم يدخل وإنما انتظر أن يزول اســـتغرابه بينما مدّت المرأة يديها على طولهما، وراحت تتمتم بكلمات غير مفهومة وتســـبّل أهدابها.. ثم لمّت ركبتيها وبكلمة واحدة وقفت رافعة يديها.. كانت نظيفة في كلّ شـــيء.. ثم رفعت رؤوس أصـــابع قدميها، ومدّت يديها إلى الأمام، دفعت مؤخرتها إلى الخلف طويلاً، وانسابت.. باتجاه السماء.. لم تلتفت ولم تقل شيئاً وبدران يفتح فمه منذهولاً. يا أنتِ، يا أمة الله!.. من أنتِ؟ وذابت المرأة في قرص الشـــمس.. بدران دلف إلى داخل البيت، أوصد الباب على نفسه من الداخل، تمدّد ونام.

مرّت أيام وســـنوات وفصـــول، وأحاط التراب بالمنزل من كلّ طرف حتى شـــكّل قبة مغلقة لم يعرف أحد أسرارها، ولم يجرؤ أحد على كشف ما بداخلها.. نبتت الحشائش والأشـجار الصـغيرة حولها، اسـتراح أحد الرعاة في ظلّها وكان معه حمار مقيد بحديد، وما إن اقترب الحمار من المكان حتى انفك القيد وراح يعدو هارباً.. امرأة وزوجها اســـتراحا قرب القبة، وكانت المرأة حاملاً فولدت غلاماً قوياً ونظيفاً، نظر في وجه الأب وراح يضحك بصوت مرتفع، هرب الأب وتركهما ومنذ ذلك اليوم وهو يسوح في الشوارع

ويحارب الأشجار، امرأة كانت ذاهبة إلى حمام السوق.. وكانت عاقراً. استراحت قليلاً لقضاء حاجتها في طرف القبة.. فحملت منذ ذلك اليوم..

تناقل الناس الأخبار العجيبة التي تحصل بالقرب من القبة فجاء وفد رسمي من أصحاب العمائم الخضر وقصّوا الشريط الحريري، وألقى طويلهم خطبة حماسية ندّد فيها بأعداء الأمة، وتمّ إعلان افتتاح مزار جديد، يزوره الناس ليضعوا على أطرافه الزيت والبخور والمناديل.. وتمّ تنظيم ذلك فرفعت الأعلام الخضراء المطرّزة بالأبيض والأسود، ووضعت شارة في قمة القبة، ثم سوّر المكان بالحديد الأخضر، وزرعت عدة شجرات، كانت النساء تأتي لتأخذ من أوراقها، لتوضع في الأماكن التي يراد الخير لها.

وعندما اجتاح هولاكو المنطقة لم يقرب المكان، ويقال إنه رأى لمعاناً يومض في السماء بقوة ثم يسقط في القبة ويذوب فيها..

لم يكن ذاك اللمعان إلا جسد المرأة التي طارت في السماء، وها هي تعود الآن إلى بدران بعد رحلتها الطويلة بين الكواكب والأفلاك.. وجدت بدران نائماً فأخذت ماء من الجرة وغسلت وجهه فأفاق الرجل، قال: أشهد أن لا إله إلا الله عندما رآها.. وهي ضحكت وطلبت إليه الجلوس فجلس.. قالت الآن سأقص عليك حكايتي.. فأنصت إليها..

كنتُ قد أتيت من مجموعة شمسية بعيدة في الطرف الآخر من الأبدية.. كوكبنا لا يزال يعيش على الفطرة.. نأكل ونلبس من الطبيعة، ومرّة كنت عند النهر فرأيت صورتك في الماء وطلبت يدك من أبي الذي يحكم الكوكب فرفض، عند ذلك هربت وجئت إليك.. وقد حاولوا البحث عني حتى استطاعوا معرفة مكاني، أنا أراهم وهم يرونني، أما أنت فإنك لن ترى أحداً منهم، كانوا ينقلون إلى أبي أخبارنا، وقد أعجب أبي بصفاتك فأرسل

إليّ وغادرت كما رأيت.. وقد بارك الآن زواجنا وسوف يحضر بنفسه يوم زفافنا.. فافرح يا سيدي.

الرجل بدران قلّب شفتيه ولم يفهم شيئاً.. لكنه كان راضياً مطمئنّ النفس، وفي القبة تمّ عقد زفاف تاج الملوك على بدران وجاءت قوة خفية سحبت بدران من داخل القبة، أخذته إلى كوكب الأقمار التسعة ليتمّ الزواج هناك. وفي الفضاء وهو قادم، اصطفت النساء على أطراف النجوم، جاؤوا بطالبات المدارس اللواتي كنّ يحملن الزهور بيد وصورة بدران باليد الأخرى، لوّحن له، وطرن وراءه، سرباً من الألوان.. أسراباً من الرائحة الطيبة والأغاني.. نزل الجميع في الحديقة الملكية.. تقدّم بدران وحيداً مع سيدة لم يعرف اسمها بعد.. وفي آخر الطريق.. كان هناك سيّد مبجّل تحيط به نساء مبجّلات وأمامه قليلاً وقفت تاج الملوك، في البداية لم يعرفها لأنها كانت قد جُهّزت لتكون عروس الكوكب.. مدّت يدها إليه فعرفها فوراً.. وعند المساء بدأت الاحتفالات، فقد أطلقت النجوم في السماء ورأى سكان المجموعات الشمسية الأخرى ألوان قوس قزح وهي تُرسل من الكوكب.. و حُمِل بدران وعروسه على الأكف وطاروا بهما سبع دورات شمسية حول الكوكب ذاته، وفي النهاية كانوا قد جهزوا لهما كوكباً صغيراً من الندى ألقوهما فيه.. وشعّت الألوان منه طوال الليل.. ولم ينم بدران ليلتها.. كان يفتح عينيه وفمه ودهشته كلّ الوقت لأنه رأى شيئاً عجباً يصدر من تاج الملوك فصار البخار يخرج من أذنيه..

بعد ثلاثة أيام جاء الملك والملكة وباقي الحاشية إليهما.. دقّوا نواقيس الفرح، حمّلوهما بالهدايا.. وسار الموكب حتى مجموعتنا الشمسية، حيث تُرِكا وحيدين تحرسهما عناية الجميع، نزلا الأرض في موقع يقع قرب القبة السابقة.. ومن جديد بدأ بدران يبني بيتاً جديداً لعروسه تاج الملوك ولم يبوحا بسرّهما لأي كائن.. التزما الصمت، وحملت المرأة وبعد ثلاث سنوات وتسعة عشر يوماً أنجبت المرأة طفلاً، نزل وهو يهتف ويحمل بيده علماً.. كان هذا الغلام هو الجد الأول لعدنان الفلاح.. وعندما كبر وشب

أرســلت أمه وراء إحدى قريباتها من ذلك الكوكب فجاءت تزورها ومعها ابنتها الصــغيرة فزوّجوهما.. وبدأت الحياة تدبّ في الحارة التي سمّيت حارة "المزار".

عندما دخلت جيوش الســلطان سـليم إلى بلادنا وتوغّلت في كلّ المناطق والأحياء لم تصـــل إلى منطقة حارة المزار، وبقيت - الحارة - بعيدة عن مناطق النفوذ التركي وعلى ذلك فقد نما الدغل المحيط بها وتشابكت أحراشه، ولم يعد أحد يستطيع الدخول إلا بســلطان.. وقد أقام بدران في المنطقة الجنوبية منه باباً كبيراً يُغلق عند كلّ مســاء.. وعندما يهاجم أحد ما المناطق المحيطة.. أو عندما ينتشــر خبر أخذ أو لمّ الناس إلى الجهادية.

بدران أصــبح طويلاً جداً، أبيض الشــعر، وقد ترك لحيته تطول حتى وصــلت إلى منتصــف صــدره، وقد خالطت بياضــها بعض الشــعيرات الســوداء، ثم وضــع منديلاً أخضــر على رأســه، وأصــبح له نبوّت يســير معه عندما يتفقد أطراف حارة المزار بينما مرضــت تاج الملوك بمرض فتح الشــهية.. وراحت تلتهم الطعام حتى تمتلئ معدتها، ثم تتقيأ ما بجوفها دفعة واحدة.. وأصبحت سمينة جداً تشبه دائرة برؤوس ثلاثة.

تساكنت البيوت وازداد عددها.. كثر الأولاد.. الصبيان والبنات، صار هناك عجزة.. أمهات وآباء.. الرجال يستلقون على ظلال الشمس والنســاء تقوم بجمع أزهار البابونج والزهور الأخرى.. من الأرض الخضراء، بينها الأحمر والأصفر والبنفسجي..

ذهب رجل إلى المدينة المجاورة ورأى محاســنها، ثم عاد وعمل ثغرة في حائط بيته وصنع فيها الطاولات والكراسي المصنوعة من خشب الأشجار ورفع لافتة كتب عليها: مقهى الدنيا..

بدران أصبح الحاكم الشرعي لحارة المزار، يتولّى شؤونها الروحية ويفتي بين الناس، يحلّ لهم مشاكلهم، أصبح له مجلس، وغرفة خاصة، وفي هذه الغرفة كان يجلس آناء الليل وأطراف النهار، يقرأ في كتب صــفراء يأخذها من الكتبيّة التي تزيّن جدار الغرفة..

في الغرفة سرير وكرسي وطاولة يكتب عليها في بعض الأحيان آراءه أو يضع حلولاً للمشاكل التي تعترض الحارة.

حتى ذلك اليوم لم تكن الحارة قد تعرّضت لمشكلة كبيرة، كلّ المشاكل كانت من النوع الصغير الذي يستطيع بدران أن يحلّه إلى أن بات عبد الجليل يوماً ما خارج الحارة..

جميع أهل الحارة كانوا يلتزمون بالحضور يومياً، ولم يتأخر أحد منهم بعد الزوال أبداً.. ينتشرون في بقاع الأرض يعملون ويفعلون كلّ شيء ثم يعودون إلى الحارة، يجالسون أولادهم، ثم يذهب الرجال إلى المقهى والنساء تناغي الأولاد، أو تساعدهم في تعلّم الصلاة والنوم مبكرين..

تعوّد عبد الجليل، وهو من الجيل الخامس عشر لأسرة بدران أن يذهب إلى المدينة كلّ يوم، يتنزّه في حدائقها ويُلاعب أطيارها ثم يغوص في قديم مزاراتها وأضرحتها ومساجدها، ومرة وبينما كان يراقب حُسن المدينة وبهاءها إذ سمع ضحكة امرأة تقع في عينه، لم يشعر بشيء، تكلّس عقله وماتت مشاعره وحين حاول أن يمشي لم يستطع، وقف لثوان ثم ركع على ركبتيه وسقط على الأرض.. المرأة كانت تراقبه من نافذة منزلها، هرولت إليه وعبر الباب دفعت خادمتين عندها فسحبتاه إلى داخل أو إلى صحن الدار، فاستلقى جسده خرقة بالية مغسولة بالماء.

بعد ساعة أو أكثر فتح عبد الجليل عينيه فشاهد فتحة صدر ووجه امرأة، هكذا قدّر، شمّ رائحة ماء الورد تنثال على وجهه، أغمض عينيه وسّبح في ملكوت الوجه، لم يتمنَّ أن يستيقظ كي لا يفقد اللحظة التي هو فيها.. المرأة ناغته، ودلّعته، استيقظ، تقبر أمك، واستيقظ عبد الجليل، ولم يسأل، أين أنا؟ ولم يسأل من أنتِ؟، أمسك رأسه وفتله ليعيده إلى مكانه.. شرب من يد المرأة كأس ماء.. رأى أصابع يدها بيضاء ناعمة طويلة منسابة كنهر من المياه الصافية..

بعد أذان العصر ودّعته المرأة لأنه لا يستطيع أن يتأخر، وطلبت إليه أن يعود في اليوم التالي، طبعاً وكما تعرفون سيعود مبكّراً وسيسمع حديث الطيور ويشمّ رائحة

الطيوب من الصدر وتحت الإبطين، وسيغرّد مع المرأة التي ستضع له الطعام وتسقيه الشراب من كفها، ويستلقي على زندها، ويتحول البيت إلى جنة صغيرة فيها ما لذ وطاب من هناءة الدنيا.. والمرأة تفرد شعرها.. وسيغني كلّ شيء وترقص له الراقصات وتغني له المغنيات ويسأل نفسه، هل هناك حياة أجمل من هذه التي يحياها؟ وقبل أن يجيب على هذا السؤال يسمع صوت المؤذن وهو يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر فيحمل حذاءه ويمضي إلى حارة المزار..

سنة، سنتان، وخمسة شهور وعبد الجليل على حاله تلك، ومرة شرب نوعاً جديداً من الخمر، هكذا قالت له المرأة، وغنت لـــه بصوت أم كلثوم ورقصت كما لم ترقص سامية جمال أو نجوى فؤاد أو.. حصل كلّ ذلك والرجل يصفق بيديه ورجليه، ويرقص ويغني هو الآخر.. وأذّن المؤذِّن وذهب المصلون يؤدون فريضة الصلاة، ولم يسمع صوت المؤذن لصلاة المغرب ولا صلاة العشاء، سمعها ظهر اليوم التالي.. فأوجس خيفة.. نظر حوله ولم يرَ أحداً، ارتدى ثيابه، وركض يروم حارة المزار فوجد الشيخ بدران عند الباب واقفاً، حاول الدخول فأشار إليه بالرجوع من حيث أتى.. فرجع ذليلاً منكسراً..

عاد إلى امرأته، وصل الحارة، قرع بابها.. خرج إليه رجل مدهش بكل شيء، تلجلج في البداية، ثم سأله عن امرأة كانت تسكن هنا.. الرجل استنكر ذلك، لا توجد امرأة هنا سوى زوجته، قلب عبد الجليل يديه، سار قليلاً، ضحك بصوت مرتفع ومضى إلى آخر الزقاق، وظلّ يدور كلّ يوم حول البيت ينتظر صـــوت ضـــحكتها.. ودائماً دائماً كان يرى الرجل المدهش يخرج أو يدخل البيت، ينظر إليه كأنه يريد أن يقتلع عينيه..

بدأت تظهر أولى الكرامات عند بدران، فقد اشتهى أحد الجالسين عنده العنب الشـامي مرّة، فمدّ بدران يده إليه وكان بها عنقود عنب كبير، أكل منه كلّ الجالسين وبقي منه الشيء الكثير، ومرّة جلسوا بين الصلاتين، المغرب والعشاء، يذكرون أنواع السمك وأطايبه، وإذ بسمكة مشوية ومتبّلة ومزيّنة في وسط الغرفة، تفتح فمها وكأنها تقول لهم: كلوني.. فأقبل القوم عليها دفعة واحدة وظلّوا يأكلون الليل كله، ويقال إن أهل المزار جميعاً أكلوا منها.. وبقي منها الشيء الكثير.

وكان عبد الجليل في تلك الليلة يفترش الأرض قرب النهر الذي في الطرف الجنوبي من المدينة وقد ساءت حاله وطال شعر ذقنه وشعر رأسه واستوحش، ظلّ على هذه الحالة سنوات كثيرة لا يعلم عددها.. كان يهيم في الشوارع، وينام في البيوت الخربة، ولا يملك إرادة لنفسه كأنّ لعنة كبيرة قد حلّت عليه، كان يجوع ويعرى وتأكل الشمس رأسه، والبرد يهترئ داخل جسده، لكنه لم يبالِ بالأمر.. ومرّة كان يقف على باب فوَّال وبيده رغيف خبز، دعاه الفوّال لتناول صحن فول.. فأكل واحداً بسرعة، ثم نهض وكنس المكان ومسح الطاولات فأعجب الفوال بِهمَّته وجعله يعمل كأجير عنده.. وفي الليل يحرس له المحل، وينام فوق السقيفة.. جمع بعض المال ونزل يوم الجمعة إلى البريّة وهناك تعرّف على الأضواء السعيدة والمطاعم، ومحلات الشرب التي تُسمَّى الخمارات أو المواخير فدخل إحداها.. وشاهد وجوهاً مألوفة حزينة تغني بهدوء للّيل والقهر والقدر.. فَأْتَلَفَ معها وشرب كأساً وآخر، وسلّم على الذي بجانبه وسلّم عليه الذي من الطرف الآخر، وبصحتك، ويلعن أبو هذه الدنيا.. وغير دائمة لأحد.. واشربْ عليها تنجل، وشرب عبد الجليل، ثم خرج يتّكئ على ما بقي عنده من نقود وعلى ذراع أحد الشبان الذي أخذه إلى الكارخانة.. وهناك تعرّف على أجساد النساء راقب كلّ شيء، لم يترك واحدة إلا ودهش في جسدها وفي وجهها.. وراح يجرّب كلّ يوم جمعة واحدة أو اثنتين بحسب الأموال التي يجمعها كلّ أسبوع، وفي بعض الأحيان كان يمرّ خلال الأسبوع لأكثر من مرة، يُجالس إحداهن. فقد تدرَّب على عمله وراح يُتقنه بسرعة، يعرف كيف يجمع النقود، وكيف يصرفها دون أن يبذّرها إلى أن تعرف إلى أميرة اليهودية.

ذلك اليوم كان مشهوراً.. فقد أغمي على امرأة ثلاثينية بينما كانت تخبز أمام التنور وفجأة خرج من التنور رجل صغير يرتدي زي العصر العباسي، كأنه قادم من ألف ليلة وليلة، حتى إن حذاءه له مقدمة مرتفعة وملفوفة إلى الأمام كما ذكرت إحدى النساء اللواتي كن يجلسن حول المرأة.. كانت المرأة الثلاثينية تفتح فخذيها وقد أنهضت قليلاً من مقعدها لتضع رغيف الخبز في التنور وإذ بالرجل الصغير يقفز إلى أمامها ثم ينزلق في فتحة سروالها.. وبدأت بالصراخ.. في البداية وَلْوَلَتْ جميع النساء وابتعدن

يهربن عن المكان والمرأة التي كانت تسمّى رئيفة، استلقت على ظهرها وراح العرق يتصبب من كلّ جسدها.. وكانت تهرتم بكلمات غير مفهومة، لقد أغمي عليها، هكذا قال أحد الرجال المُنجدين، حملوها وطاروا بها إلى بدران الذي كان يصلّي، مدّدوها في أرض الدار ريثما ينتهي وملأت أصواتها العالم الفسيح، وكان وسطها السفلي يرتج وكأن سيخاً من نار ينقذف في داخلها فيهزّها من صرّتها إلى نهاية مقعدها.. ما هذا؟ سأل بدران، حاولوا أن يُفهموه فأسكتهم.. ركضت تاج الملوك وناولته غطاء، غطّى به جسد رئيفة.. انتظر قليلاً ريثما هدأ الجسد واستقرت الحياة فيه، مدّ يده اليمنى من تحت الغطاء، كان قد شمّرها فبان شعرها الأبيض الغزير، الناس وقفوا واجمين، ماذا يفعل هذا الرجل؟ لاشيء، وهاهو الجني بيده، أخرجه أمامهم جميعاً، صدرية وسروال وقميص على صدر مفتوح وعمامة.. رفع العمامة عنه فظهر له قرنان.. الجني الصغير كان يتألم لأن بدران يمسك به من وسطه.. أفاقت المرأة من ذهولها فنظرت إليه بإشفاق وحنو، قالت: ماذا تفعلون به؟، الشيخ وضعه في قدر، وغطاه، المرأة قالت: إذا كنتم لا تحتاجونه في شيء أنا آخذه معي إلى البيت، كبَّر الناس جميعاً، أمرهم بدران أن يذهبوا ويأخذوا المرأة ففعلوا، وخرجت وهي تنظر إلى الوراء، تريد أن تراه للمرة الأخيرة.. ومن يومها صارت الأعاجيب تحلّ في جسد رئيفة.. وكذلك في جسد أميرة اليهودية التي لم يعد عبد الجليل يفارقها، يأتيها كلّ يوم بعد خُلُوَّ المكان من الزبائن، وكانت تسامحه في الأجرة لأن الحياة كانت تطيب معه بعد تعب نهار بكامله، وهو رأى فيها تتمة للمرأة التي أضاعها، وهكذا استمرت الحياة تقلب صفحاتها من جديد.

كان يجلب إليها العرق وبعض الطعام كلّ يوم، وتطيب بقية السهرة مع أميرة ثم يحضنان بعضهما لساعة أو أكثر، فيودعها على أمل اللقاء بها غداً، وفي النهار كان يضع منديلاً على رأسه، ويلثّم به وجهه، ويغطي فمه كي لا يشم أحد رائحة فمه، إلى أن كان ذلك اليوم.

.. يومها لم يتوقف عن الشرب حتى الصباح، كانت اليهوديةُ تغني له وترقص وهو يغني وراءها ويرقص، ثم يهدآن قليلاً ليستريحا ويقرمش لها أصابع قدميها، وتعضعض جسده، بِلُطَع حول سرتها ثم يصعد باتجاه ثدييها فيقرصهما برؤوس أسنانه، وهي

تفرفر بين يديه، ويسيل لعابه على صدرها، وهو يسكب البيرة على صرتها ويجمعها من جسدها وأطراف أصابع قدميها وأماكن أخرى.. وأخرجت لـه سيجارة ملغومة، فشرباها وهَوَّمَا في الغرفة التي امتلأت بالألوان الصـفراء والحمراء والبنفسـجية والموف، ورقائق الرحمة البيضـاء، وجسـدان يلتمعان بين الألوان، وهطلت عليهما الرحمة لتغلّفهما بنداوتها، وكان الشـهيق والزفير، والصـهيل، وبداية لعب الفروسـية والانطلاق دفعة واحدة إلى الهدف، ولابدّ من رابح ولابدّ من خاسـر، وبدأت الجرة تفور وتنسـكب على أرض المحل، ثم راح ماؤها يجفّ ثم بدأ الفول الناشف يحترق وتخرج منه غازات خانقة ملأت الحارة برائحة فظيعة، لكن أحداً من السكان لم يندفع لأنهم كانوا جميعاً نائمين، أذرعهم تحتضـن أعناق زوجاتهم الكريمات، فلم يجرؤ أحد على أن يسـلّ يده من تحت عنق زوجته النائمة برعاية الله.

وحده إمام الجامع كان يمرّ في الشـارع لكنه لم ينتبه إلى الغازات المرسـلة من جرّة الفول، لأنه كان مطرقاً يعد بلاطات الشـارع وهو يسـبّح باسـم الخالق.. وصـل عبد الجليل فرأى كلّ شـيء.. وحاول أن يُوقف شـيئاً ما، فاندلقت جرة الفول المحروق على الأرض.. ترك كلّ شيء وأغلق المحل واندفع يتلجلج في عتمة الصباح.

وبين يدي أميرة التي كانت تُزيل آثار الليلة الماضـية ببطن كفها بكى وشـرح الموقف لها، أعطته قرشـين بائتين عندها وطلبت منه أن يُدبِّر نفسـه بهما.. وهنا بكى بشـدة وطلب يدها، فسـألته، كيف؟ قال: لا يعرف لكنه يريدها زوجة صـالحة.. وهي أخبرته: أنها غير صالحة، قال: لا يهم.. الحياة سوف تصلحها.

في اليوم التالي أخذ المحل العمومي إجازة صـباحية، ذهبت نسـاؤه جميعهن إلى الحمام.. وأقمن عيداً صغيراً لأميرتهن الذاهبة.

في البداية جرت مراسيم الاغتسال، حصل ذلك بعد صلاة الظهر، فقد بدأت وفود نساء ترد إلى الحمام الملكي، تقف العربة فينزل منها الصبي وهو يحمل « بقجة » سيدته، تنزل بعد ذلك السـيدة، وهي تضـع البرقع المخرّم على وجهها، وتفوح منها، أو من نزولها كلّ أنواع العطور المضـمّخة بأجسـاد البشـر، ووقف الشـارع يعدّ ويُعدّد أوصـاف كلّ

واحدة، هذه جانيت، التي في الشارع الذي على اليمين وهذه سعاد التي في المدخل، وهذه وردة التي في صـدر المحل، وغمزة من هنا وابتسـامة من هناك، وخير إن شـاء الله، على السـهرة، لا تتأخر، وتتجاوب العيون وتتهادى الابتسـامات والأولاد يركضـون في أطراف السوق يجلبون الدريرة والصابون المطيّب والترابة الحلبية، والبرتقال والجزر واليوسف أفندي، يا عزة الله لقد امتلأ المقهى المجاور للحمام بالمنتظرين، كلّ واحد يريد أن يرى واحدته وهي طالعة.. وجاءت معلمتهن، أختهن الكبيرة تسـبقها عربتان ووراءها عربتان.. نزلت بكل احترامها ووقارها، جميعهن على الباب واقفات يتنظرنها، اسـتُقبلت بالهتاف والزغاريد، وهي ردّت التحية، وأغلقت الأبواب، وظلّ الصبيان على الباب الكبير واقفين ينتظرون إشارة من الداخل ليلبوّا الجواب.

رئيفة انكفأت على نفسـها منذ ذلك اليوم، فلم تُعد تكلِّم أحداً، كانت تصـنع بيديها الدمى الصغيرة التي تُشبه الجني الصغير.. وتصـفّها جانب بعضها فوق الخزانة، تقطع الأخشـاب ثم تنجرّها بسـكين حادة، وتقصّ قطع الثياب ثم تخيطها وتلبسـها إياها، وتحرق عود الكبريت، ثم تطفئه وترسـم به علائم الوجه، والأنف والعينين والفم.. وعندما تنتهي تضـعه بجانب إخوته تقذف دمعة واحدة وتنام، ثم يرتجّ كلّ جسـدها، ويهتزّ عنيفاً وهي تغطي رأسـها بالأغطية السـميكة، فيما كان بدران يحبس الجني الذي يشبه السندباد في القِدْر ويُغطيه بآيات الذكر الحكيم فلا يستطيع الهروب.. ويمد يده إليه بالطعام من خلال النحاس يخترقه، ويضع له الطعام والشراب.. وانسرب مرة من خلال خطوط الكف وخرج على شـكل دخان خفيف ولم يلاحظ بدران ذلك لأنه كان يتحدّث مع ضيف عزيز، خرج من ثقب مفتاح البيت، واندفع إلى بيت رئيفة.

ارتخى كلّ شيء في رئيفة وهي ترى سندبادها على خشبة جرّة الماء فوق الطاسة.. كانت تريد أن تشرب، مدّت يدها فوجدته يبتسم لها، أسرعت وأغلقت الباب، وأخذته بين يديها تضـمّه وتشـمّه وتلمّه، وتقبلِّه وتعانقه وتلّفه.. أين كنت؟ ثم أجهشـت بالبكاء العنيف، وأسدلت ستارتها الوحيدة، تعرَّت من كلّ شيء وزلقته بين فخذيها.. ثم راحت

تتأوّه وتنتحب حتى عرف بدران أين يمكن أن يجد الجني السـندباد مرة أخرى، فصـبر عليها.

***

اسـتُقبلتْ المعلمة الكبيرة كملكة حتى إنّ أميرة اليهودية غارت منها، زفّتها بالدفوف والزغاريد والشـمع.. ودخلت إلى الجّواني بثيابها، حيث احتشـدت حاملات الشـموع وجلسـت في صـدر الحمام.. كلّ ذلك كان قد أعدّ مسـبقاً، حُجِزَتْ الحمام قبل أيام ونُظّفت وطُهّرّت ورُشّـت بأنواع الطيوب، وفي هذا اليوم لم يدخلها أحدٌ إلاهنّ.. كنّ جاهزات محضـرات.. خلعن ثيابهن وحضـرن بين يديها، وصـيفاتها بدأن يرفعن قطع الثياب قطعة قطعة.. من الرأس بدأن.. الزغاريد ملأت المكان، الأناشـيد.. الأغاني.. كلّ واحدة أبدعت بما عندها.. وانتبهت المعلّمة إلى أميرة الحزينة، فطلبت من إحدى وصـيفاتها أن تحضـرها.. أحضـرت لها كرسـياً وجلسـت بجانبها.. واشـتدت الزغاريد، وخلعت المعلمة كلّ ثيابها.. بدا لحمها المتثني وكذلك كان منظرهن جميعاً.. طبقات من اللحم فوق بعضها تغطي الوسط الناعم كالصحراء الرملية.. خرجت واحدة إلى الوسط وبدأت الرقص، تتبعها أخرى وأخرى، واحدة رقصـت بالشـموع.. أخرى رقصـت بسـلّة زهور.. لم يتعب الحشـد من المشـاركة، المعلمة أشـارت بكفها: أن يكفي، فتوقفن عن عمل أي شـيء.. ثم أُدخلت المعلمة وأميرة إلى إحدى المقصـورات ودخلت الوصـيفات وراءهن، وكل واحدة من الباقيات راحت تغتسل أو تغسل رفيقتها وانتشر البخار الملّون يغطي الأجسـاد الملّونة.. ولم يعد يسـمع سـوى أغنيات خفيفة تبوح بها بعضـهن للهوى الصامت.

كانت إحدى عينيّ أميرة مصابة بارتخاء عضلة فلعقتها المعلمة لها فانشدت أعصابها وأصبحت سليمة.. ثم طُيِّبَ جَسَدُ أميرة، وجلست في ركن قصي من الغرفة، الوصيفات خرجن وتركن المعلمة مع أميرة التي انشـدت أعصـاب عينها المرتخية، فباتت ترى بوضـوح، اسـتمرّ ذلك سـاعة أو أكثر قليلاً، قرع الباب بشـدة، وصـرخ الأولاد: جاء

العريس، ولأنهن أخوات وأمهن واحدة فقد قرّرت إدخال العريس على عروســه أمامهن جميعاً ودخل عبد الجليل، في البداية غضّ بصره، وأمام إصرار المتجمهرات حوله رفع قليلاً عينيه فرأى مسيرة الأجساد فسبَّح وغاب عن المشهد قليلاً ليسجلّه في ذاكرته.. واندفعت الأخوات نحو ثيابه، مزّقنها في البداية ثم ألقين بها في صندوق القمامة وبدأت حفلة الغسيل التي لم يحصل مثلها أبداً.

عشرون، ثلاثون، سبعون امرأة، لم يدرِ عددهن تعاورن جسده حتى وَهَنَ ولم يعد يستطيع حراكاً.

خرج الجميع إلى البرّاني، كانت المائدة في الوســط وتحتوي أطايب الطعام وأجمل الفاكهة، جلس عبد الجليل في رأســها وعلى جانبيه المعلمة وأميرة، وقد ارتاح عبد الجليل أشدّ الارتياح وهو يرى عينها وقد انشدت إلى الأعلى لتبدو كغابة من السعادة.

تزيّنت النســاء وارتدين أجمل الثياب، وكذلك عبد الجليل وأميرة.. أما المعلمة فقد ظهرت كوريثة أسرة مالكة، وأعلنت الموسيقا خروج الحشد الذي فتح له الباب وسار الصبيان وهم يحملون الشموع الطويلة، ثم الحشــد، ثم باقي فئات الشــعب، طاف الحشد عدّة أسواق واستقبل بالهتاف وذُبِحت الخرفان والطيور راحت تطير في السماء منطلقة من أيدي المتفرجين.. نســاء الشــوارع الأخرى اســتنكرن ذلك، واعتبرن الأمر فضيحة لا يمكن السكوت عليها.. وكل واحدة اعتبرت زوجها متآمراً.. وقد جرى الانتقام في الليلة ذاتها لدى عودة الجميع إلى مخادعهم قبل الفجر بقليل.. فقد بدا الأمر وكأن معركة قد جرت في المدينة بسبب أصوات النســاء والأشياء القابلة للكســر والقابلة للقرع، وهذا الضجيج علا على كلّ شيء، حتى على صوت المعركة الأولى التي وقعت بين العرب وإسرائيل والتي بدأت صبيحة ذلك اليوم بينما كان عبد الجليل ينام في أحضان أميرة اليهودية في غرفة استأجراها على الطريق المؤدية إلى حارة المزار.

في صــبيحة ذلك اليوم خرجت رئيفة مســرعة من غرفتها إلى الدهليز تتقيّأ بشــدّة وظلّت خلال الأيام القادمة، تتقيّأ كلّما اشــتمّت رائحة رجل.. أخذتها أمها إلى بدران.. الذي قرّر أنها حامل.. ويجب أن يعمل شيئاً لها، ونظراً للخطر الذي يكمن في بطنها فقد

قرّر أن يتريث قليلاً.. لكنه في اليوم التالي قرّر أن يدرأ الخطر فأرسل إليها، لم تأته في البداية، لكن أمها أجبرتها على الخضوع، وبدأ بدران يجرّب كلّ وسائله عليها لتسقط، ولم يستطع ذلك لأن شيطانها كبير كما قال.. في النهاية مدّ يده وأخذ كأساً ملأه من النهر، وغسل ما بين ساقيها به، انتظر يوماً كاملاً ثم أعلن أنه فشل أمام ذلك الشيطان، وكي يتخلص من المأزق الذي زج نفسه فيه قرّر أمام الجميع أن الولد الذي سيأتي هو ابن له، سواء أكان ذكراً أم كان أنثى.. وسَيُورّثِه كلّ أمواله..

وهنا استنكرت تاج الملوك وأعلنت الإضراب عن الطعام في غرفتها، في العليّة..

بدايةً لم تستطع الصعود بسبب ضخامة جسدها.. فهي تُشبه فيلاً بدون قوائم وذيل وخرطوم.. واتفقت مع أولاد الجيران على أن يحملوها مقابل بيضة لكل واحد.. نظروا إليها فلم تعجبهم الفكرة.. لأنهم قارنوا بين حجمها وحجمهم، فهي تُساويهم جميعاً وتزيد عليهم.. ثم قرّروا أن يصنعوا لها محفّة من أوراق الأشجار وأغصانها ويطيروا بها إلى العليّة، ولدى أول تجربة فشل المشروع، وأخيراً قرّروا أن يستنجدوا بعمران الأعمى وذلك بشرط أن تُدفع لـه ثمن نصف زجاجة من العرق، وبعد عدّة مفاوضات بينه وبينها قادها الأطفال ببراعة، تمّ الاتفاق على ذلك، وأن تكون العملية يوم الجمعة وقت الصلاة.. وانفضّ الأطفال عنها، كلّ واحد يحمل بيضته، واجتمعوا في ساحة المرج الأخضر يتناقرون بالبيض ثم يعودون لشرائه من بعضهم إلى أن جاء صاحب سينما الدنيا فقرفصوا أمامه يتفرجون على عجائب الدنيا السبع.. وعلى الأميرة شمَّا وعنتر بن شداد..

يعمل عمران الأعمى في حمولة الأكياس، نعم أكياس القمح، ينقلها على ظهره من الخان إلى العربة.. أو العكس.. يهرول كالنمر كما يقول الحاج علي.. ويسير بها فوق (المردوان) الذي يصل العربة بالأرض.. يحمل ويفرّغ الأكياس الكبيرة ذات الدرب الأحمر، والتي تتسع إلى مئة وثلاثين أو أكثر من الكيلوات.. كيف يرى؟ ليست هنا المشكلة، العجوز أم حميد تقول قلبه دليله، باصرته.. والمشكلة أن عمران لا يحتاج إلى عينين أبداً، يعرف كلّ الأماكن، ويمدّ يده مباشرة إليها، لا يعوقه أي شيء، وفي كثير من

الأحيان تجده يلعب الورق ويربح دائماً.. يمكن أن تشـــكّ بأنه يرى قليلاً، ولكن ذلك لم يكن أبداً فهو لا يميز اللون الأحمر من الأصفر من الأزرق، لقد ولد هكذا.. هكذا عاش..

كلّ هذا يهون، فقد تآلفت الناس والأشـياء معه، وعندما تدقّ الساعة السابعة تأتيه الرجفة وينزل وحيداً باتجاه خمارات الميدان.. يقف عند زاوية أحد الباعة ويضـع في جيوبه خمس بطحات من البراندي، وقليل من السّـكر الملوّن، يقْلبها الواحدة وراء الأخرى ثم يسـلّمها إلى البـائع فـارغـة، يبـدل الفوارغ بواحـدة جـديـدة ينطلق بها لتُسلّيه إلى البيت، لا عكازة تسـنده، لا بشـر يسـتند على أكتافهم، تجده وحيداً يتهدج أمام الأضـواء التي تأتيه ولا يرى منها شـيئاً حتى يصـل إلى البيت ويكون قد أنهى الزجاجة السـادسـة فيعطيها إلى زوجته لترفعها مع الأخريات في انتظار يوم إفلاس وطني، يحملها ويستبدلها بالمليئات.

يسـكن عمران خارج سـور حارة المزار، جانب الخان، حيث كان الفلاحون يُنزلون الحبوب والأجبان لبيعها.. وكان بالإضـافة إلى عمله في نقل أكياس القمح، يعمل حارسـاً ليلياً ونهارياً للخان.. لا ينام فيه، بل يجوس حوله بكلّ حواسّـه، يشـمّ رائحة الهواء، وينصـت إلى كل حركة تحوم حوله. أولاده يلعبون أمامه والدجاجات يلتقطن الحبّ، والخراف في البيت تأكل النخالة وقشـور البطيخ والنسـاء تطبخ من أجرته، قبل ذلك كان عمران يعيش مع أهله على الضـفة الأخرى لنهر الفرات يصـطاد السـمك ويبيعه ويعيشـون من هذا الصـيد، ومرّة اختلف مع أحد الذين يريدون شـراء السـمك، ولأنه لا يرى شيئاً فقد رفع وزنة من الحديد وهوى بها في الهواء فأصاب رأس الشـاري، الذي دار على نفسه نصف دورة وسقط غير مُنْصِتٍ إلى لا حول ولا قوة إلا بالله التي صدرت عن المحيطين به، لقد قتلت ابن الشيخ حرمل زعيم عشائر المدينة.

لم يستطع أحد أن يتقدم من عمران، لكنه كان يسـمع الأصـوات حوله وهي تصـرخ به: إنه قتل الرجل.. مشـى ولم يتبعه أحد، كان الوقت عند الغروب، دخل البيت، طلب من زوجتـه أن تجّهز الحمـار، ثم أرسـل وراء إخوتـه، أبلغ الجميع بمـا حصـل، وكمـا يقولون، تحـت جنح الظلام ضـربوا حميرهم بعـد أن حمّلوهـا بـالعجزة منهم ورحلوا

يريدون بلاداً أخرى. ضربوا شمالاً إلى أعالي الفرات وما إن رأوا اللون الأبيض يتميّز عن اللون الأسود حتى وصلوا إلى الطَوَّافات التي حملتهم إلى الضفة الأخرى، ومنها ظلّوا يضربون الأرض حتى وصلوا إلى المدينة، توقفوا خلال الرحلة مرتين، دفنوا في واحدة منها جدة نَقفت روحها في أرضٍ لا شجر فيها. وفي الثانية استراحوا لأن والدة عمران لم تعد تستطيع أن تُتِمَّ الرحلة وطلبت إليهم أن يبقوها وحيدة في هذه الغيضة.. أبقوها مع أحد الفتيان ومع شيء من الزاد وتابعوا رحلتهم قاصدين المدينة..

وفي طرف من المدينة سوَّروا حجارة وبنوا داخل الحجارة بيوتاً مُقطّعة سقفوها وجلبوا إليها الحيوانات والدجاج وعاشوا جميعاً في ثبات ونبات، ثم جاء رجل مُقتدِر وبنى الخان بقرب دورهم وجعلهم عليه مراقبين وتزعّم الأعمى عمران علاقتهم به ونظّمها بعمله لديه.

اشتهر عمران بقوة زنديه، فهو يستطيع حمل أعتى الأحمال، يقذف الكيس أو الرجل، أو البرميل فوق ظهره، ويندفع به إلى المكان المطلوب دون أن يتلكّأ أو يتعثر أو يتضايق، خبطة واحدة ويكون الحمل فوق ظهره كما اشتهر بشربه للخمر، ولكنه والحق يقال، لم يكن يشرب إلا عند المساء وعندما تدّق الساعة السابعة..

بعد عودته من برنامج السُكر اليومي يمرّ على أحد الأسواق، ويملأ جيوبه بما لذّ وطاب وقد يحمل بعض الأكياس المليئة بالأطعمة واللحوم، وفي البيت يجلس في أرض الدار يطلب من زوجته أن تشعل النار في المنقل، ويغسل اللحم ويفرمه ثم يتبله، يضمّ الأسياخ، ويبدأ بالشَيّ، والأولاد من حوله يتلقّفون من يديه الطعام وهو يُغني العتابا والسويحلي والموّال.. ويظلّ هكذا حتى ينتهي من حفلة الشواء هذه، وتأخذ الأم الأولاد لتغسل أيديهم ووجوههم وأرجلهم بينما ينتر عمران ما تبقى من زجاجة المشروب، ثم ينهض إلى النوم، يخلع كلّ ثيابه ويستلقي في الفراش الذي مدّته له زوجته في أرض الدار، وبعد أن ينده عليها عدة مرات تأتيه متأفّفة لأن القمر يسقط على الفراش ويضيئه بنوره والنجوم تفتح عيونها كعيون العاهرات.. فيضحك الأعمى وهو يغطّي صدره الغزير الشعر بالشرشف الملون.. تستلقي بجانبه وتستيقظ الأموات في القبور،

يظلّ يعفس فيها الساعات الطوال، وهي تستنجد بالأولياء والصالحين ولكل من لـه جاه من أهل المروءة، بينما هو يمسك كتفيها بعنف وقوة ويقلصها ويضغط جسدها أسفله حتى تتلاشى فيه.. كأنما يركب قطعة خشب ألقيت إليه من سفينة تغرق، وهو يقاوم عاصفة وتمسّك بها خوف الغرق.. إلى أن يستنفر الديك عليه ويبدأ الصباح.. عند ذلك، وعند ذلك فقط تسترخي قواه، ويلقي جسده، أو تلقيه زوجه المقتولة من التعب على طرف فيبقى كذلك حتى صحوة اليوم التالي.

والحراسة.. أية حراسة؟ ومن يجرؤ على الاقتراب من حارة عمران.. وهو يستمع إلى هذا الصراخ الذي يملأ العالمين.

في صحوة اليوم التالي اشتدَّ القَرْع على باب الدار، نهضت الزوجة محطّمة الأضلاع تنهنهت وهي تنهض، لم تستطع الكلام، رأت كومة من الأولاد يطلبون عمران، نهض مسرعاً، طلب من زوجه أن تغلي لـه الماء ريثما يعود، ووحده كأبطال السينما، حمل تاج الملوك في غفلة عن زوجها وصعد بها إلى العليّة وهناك تركها وحيدة وعاد إلى البيت والأولاد وراءه يقلّدونه في حملها، اغتسل وتطيب ونزل مبكّراً إلى خمارات الميدان.

عندما عاد بدران من صلاة الجماعة لم يجد تاج الملوك، سمع صوت نحيبها فقط، ثم مشى وراء الصوت حتى وصل العليّة وحين فتح الباب الصغير كانت تاج الملوك تملأ المكان، بكل شيء، ببكائها.. ورائحتها، وجسدها.. نزل بدران وهو يقول: هكذا أفضل، تركها كما هي وخرج من حارة المزار ثم توغل في المدينة العتيقة يريد أن ينسى كلّ شيء.. قطع حارات سبعاً، ووصل إلى القلعة فدار حولها سبع دورات أيضاً ثم نزل من سوق القطن.. الحارات كانت فارغة لا أثر للحياة فيها إلا من بعض الأولاد الذي يتقافزون بين الحين والآخر.. وصل إلى حي الجَلُّوم فانزلق في إحدى حاراته، وجاءه النداء خفيفاً ثم قوياً يملأ النفس والروح.. الله.. الله.. الله.. فانشال وراءه، ولم يدرِ كيف دخل إلى جامع قديم، ووجد الناس يملؤون المكان.. انتظر لحظة، جاء عدة رجال بينهم غلام، دخلوا..

خلعوا أحذيتهم وسلّموا على سّيد الحضرة، ودخل وراءهم وسلّم عليه، ضرب على كفّه واتخذ مكاناً وتابع معهم..

في البداية كان يردّد وراءهم وعيناه تجوسان المكان، خشب قديم، ربّما منذ مئة ألف عام أو أكثر حوله مقصورات صغيرات تتسع لشخص واحد، القناديل القديمة تتدلّى من السقف، قنديل كبير يسقط في الوسط، خابية ماء عند الباب، أعلام سوداء كتب عليها: الله - محمد - علي - أبو بكر، أعلام أخرى خضراء، كتب عليها: لا إله إلا الله.

تغيّرت النغمة، وراح الشيخ يردّد الله.. هو.. الله هو.. والناس يدورون في فلكه، كان الشيخ غارقاً تماماً في ابتهاله، وهو يضرب ببطن كفه اليمنى على قفا يده اليسرى، استمر ذلك حوالي مئة مرة، وقلبها الشيخ إلى لا إله إلا الله.. كان بدران يهزّ رأسه مثلهم.. ويردّد وراء الشيخ.. ارتفع الصوت أكثر وأكثر وكبرت الدائرة، حاول بدران أن يدخل الدائرة فلم يستطع كأن شيئاً كان يجذبه ويخرجه خارجها، يدٌ أحدٍ ما.. تدفع به دائماً إلى الالتصاق بالحائط وعدم الدخول في دائرة: لا إله إلا الله.. وصل التصعيد إلى أوجه فبدأ المريدون يدورون، بعضهم وقع على الأرض مغشياً عليه، بعضهم أصابته الرجفة وهو يصرخ بصوت مهزوز، وكانت الدائرة تدور في الأفلاك السماوية والكلّ يدور فيها إلا بدران.. وأصبح المكان وحدة متآلفة، بين الجدران والخشب والناس يلفّهم صوت واحد هو لا إله إلا الله.. ويدورون في فلك بعيد بعيد، هدّأ الشيخ من الإيقاع فهدأت النفوس، وبعد ذلك راح يستغفر الله ويطلب التوبة لهم، ثم جلس وجلس الناس.. تقدّم أحد المنشدين وراح ينشد المدائح النبوية، وقصيدة البردة، جاء معه منشد آخر يساعده في الأداء.. وكان المرضى والعجزة يتقدّمون من الشيخ الجالس فيقرأ لهم على ظهورهم وجنوبهم وأطرافهم ثم يمضون.. بعضهم كان قد وضع أباريق الماء النحاسية أمام الشيخ، فراح يأخذها ويمضي.. بدران كان يستغرب كلّ ذلك وانتظر حتى ختم الشيخ مجلسه، فمضى ليسلم عليه.

- السلام عليكم يا سيدنا الشيخ.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- ماذا كنتم تصنعون؟

استغرب الشيخ سؤاله، لكنه أجاب بابتسامة صغيرة بيضاء وقال له أن يأتي معه، فأتى معه، وجلسا في غرفة عالية، كان الشيخ قد تعرّق كثيراً فرفع عمامته وأخرج منديلاً راح يمسح به عرقه.

- أنا بدران من حارة المزار..
- تشرّفنا بك، وأنا الشيخ مالك.. نحن أصحاب هذه الزاوية منذ زمن قديم، ونُقيم فيها ذِكْرَ الله كلّ يوم جمعة.
- هل يمكنني حضور الذِكْر؟
- متى شئت.
- هل يمكن أن تشرح لي عن عملكم هذا؟

بدأ الناس يدخلون ويقبّلون يد الشيخ مالك، ونهض أحد الغلمان وجلب القهوة المرّة وراح يصبّها للجالسين، وقد أصاب بدران فنجانين، قال له الشيخ مالك:

- يمكنك أن تأتي في وقت آخر لنجلس معاً ونتدارس الأمر.. أنا موجود كلّ يوم بين التاسعة حتى صلاة الظهر.

حمل بدران حذاءه بيده ومضى.. وقد امتلأت روحه هدوءاً لم يعهده من قبل وأنسرب في هدوء المكان يُحسّ أُلفةً معه، وكانت الحجارة تُعطيه هيبة وإحساساً بالأمان، والمساء يَحِنُّ عليه بالرائحة الطيبة والخدر والرطوبة، وفي رأسه كانت مساحة كبيرة من الخضار، وحصان أبيض وحيد يرعى في وسطها إلى أن وصل حارة المزار.

أمام الباب وجد عبد الجليل ينتظره، وقد اندفع إليه يقبّل يديه وأطراف ثوبه، لكنّ بدران أعرض عنه ودخل أرض المزار ودون أن يقول لـه كلمة واحدة.. وقف عبد الجليل يتابع ظلاله وهو نصف حاقد ونصف غاضب، عاد إلى أميرته عرَّاها من ثيابها وأجلسها عند عتبة الغرفة ثم ملأ الطاسة ماء وغسلها بها.. سبع طاسات صبَّها على جسدها.. ثم أوقفها، قال لها: انهضي لقد أصبحت جاهزة، الآن أتزوجك على سنة الله ورسوله، فعبرت حافة العتبة واستلقت بين يديه، أخذها إلى الفراش، ولأول مرة يشعر بجمالها الذي سيطر على قلبه وروحه.. أراحها فوق الفراش، ثم تعرّى هو الآخر، سألته، إن كان سيتطهّر هو الآخر، فأجاب بالنفي واستلقى بجانبها، وأغفى بقية النهار وقد تركته هكذا

دون أن تتنفس كيلا توقظه..عند المســاء نهض واتّجه إلى حارة المزار، عاينها، عاين بيوتها، ثم رجع إلى الفلاة التي أمامها، وبجانب دار الأعمى بدأ يبني له داراً ابتداء من اليوم التالي ومع قدوم أول الشهر أتمَّ عبد الجليل بناء الدار وسوّر باحتها، كان يساعده في ذلك أولاد الحي، وكان بدران يمرّ عليه كلّ عدة أيام، ينظر إليه بازدراء ويقول بصوت مرتفع سيحلُّ غضبي عليك إلى يوم الدين.. أما عبد الجليل فقد أدمن غضب بدران، وبدأ يقتلع دكاناً من زاوية البيت، بعد ذلك سَقَفَهَا وفي الشهر التالي أعلن عن افتتاح محل لبيع الفول، وسمّاه مطعم الفوال العالمي عبد الجليل.. وراجت صنعته وبدأ الناس يقفون عند الباب يصطفون بالدور وكلٌ يحمل صحنه أو سطله، بخاصة في أيام الجمع والأعياد الوطنية والدينية.. كان الدكان بعكس باب الدار تماماً.. يبتسم عبد الجليل للزبائن ويداعبهم، وكانت أميرة تداعب الأعمى في الغرفة وتستمتع بقوة عضلاته وقوة جسده الذي يشبه الصخر كما كانت تقول له، وهو يضحك لها عن أسنان نخرة ثم ينهض إليها لينسيها الحليب الذي رضعته كما كان يقول لها، كان يضع يده على فمها ليسدّه ويبدأ معها ليفرّجها على عجائب الدنيا بالألوان، والحقيقة فإنها كانت تأخذ منه أجرة يومية وعندما لا يكون معه فلا بأس، وفي كلّ خميس يأخذ أضعاف ما دفعه ليسكر سكرة عامرة كما يقول لها وليجلب الهدايا حين يأتي إليها وقت صلاة الجمعة، عندما يذهب زوجها إلى الصلاة.

وقد كان عبد الجليل يمنعها من زيارة رفيقاتها السابقات، ولكن، ولأنّ فضلهن عليه كبير، فلا بأس إن حاولت إحداهن زيارتها مرّة في الشهر أو الشهرين، وقد رأى بعض شبان المزار يطوفون حول بيته، ومرّة شاهد أحدهم يُكلِّمها فغضَّ بصره.. ومرّة أخرى رآها تقف مع واحد عند باب الدار، فهجم عليها واقتحمها وراح يضربها، لكنّها أفهمته أنها هي التي طلبت منه ذلك، كانت تريد منه أن ينده عليه من الدكان، ليجلب لها الرّمان لأنها تتوحّم ففرح فرحاً عظيماً ولم يعد يسألها عن شيء.. وعندما رأى الأعمى

خارجاً من البيت بهيكله الضخم قالت: إنّ بطنها كانت تؤلمها، وجاء الأعمى ليقرأ عليها، وقد شفيت الآن من آلامها..

أما عبد الجليل، ولأنه كان يخاف الله، ويخاف الحلال والحرام، فإنه كان يحتاط لكل ذلك فَيُسَبِّعُهَا كّلما أراد اللقاء بها، وكان ذلك يتمّ في اليوم الرابع عشر من الشهر القمري.. حيث ينشرها عارية في أرض الدار، ليتمتّع بجمال جسدها تحت ضوء القمر والنجوم التي تكسبه لون الفضة المذابة مع أوراق شقائق النعمان.. وكانت تتلوّى وتفحّ تحت ضوء القمر ممّا يجعل الليلة تطول أكثر من عشر مثيلاتها من الشهر.

ويظلّ بدران يمرّ عليه ويقول له: ستظلّ لعنتي تلاحقك إلى يوم الدين.. أكان ينقصنا هذا الماخور يا عدّو الله؟ فَيُطْرِقُ عبد الجليل أرضاً وهو يقول: إن رحمة الله لا حدود لها.. إنّه واسع المغفرة، الرحمن الرحيم.. فيمضي بدران دون أن يتوقف لأنه كان يعتبر هذه الأرض نجسةً، هي ومَنْ عليها..

كان عبد الجليل يتعب فعلاً.. يستيقظ في الرابعة، يصلّي الصّبح، ويمضي إلى عمله، تكون الجرار الموضوعة منذ المساء قد نضجت، وفي الخامسة تقريباً يبدأ استقبال الزبائن.. ويظلّ هكذا حتى التاسعة ليلاً، يصلي العشاء ويأكل لقمتين ثم ينام، ينام وهو في أرضه، تنهض أميرة، تلّم الطعام، وتتزيّن وتتجمّل وتسمع قرع الحصاة على الباب، فَتُلْقي بملحفتها على جسدها وتمضي وراء الشاب الذي قرع الباب بالحصاة، تدلف إلى دغل حارة المزار وهناك قد تجد اثنين آخرين أو أكثر، يبدأ الشراب والغناء الخفيف والرقص أحياناً، ثم يلعبون معها لعبة العسكر والحرامية، يختبئ الواحد منهم ولا يفتش عليه الآخرون، حتى يأتي إليهم وهو يُزَرِّر سرواله.

بدأ بدران يشعر بحنوٍ عجيب على رئيفة، يراها كلّ يوم في أحلامه، تأتيه وهي ترتدي الثياب البيضاء، وهي تفتح ذراعيها، يضمها إلى صدره فتذوب فيه ويستيقظ، حاول طرد صورتها فلم يستطع، بات يراها في يقظته أكثر من منامه، في الماء، في فقاعات الصابون في كأس الشاي، في رغيف الخبز، ولم يدرِ كيف تسلّلت قدماه إلى بيتها، قَرَعَهُ، ودفعه فكان في أرض الدار، ناداها.. رئيفة، رئيفة، فوقفت أمامه بثيابها البيضاء، قالت

له لقد تأخرت، إنني أهتف لك منذ مدة فلماذا لم تأتِ؟ قال: ها أنذا قد أتيت، هي الأخرى استلقت تحت ضوء القمر، فكشف عن بطنها وبدأ يقرأ لها ويمسّد على بطنها، وهي تتعرّق وتتلوّى بين يديه ثم جاءها الطلق.. مدّ إصبعين كانت المسافة أكبر، فنشط ليسخّن الماء، ويحضر الطّشت، أحضر لها منديلاً لتعضّ عليه، وبدأت عملية الولادة..

لم يستغرق وصول الطفل إلى الحياة كثيراً، وارتاحت رئيفة وبرد العرق على وجهها، قال بدران: إنه غلام، كان يأخذه بيده ويلفّه بالقماط، أخرج لها المشيمة، ثم قصَّ حبل السرّة بالسكين، أخذ الولد وغسله بالماء الفاتر، ثم غسل كلّ شيء، مدّ لها فراشاً، وَسَّدها عليه ثم غطَّاها، أعطاها الولد.. وتركها بعد أن قبّل جبينها ومضى، كان القمر يمرّ خلال الغمام، نظر إليه، قال لها اسمّه قمر الزمان.. لنر ما سيكون من أمره..

وهنا بدأت الحكاية..

لم يستطع أحد أن يخترق حارة المزار، حافظت على سكانها الأوّلين وظلّت تاج الملوك في علّيتها، يرسل لها بدران الطعام فتأكل وتملأ الأكياس بفضلاتها، وكانت تمتلئ لحماً، وتنتفخ، وقد طلبت مذياعاً فأرسله بدران إليها، وضعته في زاوية العليّة وراحت تتابع أخبار العالم، ولم تعد تكلّم أحداً، جاء بدران متأخراً، ودخل الحارة فأغوته رائحة رئيفة، ولم يستطع أن يقاومها، أطرق رأسه في الأرض ودلف إلى بيتها.. كانت قد أعدّت كلّ شيء وتزيّنت وشكلت شعرها بقرنفلة بيضاء وارتدت ثوب نوم يكشف عن كتفين من مرمر أبيض، وارتفع صدرها كشاهد على عذاب بدران.. أمامها طاولة صغيرة فوقها بعض المقبّلات المُعْتَنَى بها وزجاجة مشروب مُسْكِر، في البداية، استغفر بدران ربّه، وقال: هذا إثم.. قالت له: لقد انتظرتك وأرسلت إليك النداء، فأطرق رأسه ثم مسح وجهه ببطن كفّه.. رفع بصره إليها، فلم يستطع.. قال: كلّه إثم في إثم.. ثم مدّ يده إلى الزجاجة وشرب كأساً وآخر.. وأخذتها من يده وراحت تصبّ له ويصبّ لها وتشرب ويشرب واندغم في رائحتها فأشرقت عيناه وكلّمها من تحت حجاب، فردّت عليه من بين الرياض.. كانت حديقة كبيرة مليئة بالأزهار البيضاء فيها مرج أخضر وبحيرة كبيرة وأشجار عالية متفرّقة وزوج من الطيور وأطعمته من يدها، فأكل وقسم لها ممّا

أطعمته، تسليّا في هذه المواضيع حوالي الساعتين، ولمّا أيقن أن جسده قد أفلت منه، خرج منه إليها، فعانقته واقتسمت رضابه واقتسم فمها، ثم أوغل فيها كجيش مهزوم، حرثها عدّة مرّات حتى تفكّكت مفاصله فألقى متاعه وأغفى على جسدها، لفّته بيديها ولم تتحرّك، بقيت هكذا حتى صحوة اليوم التالي، ولم يدخل البيت إلا على أبواق صوت العرب وهي تعلن نشرة أخبار الظهيرة وتاج الملوك تشتم في سرّها كلّ من هبَّ ودبَّ.

لم يعد المشهد ينطفئ من ذاكرة بدران ولم يعد يصلي.. ولم يعد لنفسه مُسْتَقَرٌّ، أدهشته ذلك اليوم بسحرها وأنوثتها، حاول أن يقتلع صورتها عن جسده فلم يستطع، وفي اليوم السابع حملها وابنها إلى البيت بعد أن كتب عليها، رأتها تاج الملوك وهي تدخل، فصرخت صرختها الطويلة وحاولت النزول من العليّة فوجدت أن الباب لم يعد يتسع لها فرفعت صوت الراديو على آخره ولم تعد تُخفضه ليلاً أو نهاراً.

بعد تسعة شهور من ذلك اللقاء انفجرت ماء الرأس، وفي طشت نحاسي كبير وُلِدَتْ رئيفة ولدها الثاني وهبّ بدران يقوم بكلّ شيء، فتّر الماء وغسل المولود وقطع حبل السرة، وغسل ما خرج منها، ثم حمل المشيمة ودفنها في المقبرة المجاورة لهم.. وحين عاد كانت تاج الملوك تُنْصِتُ إلى خطاب عبد الناصر وقد رفعت الصوت لِتُسْمِعَ كلَّ مَنْ في الحارة.

استلقت رئيفة على فراش أبيض، ووضعت طفلاً على يمينها وآخر عن يسارها، أعطت حِقَّ ثديٍ لقمر الزمان، بينما أخذ بدران الطفل الجديد بين يديه.

وراح يتأمله.. كان الولد الجديد كبير الرأس، كبير الشفتين، كبير الأنف والأذنين، أكرت الشعر، جهم الجسد، قال: سبحان الله.. وحمل نفسه وذهب إلى الجلوم.. إلى الزاوية الهلالية.. صلّى العصر، وانتظر يقرأ وِرْداً، جاءت الناس، بدأ الإنشاد ومن ثمّ حلقة الذكر.. فراح يحجّ معهم، وانصهر في الدائرة هذه المرّة، أغمض عينيه وراح يدور، الكواكب في أفلاكها، وانجذب إلى قوة هائلة تشدّه إلى نقطة بعيدة، يظهر فوقها نور قوي كان يركض ويركض، ولكنه لا يصل إليها.. شعر أنّ داخل قلبه أسود كالهباب،

وهاهو الآن يغسله شيئاً فشيئاً، انتهى الذكر، وقرأ الشيخ على ظهور المرضى والعجزة وأخذ كلّ واحد ماءه.. أمسك بدران يد الشيخ يريد أن يقبّلها وأعطاه إياها.. يا مولانا، أريد التقرب إليك، التقرب لا يكون إلا لله، قلت لك تعال في غير هذا الوقت، يا مولانا لقد جاءني غلام، أريدك أن تسميه لي..

- خير الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد، سمّه صلاحاً فقد يكون صلاحُ الناس على يديه.

قبّل يد الشيخ مرة أخرى وخرج إلى زوجته ليبشّرها بصلاح.

.. لم ينزل المطر في هذا العام، وفي العام السابق كان شحيحاً، ارتفعت أسعار الحبوب، وتبع هذا الارتفاع غلاء عام وضجّ الناس وراحوا يبيعون الأشياء الثمينة التي يحتفظون بها كذكرى عن الآباء والأجداد، ثم راحوا يبيعون مصاغ زوجاتهم، أمّا أولئك الذين لم يكن لهم ذكريات أو مصاغ فقد ساءت أوضاعهم وراحوا يشكون أمرهم إلى شيوخهم الذين كانوا ينقلون هذه الشكاوى إلى السماء.

في ذلك اليوم وكان يوم خميس، فُقِدَ كيسان من الخان الذي يعمل فيه الأعمى عمران، وبصعوبة لاحظ صاحب الخان ذلك، أرسل وراء عمران الذي كان ينام على ظهره في أرض الدار وأبلغه ذلك، هذا مستحيل، قال عمران، صاحب الخان قال: انظر، ولكنك لا تنظر، المَرْدَوَان كان موجّهاً إلى النافذة وقد دُفِعَ بعد ذلك، أي أن السارق تسلّل إلى السطح ودفع النافذة ثم ألقى نفسه إلى أرض الخان، وضع المردوان وحمل الكيس الأول والثاني ولا بدّ أن يكون معه واحد أو اثنان، يأخذان منه، وبعد أن انتهى من كلّ ذلك دفع المردوان إلى الأرض..

تلمَّس الأعمى المكان، قال: هذا صحيح فأنا وضعت المردوان بيدي هاتين وراء الباب، ثم أغلقت الباب.

لم يقل صاحب الخان أكثر من ذلك، لكن عمران أحسَّ باللوم والعتاب الذي في نفس صاحب الخان.. وأرجع عمران كلّ ذلك إلى أميرة فهي السبب، لو لم يكن عندها لأحسّ بالحركة على السطح أو داخل الخان، ومنذ ذلك اليوم راح يطلب من المعلم أن

يُغلق الباب عليه حتى الصباح.. وعلى ذلك فقد حُرِم من أميرة ومن غُنْجِها كما حُرِمَ من زوجته، فلم يقرب الاثنتين ثلاثة أيام ولم يشرب خلال ذلك أية قطرة مُسْكِرَة.. فضاج وراح يُعِدَّ الولائم لنفسه وهو فوق الأكياس، يستلقي على ظهره ويشبك يديه تحت رأسه، يُوْلِمُ الولائم لنفسه ثم يُعَرِّي أميرة ويرسمها بخياله بالأسود والأسود وبملامس يديه يضع تفاصيل جسدها.

طق.. جاءه الصوت قوياً وانفتح باب النافذة، فانزلق وراء الأكياس وكَمَنَ مُتحفّزاً، سمع صوت ارتطام بالأرض واستعد وقدّر بعد ذلك أن الذي ألقى نفسه قد وضع المردوان على حائط النافذة وها هو يحمل الكيس على ظهره، ويصعد به، لا بدّ أن يكون قوياً.. وصل إلى منتصف المردوان أعلى.. هاهو المردوان يرتدّ إلى الوراء، يقع الكيس أولاً، ثم حامله.. وجسد عمران فوقه.. يداه على رقبته يريد خنقه، يفلت منه ويلوذ بالحائط.. الأعمى يقف فاتحاً ذراعيه، يحاول أن يلتقط نفس الآخر.. الآخر يعرف أن الخروج صار وراءه تحطيم أحدهما.. يخرج سكيناً ويستعدّ والأعمى ينتظر الإشارة، يرى الآخر وزنة الحديد فيحملها بصمت ثم يهوي بها على الأعمى فيصيب كتفه من الأمام وفي اللحظة ذاتها يكون قد قفز وضرب صدر خصمه بقدميه، يرتدّ جسد الخصم إلى الحائط فيندّق فيه، ثم ينهال على بطنه بعدّة لكمات، ينزلق الخصم من يديه ويضربه بين رجليه، يكاد عمران أن يقع لكنه يتماسك ويتلقّى طعنة السكين بساعده، الدم ينسرب من الساعد، فيقفز في الهواء ثم يضرب الخصم على رأسه، وبسرعة البرق تكون اليد الحاملة السكين وراء ظهر الخصم فيضربه بجمع يده على صلبه، ويخلصه السكين ثم يدفعه عنه، يسقط الآخر على الأرض وإذا بدويّ ست رصاصات ثم سَكَنَ كلّ شيء.

فتح صاحب الخان الباب عند الصباح، ومع دخول الشمس وجد جثة الآخر ملقاة على أرض خانه والدماء تجمّدت حولها.. والأعمى عمران مقرفص بعيداً عنها كأنه ينتظر شيئاً.. جاءت الشرطة، وحقّقت في الأمر، كتبت ضبوطها وأخذت الأعمى والجثة وتمَّ

التعرف على صاحبها، فقد كان من سكان حارة المزار.. وأعلن بدران أن صاحب الجثة شهيد لأنه خرج في سبيل لقمته..

طاف الناس بالجنازة كلّ أطراف حارة المزار، وقد لُفَّت بالعلم الأخضر، وصاح الناس «الشهيد حبيب الله.. لا إله إلا الله» أَعْوَلَتَ النساء، وشقّت ثيابها.. وتحوّل المشهد إلى فاجعة، النساء تضرب صدورها بقبضة يديها، بعضهن يمزّقن الثوب من الصدر ثم يخمشن وجوههن وصدورهن.. بعضهن قصصن شعورهن، أخريات مَرَّغن وجوههن بكاملها بالسخام.. الرجال يبكون بحرقة، الأولاد يتفرّجون.. وانتهت الجنازة إلى أمام الخان، حيث دُفنَ الرجل في المقبرة التي أمامه.. وتدخلت الشرطة والمحافظ والوجهاء لِيُصْلحوا بين الطرفين، وأُخِليَ سبيلُ عمران لأنه كان يدافع عن نفسه، وتقرّر أن يُقيم صاحب الخان سِمَاطاً يدعو فيه الناس لشهادة الصلح.

مُدَّت الطاولات ووُضِعَتْ فوقها صواني الرّز مع الصنوبر واللوز والفستق الحلبي، وتكتّلت اللحوم فوق الصواني، والألبان والخضار والفواكه وكان يوماً مَهُولاً، فقد ضمَّ السماط أكثر من عشرين ألفاً من البشر، وجهاء وأشرافاً وقادة وموظفين حكوميين وغير حكوميين، ورُعَاعاً وسائبة.

شبع الناس في ذلك اليوم فأَرَّخُوا لــه بالشعر، ثم جاء الأعمى ومعلّمه وجاء أغلب أهل المزار وراحوا يقبّلونهما بتحدٍّ.. وانتهى اليوم قُبيل المغرب بقليل.. وألقى بدران كلمة في ذلك اليوم، حثّ فيها على الإخاء والمصالحة والتعايش بين الناس..

وفي اليوم التالي كان قد قرَّر أمراً منذ الليل ومضى في الأزقة القديمة لتنفيذه..

عندما دلف إلى داخل المسجد، ارتاحت نفسه وهو يتمشّى بين القبور الحجرية الكبيرة، رغب الجلوس في فيئها، يشرب قليلاً من الماء ثم يتمدّد بينها، إغفاءة قصيرة وينتهي كلّ شيء.. سمع هاتفاً يناديه فدخل إلى محراب الجامع، قرع الباب فسمع: ادخل، قصيرة وغير حادّة.. وجد الشيخ جانب النافذة، يقرأ القرآن وقد جلس على جلدٍ من فرو الخرفان، وتدثَّر بعباءة رقيقة.. جلس في حضرته، لم يتوقف الشيخ عن القراءة، أنهى السورة، وبدران غارق في تضاريس المكان، كان المسجد تتمّة للزاوية، له

باب صغير يفصل بينهما، وهو أيضاً لم تدخله بهرجات العصر، كان لا يزال غارقاً في صمت القرن الماضي، شيخ وقور بيده سبحة، الغبار البارد يلفه من كلّ أطرافه، خشبه القديم غير المهترئ يعطيه قداسة من نوع آخر، قداسة لها رائحة الصنوبر القديم مع كثير من البخور.

أغلق الشيخ كتاب الله وقرأ الفاتحة ومسح بها على وجهه، قال له:

- كنت أنتظرك.

- وهل كنت تعرف بحضوري؟

- كنت مع فقير هندي على نهر الغانج، تركته وحضرت لأجلك..

- أعطى الله القوة لمولاي..

- تريد أن تسألني عن الطريقة والكرامات التي تحصل لك..

- هذا ما أريده يا مولاي..

أغمض الشيخ عينيه، وغاب قليلاً عن حضوره ثم مسح كفه بالكف الأخرى، وأخرج ورقة بيضاء مكتوبة بخط واضح وجميل، قال له: خذها واقرأ ما بها، قرأ بدران بعضها، قال الشيخ: ليس الآن.. فطواها ووضعها في جيب قميصه.

- هل يمكن أن تُعطيني الخرقة؟

- عندما تُتِمُّ واجباتك وتنهي التزاماتك.

- ومتى يكون ذلك؟

- يوم الجمعة القادم بعد صلاة العصر.

- ولكنني خائف يا سيدي.. أشعر أنني شبه ميت.

- بسم الله الرحمن الرحيم «**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون**» صدق الله العظيم.

مسح الشيخ وجهه وصدره، وقال له: انهض، فما نهض، قال: يا مولاي أشعر أن في داخلي جسماً نورانياً يشدّني إليه، أحاول الخروج منه فلا أستطيع، أحياناً يُحلِّق بي إلى

سموات بعيدة وأحياناً يغوص بي في أعماق الأرض، أكون حاضراً ولا أكون، أكون غائباً ولا أكون، جسداً بلا روح وروحاً بلا جسد إنني أرى سيدي ومولاي حبيب الله، كلّ يوم أراه مرات ومرات، في هيئة البشر وفي هيئة الطير والنجوم، أقترب منه وأُسلّم عليه، أجالسه ويجالسني، أُسامره ويُسامرني.

"من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنو افل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سَمَعَهُ الذي يسمع به وبُصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استعاذني لأُعِيْذَنَّهُ وما تردّدتُ في شيءٍ أنا فَاعِلُهُ تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت و أنا أكره مساءته".

انهض الآن يا عبد الله، ومدَّ الشيخ يده وأنهضه، مشى معه خارج المسجد وودّعه، ومشى عبد الله المدعو بدران وحيداً يطرق بلاطات الزقاق الصغيرة والدمع ينسكب من عينيه والهدوء يلف رأسه وقد ارتاح دماغه.. كان يتمنّى أن يتمدّد في ظلّ البيت ليستسلم إلى هذا الهدوء، ليفكّر ليس أكثر، لقد صَفَتْ نفسه وشعر أنه أقرب إلى الله، من خاصة المقربين، لقد تطهّر قلبه من كدرات الدنيا.

في باحة الدار، طلب من رئيفة أن تُحضر له شيئاً يستلقي عليه، فلم تفعل وابتعدت عنه، قالت خذها بنفسك، فأخذ قطعة جلدٍ، ومدَّها واستلقى عليها تحت ظلال شجرة المشمش الصغيرة.. جاءه رجالٌ عديدون جالسوه، كانوا يرتدون ثياب الصوف، استلقوا جانبه، كانوا جميعاً من الفقراء، ثيابهم تفضحهم، نهض لِيُحضر الطعام لهم، فأمسك به أحدهم، ابتسم له، أنْ لا حاجة إلى ذلك، قال آخر: هل تقبلنا ضيوفاً في بيتك نتّقي فيه الحر والبرد.

- هذا بيتكم وأنا راحل عنه.

- أنت واحد منّا ونحن جميعاً إخوة..

- قال آخر: وقد سمَّى باسم الله **"للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا تستطيعون ضرباً في الأرض يحسبُهُم الجاهل أغنياء من التعفُّف تعرفهم بِسَيْمَاهُم،**

لا يسـألون الناس إلحافاً، وما تنفقوا من خيرٍفإن الله به علي". قال الجميع: صـدق الله العظيم.

«تقشَّفْ في الدنيا وازهدْ في ملذاتها» هكذا قال الصوت القادم مع نسمة الهواء.

- أنا جَدُّكَ الجنيد "جئت لأكون معك فكن مع الله بلا علاقة".

قال الصوت الآخر "عندما تجلس اجلس مع الله بِلاَهمٍ".

ثم تكاثرت الأصوات عليه، كلّ واحد يأتيه من وادٍ، كلّ واحد يأتيه من بلدٍ.. ثم صرخ أحدهم بصـوت مرتفع "الله" ونهضـوا يُقيمون ذكر الله، رئيسـهم جدُّهم الأكبر: أحمد الرفاعي.. راحوا يهتفون ويذكرون اسـم الله كثيراً ويحجُّون إلى الوراء وإلى الأمام.. ثم كان بعضـهم يطير وبعضـهم يرتمي على الأرض.. ويصـفّقون على قفا أيديهم ويذوبون في ذكر الله، ورفع راية اسـمه.. ورئيفة تنظر إلى بدران الذي كان يحجّ بقوة، وتَنْدَهُ عليه بصـوتٍ مرتفع أنْ يتوقف، ولم يكن يسـمع صـوتها، وترفع صـوتها أكثر، ولا يسـمع صـوتها، ثم يرتمي على الأرض والزّبد يخرج من فمه، فتتركه على هذه الحال حتى تهدأ نفسـه.. ويظلّ في غيبوبته هذه أياماً، ثم يسـتيقظ ولا يُغادر مكانه، ورئيفة لا تجرؤ على الاقتراب منه، تخاف أن تدنو منه.. ثم يقف ويخرج من دائرته، يغسـل وجهه بالماء ويصـلّي ثم يقرأ القرآن، تسأله أن تعدّ له الطعام، فلا يجيب، يسمو بنفسه التي ترتفع عن الدنايا وعن متاع الدنيا، تصل إلى الغاية.. فإذا تفاحة تسـقط عليه، تناولها بيده، وكسـرها بقصـد أكلها فظهرت فيها امرأة حوراء، ولا أجمل منها ولا أحلى، خرجت من التفاحة، مدَّت رجلها فإذا هي في كفّه، مدّت رجلها الثانية فإذا هي في الأرض أمامه، جالسـته أياماً، وقرأت لـه في كفه وقصّت عليه كثيراً من القصص مما أنساه الطعام والشراب والورقة التي في جيبه.. كانت رئيفة تشـطف الدار بعيداً عنه وتاج الملوك تفتح الراديو على آخره وهو يُلْقِي حديثَ "أحمد سعيد".

***

عندما وصـلنا أمام باب حارة المزار، خرجنا من بعضـنا، عدنان الفلاح الذي كان صغيراً، انفلت منّا، ثم انفصل الأعمى عنّي.. أمسك كلّ واحد منا يد الآخر ولجنا الباب،

كانت روحي المعلّقة تراقبني، تأمل خيراً مني كي أُدْخلها ملكوت السموات. أوصلنا عدنان الفلاح إلى أمّه فاستقبلتنا بطولها الناحل، وابتساماتها الفرحة.. رحّبت بنا.. وعلى أطراف الشمس النيّئة سكبت لنا شراب اللوز، شربناه وانتشينا.. سكرنا من غير كحول.. غسلت عدنان بتراب أصفر، كانت تخاف عليه من عين الحسود.. انصرفنا عنها وعنه.. الأعمى سار في اتجاه البيت، وأنا حاولت أن أمضي إلى المعلّق في السماء، صعدت قليلاً، فاهتز الكون، وأظلم، رشقتني السماء بسائل أسود لزج، نزلت أفتّش عن ذاتي فما وجدتها.. ولعب حليب اللوز في رأسي فثقلت، فمضيت إلى امرأة أعرفها.. لأتوسّد ركبتها وأمتص حليبها.. هدهدتني المرأة وخَلَّخَلْت أصابعها في شعري وعصرت ثديها في فمي فأغفيت على لحم الجسد الطري، وكانت تأتيني رائحة المرأة التي تُوقظ كلّ جسدي، فأنهض ولا أنهض، يتثاقل رأسي فأمضي في هذه الرائحة، أبتهل فيها، وأشد وراء ظهرها، وهي تضغط بصدرها لأتنفسها.

وكان الليل ينشر عتمته فوق ظلال دار الأعمى وامرأته والأولاد ينتشرون في أرض الدار.. رمى نفسه بينهم، لم يذهب الليلة إلى أميرة.. كان مُتعباً فأراد النوم.. أغفى قليلاً لثانية لثانيتين، ثم استيقظ على نقرة حصوة، لكنه لم ينهض وأيضاً لم ينم.. استنفرت الخيول في رأسه، وانتشرت الحياة في كلّ جسده لكنه لم يستطع حراكاً، مدَّ يده إلى زوجته، فوجد صدرها ناهداً مشرئباً.. دعكه بيده وقسا عليه، لم يصدر منها صوت، دعك الصدر الثاني، ثم مرَّر يده على بطنها، لم تتحرك، أو تتنفس.. قال: إنها نائمة كعادتها، وهذا لا يهمّ، فمرر سيف يده بين ساقيها فاستجابت وانفرجت قليلاً، حرّك جسده، ثم مدَّ يديه وقَشَرَ ثوبها عن جسدها.. ومال عليها ليستقبلها، أصدرت آهة صغيرة، فعرف أنها مستيقظة، فأمسك شعرها وراح يدفع نفسه في جذع شجرة جاف.. تكاثرت الآهات، وانفرجت واحدة قوية.. ولم يعد الأعمى يسمع شيئاً كان يطارد اللصوص الذين يسرقون أكياس القمح، يمسك بهم الواحد بعد الآخر، ويضربهم، يضربهم بشدّة، ويضغط على رؤوسهم ويضرب

أجسادهم بيديه.. يُنهيهم الواحد بعد الآخر.. وصرخ صرخته الأخيرة وانطفأ.. أتاه الصوت من جانبه.. ماذا تفعل؟

كان الصوت لزوجته.. ومن هذه التي تحته تناديه.. أغمض عينيه وسحب نفسه من فوقها، من أنتِ يا هذه؟ صرخ على امرأته، من هذه، رجفت المرأة كيف يكون ذلك؟ كيف يكون؟ أمسك رقبة الأم وجرَزها إلى الأرض، من تكون هذه؟ هل هي؟ هل هي؟ وصلت دموع الزوجة إلى يديه وصرخ صرخته العظيمة.. ونهض، قالت ابنته، لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف ما هذا؟

ترك الأعمى عمران المنزل تلك الليلة، ومضى بعيداً إلى المقبرة.. حيث ظلَّ يبكي حتى الصباح.

ولمّا استقبل السوق نهاره، وفرش الباعة خضارهم وبضائعهم، نزل عمران إلى فتحة السوق، كان بيده شيء كالعصا، راح يضرب بها الناس ويقلب البضائع، هرب الناس أمامه، وكان يزجرهم كالغنم، يكسر كلّ ما تقع عليه عصاه ويضرب ويرفس ويصرخ.. حتى انتهى من السوق وذاب في غيابه.. اختفى وتركني أحمل وزره.. حاولت أن أجيء إلى الشيخ جمال الدين فما طاوعتني نفسي.. انتظرت الأعمى حتى يعود إليّ.. فلم يعد، انتظرته شهوراً وسنة فلم يعد وكان علي أن أدعو عدنان الفلاح كي يؤازرني في محنتي هذه.. ولكن أَنَّى لي هذا؟، فقد كان عدنان بين يدي أمّه تدلّله وتمشّط شعره، تفتح له من ماء البئر لتصبّ الماء على جسده، وتُلَيِّفُهُ وتغسل له بين رجليه بالماء والصابون.. ثم تلفّه بالمناشف وتضع له الطيوب لتنشر رائحته في المكان، تشتري له الكعك وتُطعمه إيّاه بيدها بعد أن تغمسه بالحليب.. أما أنا فقد كنت أطوف حول حارة المزار، أرمّم بيوتها، وأسوّي قبابها.. من الخارج أزرع نخلة صغيرة هنا، وشجرة سرو هناك، أمدّ طريقاً إليها، وأرصف الطريق بالحجارة.. عملت طريقاً للبشر، وآخر للحيوانات والدّواب.. زيّنت المدخل إليها وانتظرت أن يغفر لي بدران، جلست على الطريق أنتظره، ولكنه لم يظهر لي أبداً، كان يراني مُقْعِياً على الطريق فيذهب من الطريق الأخرى، وكنت أذوب في مكاني، تحت أشعة الشمس.. جلست حتى نهاية السنة.. ولم أَلْقَهُ ولو مرة

واحدة، إلى أن جاءني الأعمى.. فلم يدخلني، ظلّ بعيداً هو الآخر.. رسم خطاً بيني وبينه، حين دنوت منه لأعانقه، هرب بعيداً بين القبور وافترشت المكان، ولما طال بي المدى.. صنعت من النفايات الموجودة حولي بيتاً، سقفته، وسيَّجته وسكنته، ورحت أنتظر أحداً ما لِيُخلِّصني من حالتي هذه، إلى أن جاءني هاتف في نومي، قال لي، عدنان الفلاح غايتك وبه تنال رضا السماء.. فاغتسلت ورحت أنتظر حتى يكبر.. يومها ومع الصباح رأيت بدران، كان يُمسك بيده طفلين ويمضي بهما على الطريق الأخرى.. لم ينظر إليّ.. لم يلتفت إليّ، لكنني تبعته.

***

عندما وصلت عائلة أبوعيوش وصلت دفعة واحدة.. يتجاوزون العشرين نفراً؛ أولاد كبار، وأولاد صغار، ونساء وأولادهن الذين على صدورهن وبنات كواعب، وغير كواعب، وأبوعيّوش وزوجاته.. وعدة حمير، وحمارة واحدة.

التصقوا بالمنطقة الجنوبية الشرقية من حارة المزار، فوق صخور بيضاء ملتصقة بالأرض، جلسوا عليها وكانت ثيابهم ممزّقة، حفاة، آثار التعب تُشَرْشِرُ من الجميع حتى الحمير ألقت أجسادها فوق المرج الناعم ولم تأكل شيئاً، بل أرخت تحت أشعة الشمس الفجّة، ونامت.

ذهب أبوعيّوش إلى بدران وقدّم إليه عريضة استرحام ثم سحبه من يده يريه المشهد العام الذي يلتصق بالصخور البيضاء وبالأرض الخضراء.. ابتسم بدران وأعطى أمره بالموافقة، وبعد أيام لا تتجاوز الشهر قصّ بدران الشريط الحريري بمناسبة افتتاح منزل الصخور البيضاء لعائلة أبي عيوّش.

أبوعيوش وقبل أن يضع حجر الأساس لبيته الواسع وزّع الأولاد والنساء على العمل..

ثقب للأولاد سطول ربّ البندورة ماركة العبدة أو العبد، وربط كلّ سطّل بسلك وقال لهم انطلقوا في أرض الله الواسعة، فانطلقوا يملؤون كلّ ما يؤكل أو يباع في السطول ويعودون، يفرّغون ثم ينتشرون.. البنات الأكبر سناً توجّهن إلى فضاء الله يجمعن منه ما يمكن أن يؤكل أو يسرق، النساء الأكبر سناً، أخذن الودع ورحن يطفن بين البيوت يُبَصِّرْنَ للنساء الأخريات اللواتي فقدن أزواجهن أو طالت غيبتهم عنهن في المدن الأخرى، ومن كان يصعب أمرهن على النساء يُرْسَلْنَ إلى أبي عيّوش الذي امتهن كتابة الحجب بالماء الأزرق والبخور.. والأولاد الكبار جدّاً امتهنوا السرقة في الليالي، فكانوا يتناوبون على السجن بحيث لم ينقطع نسل أبي عيّوش عنه.. أمّا الأولاد المتوسطون فقد عملوا في مهن متعدّدة فقد تعلّم أحدهم الرقص عالواحدة والنصف كنجوى فؤاد تماماً، بينما تعلّم آخر الدّق على الطبلة ليرقّص أخاه وثالث تعلم الغناء بصوت سميرة توفيق لتكتمل الفرقة التي صارت تجِي الحفلات والأعراس، والبنات

اللواتي في مثل عمرهم توزَّعن بيوت الأغنياء للخدمة المنزلية، وكالعادة لا بدّ من قصص كثيرة في مثل هذا الموضـوع، سـرقة خاتم أو إسـوارة من منزل المخدوم، أو حالة سـكر لشـاب أرعن تنتهي بالإغارة على فتاة منهن، ويصـل الأمر إلى أبي عيوش وينتهي بمبلغ من المال، لتنتقل الفتاة إلى مخدوم آخر وهكذا.. تعرفون البقية ممَّا مَلَلتُمْ منه في أفلام "أيام زمان".

نجحت فرقة الغناء والرّقص نجاحاً لا مثيل لـــه، بخاصـة وقد حصـل اثنان منها الراقصـة والمغنية على ثياب نسـائية، أو لنقل على عدة الرقص والغناء بما فيها الشـعر المستعار، وتبدأ الحفلة بنجمة الإذاعة والتلفزيون لهلوبة المسارح "ميمي" وتندفع ميمي بين الناس في حركة دائرية، ثم تعود إلى المســرح المعدّ للوصــلة وتظلّ ترقص وترقص، حتى يموت الجمهور بين فخذيها، واكتملت الأمور. حين حصــل ميمي على صــنّاجات نحاسـية، كان يبدأ بها وصـلته، يصـنجها عدّة صـنجات ثم يمدّ سـاقه البيضـاء ويبدأ بترقيص خصـره وسـاقيه ويُفتن الجالسـون، فيضـربون زجاجات البراندي ويعبّون من العرق الممتاز، أو يدرج بعضهم سجائر الحشـيش ويدخنون يشـرقون ويُغَيِّبوُنَ الدخان في صـدورهم حتى تجحظ عيونهم.. والله أكبر، ما هذا يا ميمي؟ ولا سـامية جمال، لتغنج ميمي بكتفيها وتقلّد نظرات المطربة صباح، ويبدأ الحفل الكريم بمشاركة الراقصة حتى تنتهي وصلتها بالضربات المتسارعة والإيقاف مرة واحدة.

ثم تبدأ سـميرة (هكذا يسـمّي نفسـه) بوصلتها الغنائية بعد أن تكون قد ارتدت ثياب ســميرة توفيق و وضـــعت شـــامة على خدّها و تبدأ "عالعين موليّتين و عالعين موليّا" ويطيش حجر الجمهور الـذي يبـدأ الرقص والتـدافع والطبلـة تثير الأعصـــاب في الراقصـين، وتكون ميمي قد جلسـت بين الجمهور وقد كشـفت عن فخذيها البيضـاوين البضّـين، ويبدأ الحشـد بتقديم السـجائر لها، وقليل من رشــفات البراندي مع حبات الحمّص المملّحـة.. ويـا ســعـادة تلك الأيـام عنـدمـا كانت الزينـات والأفراح تملأ الأزقـة والشـــوارع، وتمتدّ كفّ لتمســك ركبة ميمي، لتمتدّ يدٌ وتصـــفع صـــاحب الكفّ وتبدأ

المبارزة بالسكاكين، تهرب ميمي وأختاها.. ويدبّ الهلع في الجمهور الذي يُنهي حفله بتقبيل الشوارب.

ولكن ميمي لم تُنْهِ سهرتها.. تتسلل كشبح وسط المقابر وهناك عند أحد الأضرحة المسوّر عالياً.. تجلس لتقصّ على الأعمى حكاية هذا النهار.. يدخّنان السجائر (هي تدخن سجائر أجنبية) ثم ترقص لـه تحت ضوء القمر، وهو يصفّق بيديه خفيفاً، يضحك من كلّ قلبه وهو يتابع حركة الجسد بأذنيه، تظلّ ميمي أكثر من ساعة في فتنة القمر.. ثم تستلقي بين ذراعيه..

يضع الأعمى بطحة العرق فوق منديل خمري مزهّر.. وبجانبها قليل من الفستق السوداني ولا بأس من برتقالة مقشّرة أو قطعة جبن، يكون قد حصل على كلّ ذلك من عطايا الناس في النهار، عندما يمرّ في الأسواق.

يشرب ويسقي ميمي، ميمي تستلقي بين ذراعيه وقد تكحّلت ووضعت حمرة الشفاه والخدود وعطّرت صدرها ووراء أذنيها، والأعمى غارق إلى لجته بهذه اللذة التي لا تغتفر.

جاءت قافلة أبي عيوش من المغرب وكانت قد بَنَتْ دوراً وسط عدّة مزارع، يعيشون منها.. وصل جدّهم الأول من محاكم التفتيش هارباً من التنصير واستقر به المقام في هذه الأرض شبه القاحلة القريبة من مراكش الحمراء، ولما أجدبت السماء لعدّة سنوات ومات له بعض الأولاد والدّواب جمع ما تبقى من عشيرته وأهله واندفع مُيَمِّماً شطر المشرق وعلى ذلك فقد رأينا الحالة التي وصلوا فيها إلى قرب حارة المزار.

.. قرأ بدران الورقة للمرة العاشرة وتمعَّن فيها، سَحَرَهُ الخط الجميل والحروف المرسومة بإتقان، الحروف الطويلة، النون والراء، الخاء، الطاء، كلّ الحروف أخذت حقّها بالرسم.. قرأها بصوت مرتفع، أعجبته العنعنات، وكانت الورقة تعريفاً بالإمام عبد القادر الجيلاني سنة 470 سنة 561 وفيها:

"هو شيخ الإسلام محي الدين العابد العالم الشافعي الحنبلي الإمام عبد القادر بن الإمام موسى بن الإمام يحيى الزاهد بن الإمام محمد بن الإمام داود بن الإمام موسى بن الإمام عبد الله بن الإمام موسى الجون بن الإمام عبد الله المحصن بن

الإمام الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه.

أمه: فاطمة بنت عبد الله الصومعي الحسيني.

ولد في جيلان سنة 470 وقدم بغداد سنة 488 أيام خلافة المستظهر بالله العباسي، تلقى العلم من كبار الشيوخ ودرس في سبعة عشر علماً و أفتى على المذهبين الشافعي والحنبلي.

أخذ الطريقة من الشيخ حمّاد الدّباس والقاضي أبي سعيد المخرّمي عن أبي الحسن محمد بن يوسف القرشي عن أبي النصر الطرسوس عن عبد الرحمن بن عبد العزيز التميمي عن أبي بكر الشبكي عن الجنيد البغدادي عن الحسن البصري عن باب العلم سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن سيّد المرسلين المصطفى صلى الله عليه وسلم عن أمين وحي الله جبريل عليه السلام عن حضرة اللطيف الخبير جل جلاله.."

وعندما أنهى قراءتها جهراً، رفع يديه عن البياض في أسفل الورقة فظهرت له صورة جدّه الجيلاني فكلَّمه دون حجاب. وكان يلبس جبّة سوداء على رأسه عمامة خضراء.. قال له يا بدران تبني زاوية لي داخل المزار، فيها أربعون غرفة، ينقطع فيها أربعون رجلاً للعبادة مدة أربعينية الشتاء وتُقَامُ في الزاوية الأذكار ليعلو اسم الله، وتكون مُنشغِلاً بها، لا يُلهيك عنها شيء.. ومن وقته نهض بدران فصلّى خمس ركعات لسيدنا الكيلاني وبدأ بصنع القرميد وإشادته ولم يكتمل العام حتى أنهى بناء الزاوية وساعده في ذلك ولداه، ولمّا انتهى من نجارتها جمع الناس وصلّى فيهم ثم ذبح لهم الذبائح، وأولم وليمة كبيرة، ظلّ الناس يذكرونها لوقت طويل، وانشغل بالزاوية ولم يعد يُفارقها، يُتِمُّ كلَّ ما ينقصها، بينما كانت رئيفة تستلقي وحيدة في المنزل تستظلّ من الحرارة ببرودة القبو الذي يقع جانب خزان الماء، وتفتح ساقيها فيأتيها الجني ليرجّ جسدها رجّاً، فتبدأ الصّراخ والعويل ممّا يجعل تاج الملوك تفتح الراديو

على آخر صوت، وتبدأ إلقاء الأكياس المليئة إلى أرض الدار مع شتائم هائلة لبدران ولرئيفة وإلى كلّ حارة المزار.

وقد ألحق بدران بالزاوية وقَفْاً هو عبارة عن عدة دكاكين ودور وأراضٍ زراعية.. وفي الزاوية فرش غرفة له لِيُجَالِسَ الناس، وغرفة أخرى لنومه.. في الغرفة الأولى وضع المزاهر والسيوف وكلّ ما يتعلق بالضرب بالشيش وغيره على الجدران، وفرشت الأرض بفراء الخراف الصغيرة، ووضعت عند المدخل عمامتان واحدة خضراء وواحدة سوداء، كذلك فرش الأعلام المكتوب عليها أسماء كبار أئمة المتصوّفة، واسم الرسول الكريم وعلي كرم الله وجهه، وبدأ يقيم الأذكار والأوراد، كلّ يوم اثنين بعد صلاة العشاء، يقف في المحراب، يدير ظهره للحائط، يضع ولديه على يمينه ويساره، ويبدأ بقرع كفّ يده.. الله.. الله.. لا إله إلا الله.

.. رسميّة، أم عدنان الفلاح أتعبت نفسها في تربية ابنها، ربته كلّ شبر بنذر، توقظه بقبلاتها الناعمة، تلبسه ثيابه، تضع له منديلاً في جيبه الصغير، تلمّع له حذاءه، ثيابه كانت من النوع الغالي الثمن، تضع طاقية على رأسه، تمشّط له شعره، ثم ترشّه بالعطر، وتمسك يده لتوصله إلى الكَتَّاب.. تدفع للشيخ الأجر مُضاعفاً.. يا مولانا.. انتبه إليه، ويضعه جانبه، بل إنه كان يغفو على ركبتيه في كثير من الأحيان، تعود به عند الظهيرة وتمشي معه في الأسواق لتشتري له الحلوى والسكاكر.. وفي الليل كانت تستغني عن الرجل، تلفّه إلى صدرها، وتدخله بين ساقيها وتنام حاضنة إيّاه، كانت تخاف عليه من النسمة إذا مرت، لذلك نشأ نظيفاً هادئاً مرتّباً مع قليل من النّزق الذي يطفح عنه في لحظات الغضب السريع، وعندما حفظ القرآن الكريم أقامت له حفلة كبيرة جمعت إليها كلّ أولاد الكتاب، وساروا به في الحارات، وهم ينشدون نشيد الختمة، ويرفعون الأعلام الصغيرة وكانت هي وراءهم، يمتلئ قلبها بالدموع الكبيرة..

وعندما كبر لم تسمح له قيّمةُ الحمّام بالدخول، كانت رسمية تغسله في الطشت عند عتبة الباب، تزيد الماء الساخن بالماء البارد حتى يصبح فاتراً وعندما تطيقه يدها، تبدأ بصبّه على رأسه.. وكان هو يبكي، وكي لا يبكي، يا عين أمك، كانت تلعب له

بحمامته، ويرتاح قلبها وهي تراها منتصبة بين يديها فتنقرها له بإصبعها، وهو يضحك مع بكائه الخفيف.. ثم تغنّي له بصوتها العذب، طار الحمام.. طار، وبعد ذلك تنشّف له جسده وتغيّر المناشف مرة أخرى، وتدثّره بالأغطية، ثم تضعه جانب المدفأة، تنده على ابنة الجيران كي تجلس بجانبه، ريثما تذهب مسرعة إلى الحمام وتعود، وتكون قد وضعت له بعض التفاحات والبرتقالات واليوسف أفندي لتقشرها ابنة الجيران ويأكلا سوية.

كانت ابنة الجيران في الثالثة عشرة من عمرها، ولا تعرف شيئاً عن الدنيا، تسمع في بعض الأحيان، ولكنها لم تجرب شيئاً وشاهدت أحياناً أخرى والدها وهو يضرب أمها، والأم تتأوّه بينما الأب يجلس فوقها، يومها خافت وحكت لأمها سائلة عن هذا الضرب.. قالت الأم: هذا ضرب لذيذ وهو أطيب أنواع الضرب، وعندما تكبرين ستجرّبين.. سيضربك زوجك كثيراً.. وصمتت الفتاة الصغيرة.

اليوم ضجَّ شيء جديد في جسدها.. دماؤها تكاد تنفر من عروقها، رأسا الثديين يضجان بالألم اللذيذ، جلدها يتمزّق من الحرارة والألم، رأسها يضغط عليها.. فجأة خلعت ثوبها، ووقفت أمام المرآة الكبيرة تتفرج على طولها.. عدنان غطّى رأسه بالأغطية كلّها.. أوقفته أمامها ثم بدأت تنزع عنه الأغطية، أوقفته بجانبها، وطلبت منه أن ينظر مثلها إلى المرآة فلم يفعل، عضّته من كتفه، ففعل، وضعت يدها على صدرها ثم دعكت الحلمة بالكف البضّ، ووضعت يدها الأخرى على مثلثها.. عدنان كاد أن يغمى عليه، عادت وارتدت ثيابها، ولفّت عدنان بالمناشف وجلست بجانبه تقشّر له الفاكهة وتطعمه وتبكي، ولم يعرف سبب ذلك لكنّه أحبّ اللعبة وكان يتمنى أن تذهب أمّه كلّ يوم إلى حمام السوق، وليس يوماً واحداً في الأسبوع.

***

- **رئيفة:**

دخلْتُ بغداد دار السـلام، فلم أجد أحداً فيها.. مدينة فارغة، هجرها سكانها، تركوها لأصوات العصافير.. الأزقة الضيقة والدور الفسيحة وأنا.. قرعت الأبواب فما أجابني صوت.. أين أنتم يا سكان المدينة؟ لم يجبني أحد.. كنت أعرف بيت أبي نواس فاتّجهت إليه، فهذا لا يمكن أن يغادر أبداً، كانت صداقتي معه حميمة، تعرَّفته منذ خمس وعشرين عاماً.. والتصق بجسدي فلم يعد يتركني، وعندما عرف الله تخلّى عني.

كنت أحمل حقيبتي وأتسلل في معاريج بغداد ورائحة الأشجار تتّهمني بالعار وتُلْقِي بِأَفْرُعِهَا على الجدران لتشهد على دخولي المدينة..

وصلت الباب، كانت واجهته مسمّرة بالنجوم ومطلياً بالأبيض، دفعته فاندفع، وتسلّلت إلى عبق المكان، كان البيت يعرّش على زقزقة العصافير وتغريد الأطيار، أطرافه انسكبت فيها ألوان الورود والزهور وحمتها شجيرات مثمرة تدلق أنوارها على صمت المكان، ووراء السور اندفعت أشجار النخيل في أعاليها تتلو آيات الذكر الحكيم قريباً من السماء.

- أيها النواسي أين أنت؟

فما أجابني أحد، نوفرة صغيرة كانت تعبث بحسن المكان فتنسج قصة حبّ بين حمامتين وتبثّ نجوى ساكنة لأوراق الرّيحان المقطّعة في ماء البركة.

قال قائل، من؟ أجبت أنا.. واندفعت وراء الصوت وعلى طرف من جنّته كان يشير النّواسي بكامل يده إليّ أن أتقدم فتقدّمت، وطلب مني السكوت فسكتّ، وأمامه ترقد أنثى شابّة عارية، تضع يديها أسفل رأسها وتنام.. كان يغطّ ريشته في مداد أزرق ويكتب على جسدها الأبيض شعراً.

قدّرت أنها فارسية لشدة بياض جسدها، حاولت قراءة ما يكتب فلم يُعِرْني اهتماماً وفرش أصابعه على الجسد الطويل كحناني إلى لقاء روحي، أمامه انتصبت كأس الخمرة المملوءة إلى ثلثها، فسكبت من الزجاجة المجاورة حتى امتلأت، أشار إليّ أن أجلب كأساً

فارغة ففعلت وسكبت فيها حتى امتلأت، دفعتها في حلقي دفعة واحدة وجلست بعيداً عنه أراقب كلّ شيء.

جاء المساء هادئاً رخيّاً، يستغفر ربّه على قارعة الطريق، ثم يخلع حذاءه ويتوضّأ قبل أن يسلّم علينا.. وكنّا في حضرته نسيجاً من النشوة المبتهلة.. أنهى النواسي قصيدته، وانتصبت الفتاة واقفة ومغطّاة بالأزرق الذي يشعّ بالبياض، فسلّمت علي، ونهض الآخر ليعانقني، قال: اليوم نسهر معاً.. أخذتني المرأة من يدي، أدخلتني إلى مخدعي، ثم طلبت مني أن أستحمّ.. خلعت ثيابي، جاءتني واحدة أخرى، وضعت عطراً في إناء كبير، ثم أجلستني فيه وراحت تدعك جسدي برغوة الصابون والليمون وعطورات شتى ما أتى بها أحد من سلطان.. ثم نشّفت جسدي، وأعطتني حلّة.. ارتديتها متخلياً عن ثيابي، فبدوت كأمير من ذلك الزمان، وخرجت لأُجالس النواسي، جلسنا أمام الحديقة، أمامنا خمر ورائحة المكان، ثم انهمرنا نعبّ كؤوسنا، تسقينا إيّاه امرأة عن يميني وأخرى عن يساره، صفّق بيده فنزلت مجموعة من النساء يتمايلن على أريج الزهور، يسبّحن الله، في حركة مائسة تتوزّع بين حركة حفيف الأطيار والزهور وأوراق الشجر والصمت، قالت النساء للماء نحن العذوبة التي منحها الله لأجسادكن.. قلت: نحن الماء الذي يلف الخدر في رؤوسنا.. وكان كلّ شيء يتناوب علينا.. حتى انسدلنا وراء الستار.

قلت: كفى.. قال: من الغُبْنِ أن تراني صاحياً وما الغُنْم إلا أن يُتَعْتِعَني السُكْرُ، وانتصف الليل، ودخلنا في نصفه الثاني، صفّق بيديه، فخلعت جميع النسوة أثوابهن، لم يبقَ منهن شيء، وانزلقن في الماء، لم يتدافعن، لم يتراكضن، كن كنسمة حائرة متلهّفة.. وامتلأ المكان بالألوان، ألوان من الماء، ألوان من أجساد النساء، وألوان من الحديقة، ألوان من السماء، ألوان من الخمر، وكنا جميعاً في حديقة الألوان، حملتني النساء وألقين بي في الماء مع كلّ ثيابي، وكأس خمري، ضحك النوّاسيّ كأنّما كان على عجل، يا هذا الشامي، الجواري أحببن مداعبتك، فهنّ لك.. ونمت تلك الليلة على أجسادهن، هكذا أحببت، كوّنت منهن سريراً، التففن حولي، وشبكن أذرعهن، ونمت بين أجساد ملونة، غفوت حتى الصباح، وعندما استيقظت لم أجد أحداً، وضعت

حقيبتي على كتفي، ثم درت في المنزل، راقبت كلّ شيء، تنفّست بعمق.. وخرجت فاستقبلتني الشوارع الضّيقة، سرت أكثر من ساعة، فلم أجد أُنْسِيّاً وعندما وصلت إلى ضاحية بغداد، رأيت قصراً كبيراً فوقفت أتأمله، الشمس تنصبّ عليه فتزيده التماعاً، كان مُسوّراً بالأشجار، وفي وسطه تتماوج الزهور مع الأطيار، شيء ما شدَّني لأن أدفع الباب وأَلِجَ إلى الداخل، نادى باسمي طائر ثم دَرَجَ أمامي، تنقّل بين الأزهار والشجيرات، حاولت أن أُمسك به، فطار عالياً، ليقف على النافذة.. تبدّلت صورته بامرأة لم أشاهد أجمل منها، ابتسمت لي، رأيت ابتسامتها نهراً من العذاب، ثم لوّحت لي بيدها، فلّوحت لها، درت حول القصر أبحث عن مدخل فلم أجد، كأنما صنع دون أبواب، أشرت إليها بذلك فضحكت، وأشارت لي، إذا كنت أريد الصعود، فأجبت بهزّ رأسي عدّة مرّات، وإذا بها تُلقي جديلتها من النافذة.. فصعدت عليها ووصلتها، ضمّتني إلى صدرها، وأخبرتني بأنها تنتظرني منذ ألف عام وهي مرصودة لي.. سألتها عن الناس وعن زوجها وعن أهلها، قالت: إن أهلها وسكان بغداد قد هجروها لأن المغول في طريقهم إلى المدينة، وزوجها، ولأنه معاون قائد الجند فإنه ذهب ليمنع المغول من دخول المدينة، قلت لها، ولكني لم أجد أحداً عندما دخلت المدينة، قالت، كان ذلك في زمن آخر.. ثم أخذتني من يدي ودلفنا إلى مخدعها، طلبت مني أن أنتظرها ثم ذهبت إلى وراء ستارة رقيقة، خلعت ثيابها ورأيت طيفها العاري ينزل في الماء.. استحمّت وعطّرت جسدها، ثم لفّت نفسها بالمناشف وذهبت، عادت وهي ترتدي غلائل رقيقة من الوردي، وظهرت حدّة بياضها، المشوب بالحمرة الخفيفة، وأنا كنت أتأمل بخشوع هذه الفتنة الجاثمة في هذا الجسد.. أخذتني من يدي وألقت بي على سريرها.. وكأرض عطشى انهمرت فوقي، تلاشينا معاً واختلط جسدانا الواحد في الآخر، وكنا كجبال من الغيوم البيضاء، سحبتها من يدها لنمطر بعيداً، هناك في المحيط حيث الزرقة الداكنة الملّونة بالبياض، سكبنا كلّ مياهنا، وضربنا سطح الماء بقسوة، تحوّلنا إلى ماء كالحة، ابتلعتها سمكة كبيرة، واستقرت في حدقة عينها.

بينما كنّا نتصبّب بالعرق، وينزلق جسدانا من بعضهما، ونحاول أن نتمسك ببعضنا أكثر وقف أمامي الهول العظيم، كان يمسك بسيف وترس ويتدرّع بقميص الزَرَد،

قالت: هذا زوجي، فانتفضت عنها وتراجعت إلى الحائط، ضربها بسيفه فشقّها نصفين، والتفت إليّ، انهارت كلّ قواي ورحت أتلو ما أحفظ من آي الذكر الحكيم، كنت كقملة على مساحة بيضاء، ألقى سيفه، قال: من أنتَ؟ فلم أجب، قال: سوف تجد ميتة عجيبة.. بيدي هاتين سأقطع جسدك وأقلع عينيك، قلت: هي جاءت بي إلى هنا، قال: أنت فاسق أكثر منها ثم اندفع إليّ، فهربت أمامه ورحنا ندور بين الغرف، وفجأة جاءتنا أصوات مرتفعة وضجيج وصليل سيوف.. قال: المغول يحاصرون القصر.. واندفع إلى تحت السرير، يريد أن يختبئ، أسرعت إلى سيفه والتقطت رأسه به.. نظرت إلى جسد المرأة وكومة الدماء، وإلى رأسه الذي بتر دون دماء.. وإلى أصوات المغول وهم يحاصرون القصر، فندمت أشدّ الندم، فأنا تسبّبت بقتل امرأة، وقتلت رجلاً.. إنني ضالّ وخطّاء، أنا قاتل يا مولاي.. نعم، لقد قتلت بيدي هاتين، ثم بدأت ألعن نفسي، أردت الخروج من القصر فلم أعرف كيف، تجمّع جسد المرأة والتمّت الدماء فإذا بها نسر كبير، حملني على ظهره وانطلق من النافذة..

ارتفع النسر بي عالياً، سألني ماذا أرى؟ قلت: جبالاً، وأنهاراً وسهولاً قاحلة.. ارتفع أكثر وسألني السؤال ذاته، قلت أرى بحراً واسعاً يموج بالزرقة، فارتفع أكثر، سألني، فقلت، لم أعد أرى شيئاً مساحة من الغباش، كانت تستلقي أمام عيني، فهبط بي وألقاني على الأرض، واندفع طائراً في السماء، مشيت كثيراً، ودخلت المدينة، مشيت في أسواقها، تفرّجت على خلقها وعلى تجارتها.. جعت فأكلت، عطشت فشربت، ولكن صورة الزوج لم تبرح رأسي، واندفع من بين الناس رجل يمسك سيفاً، أشهره في وجهي، قال لي: أنت قاتل والقتلة لا يدخلون مدينتنا، وقبل أن أجيب ضربني بالسيف، لقد قتلني ورأيت جثتي في عرض الطريق، نعم لقد قتلني يا مولاي، أنا الحي القتيل، هل عرفتم قصتي.. فأنا قاتل وقتيل وروحي معلقة بين السماء والأرض، أنا جسد بلا روح، وروح بلا جسد.

وضعت كفي على وجهي ومشيت في الشوارع، كانت كلمة (قاتل) تدقّ في رأسي، حاولت نسيان ذلك فلم أستطع، ومن أجل أي شيء قتلت؟ من أجل امرأة لا أعرفها، صورة وجهها لا تزال مرسومة بين عيني، مشهد القتل لا يزال مرسوماً أمامي بكامله، يا

ربّ من سيخلّصني من ذلك؟ سرت يوماً وليلة، أغلق الناس أمورهم وبقيت وحدي أمشي في الليل، صار الصباح وألقى بضيائه فوق المدينة ... وبقيت أمشي، سمعت نداء المؤذن يدعو إلى الصلاة، فتلبّستني خشية الله ودخلت المسجد، غسلت يدي إلى الرسغين، ورجلي إلى الكعبين، ثم غسلت وجهي ثلاث مرات، ودخلت إلى حرم المسجد، صلّيت مرّة وأخرى وسلّمت عن ذات اليمين وذات الشمال، شممت رائحة المسجد، تلك الرائحة التي هي مزيج من الخشب ورائحة المصلين، ودفء المكان، راقبت البساط الذي أقف عليه، خيوطه الملوّنة، بعضها منسول، أثر الحصيرة تحته واضح.. كان المسجد فارغاً إلا منّي ومن الإمام، أردت أن أقول له كلّ شيء عسى أن ينقذني، ومن أيّ شيء ينقذني؟ هل يستطيع أن يخفّف عني غضب الله؟ هل يستطيع أن يمنع النار من أن تحرق جسدي وتشوي جلدي.. وما إن انتهى حتى كدت أطير إليه وأقبّل يديه.. ورجليه إن أحبّ ذلك.. مضى خارجاً وتركني وحيداً مع الله في بيته، أكثرت من الدعاء، وطلبت المغفرة، ولكن الكلمة لا تزال تملأ أذني، ثم راحت تدخل في تراتبية المكان، وكان كلّ شيء يردّدها.. الإمام، والمحراب والقناديل والبساط والحصير، كلّ شيء حتى الرائحة كانت تردّد كلمة قاتل.. وضعت يدي على أذني، وانطلقت أهدر في الشوارع حافياً واتّسخت يداي ورجلاي، كنت ألتقط طعامي من النفايات، أغسله ثم آكله، درويش على باب الله، هكذا كانوا يسمّونني، أقف عند الفرن، فيناولونني رغيفاً، وأقف عند العطّار فيناولني شيئاً يؤكل، ألتجئ إلى أحد المنعطفات، وآكل طعامي، وعند الليل أمرّ على مجموعات النفايات، واحدة بعد أخرى، لألتقط رزقي منها وكنت أنام في مداخل العمارات، أو في الزواريب أو الأماكن الخربة.. إلى أن قادتني قدماي إلى المقبرة، رأيت ناراً تشتعل من بعيد، تسلّلت بين القبور لأعرف سرّها.. اعتقدت أنها لجنٍّ من تحت الأرض، ولم أخف، فقد كنت أفضّل أن يمسخوني كلباً أو هرّاً أو جرذاً على حياتي هذه، سمعت أصواتاً وضحكاً وثرثرة، قلت: علّهم يطعمونني فلم أطعم هذا النهار شيئاً، اقتربت أكثر، ولمّا صاروا على مرمى حجر منّي، رأيت اثنين، رجلاً وامرأة، الرجل كان هولاً ضخماً، والمرأة كانت في ثياب الرقص، أيقنت أنهّما من الجن، فقلت أتأكد من ذلك بإلقاء التحيّة عليهما.. ومن ردّهما أعرفهما.. وصلت إليهما، فتحفّز الهول لملاقاتي، بينما

احتمت المرأة بصـدره، قلت السـلام عليكما.. قال الرجل، لولا سـلامك سـبق كلامك لكنت ألقيت رأسـك قُدَّامك، إنس أم جن؟ قلت: إنس، ومن خيار الإنس، قال: وماذا تفعل هنا؟ قلت: أروم طعاماً، قال: اقعد معنا، فقعدت، قامت ناديا وكان هذا هو اسـمها الذي كان يدلّلها به عمران ورقصـت وطافت بنا، وأكلْتُ، وتركتهما، ونمت بعيداً عنهما وظلاّ سـاهرين، وفي النهار حكيت للأعمى قصّـتي فنصـحني بالذهاب إلى الشـيخ بدران وهو سـيحلّ لي مشـكلتي.. تركته وذهبت إلى بدران، رأيته في الزاوية يتلو ما تيسّـر من آي الذكر الحكيم، كان وحيداً، وأنا وقفت عند الباب ملتمّاً على نفسـي، رفع بصـره فرآني، أكمل قراءته، ثم نهض إليّ ليستقبلني، أو ليطردني، وركضت إلى يده أريد تقبيلها فرفض، وعند الباب سألني عن حاجتي فشرحت له بشيء من الإيجاز.. مدّ يده إلى جيبه وأعطاني كمشـة نقود، طلب مني أن أذهب إلى حمام السـوق وأغتسـل ثم أقصّ شـعري وأشـذّب لحيتي وأعود إليه.. فعلت ذلك وعدت، فأخذني إلى شـيخه جمال الدين ليحلّ لي مشـكلتي ويتوسّـط لي عند الله كي يعفو عني.. انتهى جمع المصلّين، وبقي الشيخ جمال الدين وحيداً، أسـرعت إليه، كما طلب مني الشـيخ بدران وقبّلت يده، كذلك فعل الشـيخ بدران، وهمس بأذنه بكلمات عني، قال الشـيخ جمال الدين، تحضـر يوم الخميس.. بين السـاعة التاسـعة والعاشـرة وحيداً، طاهراً نظيفاً، سـأكون بانتظارك.. فرحت وركضـت خارجاً، قال الشـيخ بدران، تعال اليوم ونم عندنا في الزاوية، أعتقد أن لا مأوى لك، قلت: أمرك، أمرك يا مولاي، وكنت أقفز فوق بلاطات الشـارع، لقد خفّت كلمة قاتل من رأسي.

عندما مرت رئيفة من مدخل البيت، سـقط فوق رأسـها كيس من نفايات تاج الملوك، لم تقل شـيئاً، اتجهت إلى الماء مباشـرة، غسـلت نفسـها، وجلسـت تنتظر حلول الظلام.. وعندما ضربت أبواق إذاعة صوت العرب من القاهرة معلنة الواحدة والنصف شـمّرت عن سـاعديها، ثم جبلت الإسـمنت مع الماء، صـعدت السـلم إلى العليّة، وراحت تسـدّ باب البيت بالقرميد والأسـمنت، ثم لبّسـت الباب بالإسـمنت، وكان شـخير تاج الملوك يملأ رأس الإذاعات العربية التي أُغلقت جميعها، بينما تركت رئيفة فتحة صغيرة في أعلى الباب في الصـباح لم تصـرخ تاج الملوك، نامت نومة طويلة، وعند الظهيرة

اشـــتدت الحرارة فأطلقت تاج الملوك صـــيحتها الأولى، وتلتها بعويل طويل، خرج بعده سرب من الدبابير من الثقب الذي تركته رئيفة، تلاه عزف للنشيد الوطني لدولة عربية شقيقة.. ومن يومها ظلّ الثقب يستقبل ويودّع الدبابير التي صار لها دوام منتظم.

حكيت للأعمى عمران ما حصل معي، وإنني أنتظر يوم الخميس لأزور الشيخ جمال الدين، والآن أنام في زاوية بدران، أنظف خلفهم، وعندما لا يبقى أحد أنام في داخلها، بينما ينام بدران في الخارج تحت ضوء القمر إن كان هناك قمر..

ســـألت الأعمى: لماذا يتخذ من المقبرة مأوى له؟ قال لي: إنه يســـتأنس بالأموات، وصـــفت له مكاناً جميلاً يقع في شـــرق حارة المزار، فلماذا لا يذهب إليه؟ وهو عبارة عن كرم مسوّر بأشجار الصنوبر، وبداخله أشجار زيتون ورمّان وفستق، قال وأصحابه، قلت: تجلس على طرفه ولا تؤذيهم قال: خذني إليه، أمســـكت يده وســـرنا، قال: دعني فقط، تكلّم معي، لأعرف الطريق، ثم طلب منّي أن نذهب إلى خمّار ليجلب مؤونة لـــــه.. سألني إن كنت سأشرب معه.. قلت: يكفيني ما أنا فيه من ضلالة..

أودعت الأعمى وما جلبه معه في زاوية الكرم العليا حيث كان هناك ثقب كبير في جدار الكرم.. وكنت أتردّد بينه وبين الزاوية، حيث أقوم بصنع الشاي للمريدين وأغسل الأكواب وأنظف المكان وأرتّب لهم أحذيتهم حين يدخلون وحين يخرجون أضـــعها أمام أقدامهم.

بدران أو الشيخ بدران كما يُسمّونه وأُسمّيه، لا يتكلم إلا قليلاً، يتأخر في الحضور من الغرفة المجاورة، يأتي مع هيبته وقد ارتدى ثوباً أبيض وتعمّم بعمامة خضراء وكحَّل عينيه بكحل أســـود، يجلس مكانه في صـــدر الزاوية، ووراءه علمان: أخضـــر وأســـود، مكتوب عليهما أسماء الصحابة، ووراء رأسه تماماً، سيفان متقاطعان.. لم أكن أحضر ذكراً عندهم أو عند غيرهم، بدؤوا النقر على الدفوف، جاء بعض الأولاد، بعض المجذوبين، اقترب واحد ممن أصابهم شلل أمام الشيخ بدران.. بدأ المنشد يرخي صوته الجميل ليعمّ المكان، وأنا ســـرحت مع هذا الهدوء الناعم، ثم علا القرع ووقف الناس للذّكر.. وتعالت الأصوات وغرقت في الدائرة ولم أعد أستطيع الخروج منها، رحت أتمثل

بدران وأذوب فيه.. لم يكن ذلك بيدي، كان كلّ ذلك خارجاً عن إرادتي، ورأيت شيئاً يخرج منه ويشدّني إليه، نور قوي يُذيبني في حضرته، تعاليتُ وسَمَوْتُ، واستجبت لندائه، وصرخت صرخة قوية، الله.. الله.. أذكر أنني ارتميت على الأرض، ومن خلال الأصوات خرجت صورتها، رأيتها وهي على النافذة، وهي تناديني، وهي أمامي، وهي.. وهي.. لا.. لم تكن قتيلة.. كان وجهها الأبيض مدوّراً، تبتسم لي، فأذوب في ابتساماتها، أتلاشى على شفتيها، وفجأة خرج بدران من الصورة ودخلت هي.. ورحت أهذي وأنا مرمي على الأرض.. كنت أختلج، أحسست بيدها تمتدّ إليّ برفق ثم تأخذني إلى صدرها، وتحضنني بذراعيها وتُريح رأسي على صدرها.. اشتهيت البكاء كما لم أبكِ أبداً.. فتحت عيني، فوجدت الشيخ بدران يعود إلى الصورة، يحملني بيديه، ويطير بي عالياً فوق الرؤوس، والمريدون يدقّون المزاهر أو على أكفّهم، أخرج واحد حربة وغرزها في بطنه.. الله أكبر.. الله أكبر.. سحبها من بطنه.. آخر ضرب سيفاً في صدره وآخر وآخر.. لم أعد أرى شيئاً سوى الشيخ الذي يطير فوق الجميع، ثم أصبحت الدنيا صفراء كابية، واستراح كلّ شيء، ولم أعد أسمع شيئاً، كنت في عالم آخر، عالم من نور، كلّ شيء فيه نور، حديقة واسعة أشجارها وأزهارها ومرجها، كلّها من نور، في وسطها ماء من نور، تقذف الماء من نوافيرها، التمع النّور في كلّ مكان، ثم ذاب كلّ شيء في النّور.

غسلوا وجهي. استرحت قليلاً قرب الشيخ، حين كان يقارب على انتهاء كأسه، وما إن وضعها على الأرض، حتى هجم عليها ثلاثة مريدين، أمسك واحد منهم بها، ودفع ما فيها في حلقه والآخران أعملا أصابعهما في قعر الكأس وراحا يلحسان الأصابع.. وبدأ بدران يقص أحاديثه على الجميع، قال مريد: لقد اختلفنا يا مولاي، أنا وهذا الرجل، على ماذا اختلفتما؟ ردّ بدران قائلاً: إن مولانا وسيدنا الجنيد بات عنده، وأنا أقول بات عندي ليلة البارحة. وقف رجل آخر وقال: أقسم لكم بالطلاق ثلاثاً على أن سيدنا ومولانا الجنيد بات عندي البارحة، الرجل الأول قال: أقسم بالطلاق ثلاثاً على أنه نام عندي البارحة وذبحت له زَوْجَيْ حَمَامٍ.

قال الشيخ بدران، وإذا قال اثنان آخران: إنه بات عندهما فهما على حقّ أيضاً، هذا الجنيد يفلّ الحديد. سأل مريد آخر: كيف يا مولانا؟

تلعثم بدران ولم يجب في البداية، دار حول السـؤال، قال: الذات الإلهية موجودة في كلّ مكان أليس كذلك؟

كنت أحسّ أنني بعيد، في زمن آخر، لا أدري أين هو، كنت خارجاً عن الزمان، وربما كنت هنا، وربما لم أكن أبداً.. جذبني صـوت السـلام عليكم في ذلك الزمن البعيد، فتحت إشـراقة عيني فرأيت رجلاً يدخل الباب، كان يملأ المكان بحضـوره، انتبذ ركناً قَصِيّاً، وصلّى ركعتين ثم جلس وابتسم في وجهي قال عني: هذا الشاب كان معي الساعة في مرّاكش.. ثم جلس وابتسـم في وجهي، قلت.. ولكنّني.. أشـار عليَّ بالصـمت، وقال من الذي طلبني؟ أشـار إليّ الرجل السـائل، ثم سـمّى بالله وحمده وسـلم على عباده الذين اصـطفى وقال: هذا من باب تعدّد الصـور بالتمثيل والشـكل، كما يقع ذلك للجان، أو من باب طيّ المسـافة، وزوي الأرض من غير تعدّد، فيراه كلّ إنسـان في بيته، وهو من بقعة واحدة، ألم يرفع الله بيت المقدس حتى رآه النبي صـلى الله عليه وسـلم بمكّة حال وصـفه إيّاه لقريش صـبيحة الإسـراء، وقد يكون من باب عظم جثّة الولي بحيث ملأ الكون فشوهد في كلّ مكان، كما قرّر بذلك شأن ملك الموت ومنكر ونكير، حيث يقبض من مات في المشـرق وفي المغرب في سـاعة واحدة، ويسـأل من قبر منهما في السـاعة الواحدة.

وإذ جاز في الجنّي أن يتصـوّر في صـور مختلفة، فالأنبياء والملائكة والأولياء أولى بذلك، إنّ الله يحجب الزوائد عن الأبصار، أو يدمج بعضه في بعض، ألم يكن جبريل في صورة دحيّة؟ وخلقته الأصلية أعظم من ذلك، بحيث أن جناحين من أجنحته يسدّان الأفق، فأين كان يذهب بجسمه الذي يسدّ الأفق لما تراءى للنبي عليه الصلاة والسلام في صورته الأصلية عند إيتائه إليه في صورة دحيّة؟ كان يندمج بعضه في بعض، إلى أن يصغر حجمه فيصير بقدر صورة دحية ثم يعود ينبسط إلى أن يصير كهيئته الأولى، ألم يقل ربك جل جلاله: "جنة عرضها السموات والأرض" وهي فوق السموات والأرض وسـقفها عرش الرحمن، كيف رآها النبي صـلى الله عليه وسـلم في عرض الحائط حتى تقدّم إليها في صلاته ليقتطف منها عنقوداً؟ ألا إن هذا إنما يكون بالتمثيل.

ألم يتّهم بعضهم قضيب البان الموصلي من لم يره يصلّي بترك الصلاة وشدّد النكير عليه، فتمثّل له على الفور، في صور مختلفة، وقال لـــه: في أيّ هذه الصـور رأيتني ما أصلي؟ هل تكفيك إجابتي هذه.. السلام عليكم.. نهض الرجل، وملأ الباب وخرج.. قلت: يا شيخ وركضت وراءه فلم أر أحداً فكيف كنت معه؟ لا أدري، أنا والله لا أدري شيئاً!

***

تختبئ مدينتنا وراء جبل، تأتيها من الأعلى فتجدها أمام عينيك راقدة آمنة مطمئنة في سهل فسيح، كتلة من الحجر في وسطها قبة عظيمة، يسمونها القلعة، ومن القلعة تنزل إلى أبواب سبعة ترتبط فيما بينها بأسوار حجرية عالية، حجارتها قاسية صفراء، ومنها بُنيت البيوت العالية الجدران، أزقّتها مُبلّطة ونظيفة وتؤدي إلى زواريب وقناطر وبوابات صغيرة.. ويمكن أن تتجوّل بها خلال ساعة لا أكثر.. لها سوق طويلة تشقها نصفين، وفي هذه السوق تجد بضائع الدنيا مركونة على رفوفها.. وأمام بسطات المحلاّت، يغنّي لها العشاق والمغنون وليالي القمر والنجوم والضفادع التي تنقّ على النهر الذي يستلقي عند أقدامها وهو يروي البساتين بماء شحيح، تحيط بها الكروم من كلّ أطرافها، لذلك اشتهرت بالفستق الحلبي الذي يُصَدَّر منها إلى كافة جهات العالم، ولأنهم، أي سكانها.. يحبّونه، وعندما يأتي موسمه ينفقون في سبيله كلّ وقتهم، يأكلون منه ليزدادوا سمنة وبلادة، في بساتينها الخضراء، يستلقي السكان أيام عطلاتهم يلعبون، ويمرحون وتقوم النساء بصنع التبولة والكبّة النيئة، يأكلون ويأكلون، ثم يتركون آثارهم ويمضون.. وإذا توغلت بين الكروم ستعجب بأشجار الجوز الضخمة.. وأشجار السرو والصنوبر، التي تمتّد عليها لتكون مسرحاً للغرباء كلّ مساء، وفي أعلى هذه الكروم كان هناك كرم يشرف على شرق المدينة، وفي هذا الكرم كان عمران الأعمى يجمع الحجارة ثم يقوم بالضرب بها في كلّ الاتجاهات.

عندما أشرفت عليه من السور، صرخت عليه أن يتوقف، فأرهف أذنيه، ولمّا عرفني، توقّف ورحّب بي، جلسنا على صخرة بيضاء في ظلّ صنوبرة صغيرة، سألني عن

أوضــاعي وأحوالي، وشــرحت له كلّ شــيء.. ثم ما لبث أن جاء الأخوان الراقص والمغني، كان مع المغني عود، جلسا حولنا.. أخرجا العرق والمازوات وفرشاها على أرض الصخرة، لم أشــرب معهم خفت أن تســتاؤوا مني، أخذ عمران العود وراح يُدوزنه، لم أكن أعرف أنه يهتم بالطرب والغناء ولم أكن أعرف أن لـــــه صــوتاً جميلاً كهذا الذي راح ينثال أمامي، صار يعزف ويغنّي، لقد أذهلني، وجعل شجر الكرم يتحرك ويهتزّ طرباً، وصمت باقي أفراد الطبيعة خشوعاً له.. قضيت كلّ بعد الظهر عندهم، وعند الغروب عدت إلى الزاوية.

كانت رئيفة أيضــاً تنتظر الغروب، لم يعد بدران يأتي إليها، كان يرســـل إليها كلّ ما تحتاجه مع ولديها.. وغالباً ماكان الولدان ينامان في الزاوية، وعندما تطمئن إلى عدم وجود أحد، وتقف الدبابير عن الحركة، تدخل يدها إلى ما بين ســـاقيها، وتخرج الجني، وتجلس معه.. في البداية تلاعبه الورق، وطبعاً هناك رهونات كي يحلو اللعب ويصـــبح جدّياً أكثر، تغشّـــه ويغشّــها، ويضحك كلّ منهما على الآخر وغالباً ما يكون الرهن على أوامر يصـدرها الطرف الآخر، وينفذها الخاسـر، لعبة بريئة ومسـلّية.. أن تضـع الجرة على رأسـها وهي عارية، أن يقف على قمة صـدرها عشـر دقائق.. أن يسـخّن لها الماء، أن تغســـل له جســـده، أن يملأ الغرفة بالبخار الملون، أن يخبّئ نفســـه عنها.. أن يدلّك جســـدها قطعة قطعة.. أن يتزوبع في ثقوبها دفعة واحدة، أن يملأ المكان بجســـده، أن يحوّلها إلى زهرة.. وهكذا إلى أن تفرش له وينام بجانبها.. في البداية يفرك لها حلمة ثديها بقرقرتها بأسـنانه الصـغيرة ثم يمشـط شـعرها.. ويمتدّ بجسـده على جسـدها وعندما لا يكفيها تطالبه بالتطاول، وهكذا تظلّ تفعل حتى يملأ صراخها حارة المزار بكاملها، يقول الناس، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لقد سكن فيها.. اللهم اكفنا شرهم أمين.. أما بدران فإنه يأخذ القرآن ليقرأ لها بعض السور القصار ليطرد الجنّ من جسدها..

ولأن رئيفة ســكنت وحدها مع الدبابير فإنها كانت تعتني بالدار، تشـــتل وتبذر، وتنظف، وتربّي الطيور، ويساعدها الجني بذلك، ويقال إنه كان جنّياً مسلماً، وقد عقد قرانه عليها عند ملك الجن، وكانت تستيقظ في الليل لتنصت إلى صوته وهو يتلو بعض

آيات الذكر الحكيم، فتنصت إليه بخشـوع، وتنهض من صباحها لتغتسل وتتوضّأ ثم تصلّي وتقرأ معه بعض السور.

- خذ هذا الحليب إلى البيت.

تناولت الحليب من يد الشيخ بدران، ووقفت أمامه، سألته إن كان يريد شيئاً آخر؟ فلم يجب.. كنت أعرف أنه قد نذر ألا يذهب إلى بيت رئيفة كما كنت أسـمّيه، وقرّر العزلة في هذه الزاوية، انطلقت إلى البيت، قرعت الباب، جاءني الصـوت من الداخل.. يسـألني عن طلبي، وعن اسـمي، عرّفت عن نفسي قالت: ادخل، تردّدتُ قليلاً ثم دفعت جسدي إلى الداخل.

كانت رئيفة ترتدي البياض، ثوباً أبيض طويلاً، مفتوح الصـدر على جسـد أبيض أكمامه طويلة وعريضة مطرّز من أطرافه بالأزرق والأحمر والأصفر، قالت: انتظرني هنا حتى أضع على رأسي، اجلس على الكرسي هناك.

لم ألاحظ فيما إذا كانت حاسـرة الرأس، كان هناك كرسـي واحد وطاولة في زاوية الحديقة كما سمّيتها، تأخّرت قليلاً، عندما عادت كان بيدها كرسي من القش، وواضح أنها رتّبت نفسها، وألقت على رأسها غطاء يكشف نصف شعرها، فزادها جمالاً وبهاءً، قالت: يحكون عنّي كثيراً.. قلت: ربّما، كانت تعرفني من وراء الباب، فقد أحضـرت لها بعض الحاجيّات مرّتين على الأقل قبل الآن، قلت: أريد الذهاب، قالت: لن يسـألك عن شيء، ستشرب القهوة معي، فلم أجب، جلست على طرف الطاولة ممّا يتيح لي أن أراها كاملة، لفّت رِجْلاً على رِجْل، بعد أن أبعدت الثوب عنهما.. وبدأت تحدّثني عن بدران وما يفعله هجره لها، والولدين وكيف ربتهما.. والوحدة التي تقتلها، حديثها كان رخيّاً وصوتها ينمّ عن عذوبة دافئة وأنا اسـتلقيت في عينيها، أتابع رحلة نشـيد طويل.. قالت: هل تعرف؟ إنني أحسّ بالاطمئنان إليك كأنني أعرفك منذ قديم الزمن، لم أردّ وتركتها تثرثر بأحاديثها الدافئة، كانت تشـير بيديها فيظهر سـاعداها البضّـان، ورحت أراقب يديها والأصابع الطويلة، وأتابع حركة الأيدي والأصابع، أثارتني المتابعة، لأنني لم أشاهد في كل حياتي مثل هاتين اليدين، كائنان ودودان، محبّان يتآلفان مع بعضـهما، ليلتقيا فوق

الركبة، ويكون بينهما حنين طاغ، يستسلمان على بعضهما، يشمّان حنان بعضهما، يداعبان بعضهما ولا يتعبان من الشمّ والتقبيل والمداعبة والملامسة.. رفعتهما إلى الأعلى لتسوّي غطاء شعرها، كانت الحركة مدروسة، تريد أن تنقل انتباهي إلى جزئها العالي لأتابع جمال العينين ودقة الشفتين الملوثتين بالأحمر الخفيف لأتابع ظلال العينين الساحرة والحمرة الخفيفة على الخدود.. لكنّني وقد سحرت بالأصابع الطويلة والكفّين اللّتين تحملان هذه الأصابع لم أبالِ بشيء من ذلك، هذا الدلال والغنج يتيح لي أن أتابع رحلة طويلة بدأت مع عمري ولم تنتهِ إلى هذه الساعة.. جاءنا صوت المؤذن، وكأنما يعلن عن الوقت الطويل الذي أمضيناه، نطقت الشهادتين وظلّت متابعة ظروفها ووحدتها، ثم قالت: ما رأيك؟ تلعثمت ولم أجب، ثم أعادت الجملة مرة ثانية، قلت: بأي شيء؟، أنت لست معي إذاً، كيف؟ وتابعت وتابعت، استقرتّ اليد اليمنى عند فتحة الصدر محاولة ضبّ فتحة الثوب أكثر، فأثارت انتباهي إلى هذا الصدر الذي ينشقّ هنا لألمح زغباً أشقر خفيفاً وبدأ حنيني الطاغي ينزلق من فتحة الشقّ ليبحث عن انسياب البطن وظلالها، ولونها، اليد اليسرى كانت مستقرّة فوق الفخذ، كأنما تحدّثه بكلمات ودودات عن تفتّح الزهور وثرثرة المياه ولون السماء الأزرق، والساق بكل وقاره ينصت إليها هازّاً رأسه، فيأخذ أصابعه واحدة واحدة، تطقّها له ثم تمسح عليها باليد الثانية.. وكان أن شبكت رئيفة الأصابع ببعضها تاركة فتحة الصدر تستنشق هواء نقياً، استقرت اليدان على الركبة، دخت من تلك الرائحة العبقة التي تضوعت منهما وهما يتعانقان ويلتحم جسداها مع بعض، يبدأان رحلة طويلة.

حرّكت إبهاميها في حركة دائرية فاشتدّ الهياج في داخلي، ولم أعد أطيق احتمالاً، وقفت أريد الذهاب، فحلفت عليّ أن أشرب القهوة، نهضت وقالت، إنها لن تتأخر، وتأخّرت، لم أكن بحاجة إلى القهوة، فقد كنت أريد رؤية يديها وسماع صوتها، هذه المرأة لم تكن من البشر، كائن نوراني من عالم آخر، عالم المثال، ثم تذكّرت حديث الناس عنها، وبدأت أراقب المكان، سحرتني دقّة الترتيب، والتنسيق، فكلّ شيء موضوع في مكانه ليتمّ تناسق الألوان، مع بعضها، عادت وقد تزيّنت بشكل خفيف ورتّبت من وضعها، وبيدها صينية القهوة وعليها كلّ شيء، بما في ذلك علبة الدخان والقدّاحة،

قلت لديك الوقت لتفعلي كلّ شـيء، قالت الوحدة علمتني ذلك وعلمتني كيف أهتم بنفسـي.. قلت: جميل أن تعرف المرأة ما تريد من نفسـها، قالت: اقعد لنشـرب القهوة، سـكبت القهوة في فنجانين وتركت البقية في الدلّة، قدّمت لي فنجاناً مع طبقه، أخذته من يدها، فمسّت أطراف أصابعي أطراف يدها، ارتعش جسدي بكامله على إثرها، فيما أخذت طبقها والفنجان بيد، ثم أخذت من علبة السجائر سيجارة وضيّفتني، لم آخذ، لأنني كما قلت لها: أنا لا أدخن، وضـعتْها في فمها ثم أخذت القدّاحة وأشـعلتها لها، ضـربتني على قفا يدي شـاكرة انتبهت إلى أنها غيّرت لون الروج على شـفتيها، قالت: إنها وحيدة ومظلومة في هذه الحياة، لقد ظلمني هذا الرجل، وتركني وحيدة بين أربعة جدران، لا أدري كيف قلت لها إنك لا تستحقين ذلك، كانت حركة أصابعها وهي تمسك السـيجارة قد دفعتني إلى ذلك، وندمت بعد ذلك على إفلات الجملة من فمي، بدأت أؤنب نفسـي، كيف أقع في مثل هذه الأخطاء، ألا تكفيني الأخطاء التي مررت بها، لقد آواني الرجل، ودلّني على الطريق الذي ينقذني، وها أنذا أقع في الخطأ مرّة أخرى، أنظر إلى حلاله بعين الحرام، ولكنها دفعتني إلى ذلك، بل هو الذي دفعني إلى ذلك، لقد طلب مني أن آتي إليها وهي وحيدة وبحاجة إلى رجل، لقد ائتمنني عليها، ربّما هو يُجرّبني، ولكنني لم أفعل شـيئاً حتى الآن، إذاً قد أفعل شـيئاً بعد قليل، إنني خاطئ، خائن، لا أؤتمن على هرّة.. هذا الطريق يؤدّي إلى الضـلالة، المرأة نَجسٌ ورِجْسٌ يجب أن أبتعد عنها، ولكنّي لا أستطيع، وكلّما أنقذت نفسي من واحدة، أقع في فخ واحدة أخرى، كيف لي أن أتخلص من النسـاء؟ لماذا لا أعتكف في الزاوية مثل بدران وأبتعد عن النسـاء نهائياً؟ ربّما أحاول ذلك في المسـتقبل، وهاهي حركة أصـابعها وهي تدخن وتمسـك أطرافها السيجارة الطويلة، تشدّ اليد، فتنفر الأصابع الطويلة منها، وينسدل كمّ الثوب إلى قاعدة الرسـغ، ثم إلى المعصـمين، يظهر البياض الأليف الذي يملأ العين، تنجذب روحي إلى حديثها، وإلى بياض فتحة صدرها، وإلى هذه اليد التي تمسح على صدري بحنان عجيب، تمدّ اليد الثانية لتشـرب منها رشـفة قهوة، وأنا لا أزال أنظر إليها دون أن أمدّ يدي إلى فنجاني، وهي تمدّ الحديث إلى مسافات مزروعة بالبياض، بياض من الياسمين، تنتشـر عليه شـمس الضـحى فتعبق الروح بمرآه، انسـدل غطاء رأسـها فتركته وكأنها لم

تنتبه إلى ذلك، سـألتني: ماذا أعمل؟ قلت في الوقت الحاضر، أنظر إليك، كرّرت السؤال، قلت عفواً أحضرت الحاجيات إليك، ابتسمت قليلاً وهي تمتصّ طعم الدخان العذب قالت: هل تستطيع الحضور في الليل؟ سألتها، متى؟ قالت: بعد، أو في الحادية عشرة تماماً، سأترك لك الباب مفتوحاً، قلت وماذا سأقول لبدران؟ قالت: لا تنم عنده الليلة، قلت: أحاول، قالت: تحضر.. سأنتظرك. عندما وصلت إلى الزاوية، كدت أتراجع، أهرب، فقد سمعت صوت بكاء وصراخ.. تلاه صوت بدران وهو يشتم نفسه وولديه وزوجته، لم أعد أستطيع الذهاب أو التقدم، رآني فصرخ عليّ أن أحضر؟ تقدّمت قليلاً قال: أسرع، فما أسرعت، عيونه تكاد تخرج من وجهه، بيده جنزير حديد وابنه صلاح مشبوح أمامه وهو عار معلّق ومتدلٍّ من السقف.. آثار الضرب واضحة على جسده، كان يقول له: قل أشهد أن لا إله إلا الله، والولد لا يتكلم، لأنه وكما قدّرت لم يعد يستطيع كلاماً. التفت إليّ فجأة، قال: أين كنت حتى الآن؟ قلت: ذهبت إلى الأعمى، ثم تراجعت عن الجملة، وقلت ذهبت إلى السوق فقد أرسلتني السيدة إلى السوق واشتريت لها عدساً وأشياء أخرى، لا أدري كيف انسَال الكذب على لساني، قال وما دخل الأعمى؟ قلت: رأيته في السوق كان الناس يضربونه، قال: هل تعرف ماذا يفعل الأخ؟ قلبت يديّ، قال: خذ وانظر، أخذت ونظرت فإذا هي جريدة من صفحتين، قال هل تعرف ما هذه؟، قلت: لا، قال: ماذا يوجد على الصفحة الأولى؟، قلت: الكتابة؟، قال: لا.. الرسم، قلت: منجل وشاكوش، قال: وهل تعرف ما ذا يعني ذلك؟ قلّبت يديّ مرة أخرى.. قال: الخنزير أصبح كافراً، اندفع الولد يبكي وهو يقسم إنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع، وأن أحداً ما، أعطاه إيّاها ليقرأها وهو لا يعرف هذا الأحد ما، ولم يره غير تلك المرة.. حاولت أن أتشفّع لصلاح فضربني بدران على يدي، ثم راح يضربه بالجنزير على كلّ جسده، حتى انهار الصبي إلى الأرض جاثياً.. عند ذلك طلب منّي أن أفكّه، وأن يرحل عنه، وأقسم عليه ألاّ يرى وجهه بعد الآن، لا هنا ولا في البيت.. أسندته على كتفي وأخذته إلى عمران ليعتني به.

كان هذا اليوم قاسياً عليّ، كلّ ما فيه غير عادي، وكأنني سأكتشف بدران هذا اليوم فقط، هذا الرجل، الذي كان غامضاً بالنسبة لي بدأت صورته تتضح ورقة ورقة، فقد

كشفت لي رئيفة كثيراً ممّا كان يتعلّق بحياته الشخصية، وها أنذا أراه وهو يطرد صلاح بعد أن أوهن جسده بالجنزير وكأنه ليس ولده.. والآن أراه يلبس ثوب التقى والورع، ويصلي ويؤم الناس ويحدّثهم ويشفي أمراضهم.

جاء رجل وامرأة وطفل صغير، المرأة جلست عند باب الزاوية، وأسندت ظهرها للحائط الأبيض، الرجل والطفل دخلا على بدران، وقبل أن يتكلّما كلمة واحدة نهض فصلّى وسلّم، ثم صلّى، ثم استراح على ساقيه وقرأ شيئاً وأهداه إلى حضرة الرسول الأعظم، أخذ السبحة التي أمامه وراح يقلب حبّاتها بعد ذلك قبّل الولد الصغير يده، وسلّم الكبير عليه، فمدّ يده ليقبّلها.. قبّلها الرجل.. جاء إبريق الشاي، شربوا جميعاً، وابتسامات وضحكات ومن أين الأخ، وشرح بدران أو شرح أحد مريديه معجزات بدران، التي تشفي كلّ شيء، وبعد صلاة العصر أضرمت النار في الخارج، ثم أدخل الموقد إلى الداخل، وضعت فيه ثلاثة أسياخ، وانتظر القوم جميعاً بينما راح بدران يتحدث بصوت وقور عليه ابتسامة خفيفة، كان قد كحّل عينيه، وتعمّم بعمامة خضراء على منديل أبيض والثوب كذلك.

قال أحدهم وهو يمدّ يده، لقد منع الشيخ من الزواج، كانت آثار ندبة صغيرة في وسط الكفّ واضحة، هذا من لعابه، فكيف إذا نزل ماؤه إلى رحم المرأة، أخذ بدران خيطاً أخضر طويلاً، وضعه في فمه وراح يلوكه، ثم أخرجه ودسّه في فم الولد، أخرج أحدهم سيخاً كان أحمر وردياً فأشار بدران برأسه، نهض ثلاثة رجال أشداء، أخذوا الولد وجرّدوه من ثيابه، كان عارياً بين أيديهم، رسموا خطوطاً سوداء على البطن والركبة والقدم، أخذ بدران السيخ الأول ومرّره على الجسد الناعم، فملأت رائحة شواء الجلد طقس الغرفة، وتلا ذلك دخان لا لون له، ونزل السيخ الثاني والثالث، أعاد بدران ذلك مرتين، وعند ذلك، انتهى كلّ شيء، المرأة في الخارج صرخت، مولولة، ثم أغمي عليها، ونهض بدران يحجّ ويصرخ، يا حيّ يا قيّوم.. يرفع رأسه عالياً، وإلى اليمين واليسار، ثم بدأ يسرع في ذلك، ولم يعد يضبط حركاته، ويصرخ حيّ، حيّ، ثم خرج الزبد من أطراف فمه، وارتمى على الأرض.. نهض الجمع كاملاً وهو يردّد وراء الصوت الذبيح وأخذ واحد منهم المزهر وراح يقرعه بشدّة وعنف وراح آخر يمزق قميصه والعرق كان

يتصـــبب من بدران ظلّ هكذا حتى أفاقت المرأة، رفع بدران نصـــف جســـده، رفعوا له الباقي، غسلوا وجهه بماء الورد، رائحة المكان لا تزال مفعمة برائحة الشواء الآدمي، عاد بدران إلى مجلسه، أخبر الرجل أنه طرد الجان من جسد الولد.. سمعت المرأة الجالسة عند الباب ذلك فزغردت وملأت حارة المزار بفرحتها.

رأيت كلّ ذلك، فأصـــابتني رهبة، خفت من بدران، ومن النار المتأجّجة وأســـياخ الحديد المحمرّة ورائحة الشواء، تذكّرت الجنزير وهو ينزل على ظهر صلاح وأطرافه، هل هذا الرجل مخيف إلى هذا الحد؟ كيف إذا علم بما فعلته اليوم مع رئيفة؟ هل عقابه أشـــد، أم عقاب الله؟ أيغفر الله لعباده؟ بدران لا يغفر، هذا ليس إنســـاناً، كيف يقتل ولده بهذا الشـــكل؟ أنا لســـت ولده فماذا ســـيفعل بي؟ هل أهرب كما جئت؟ قد تؤذيني رئيفة، ربّما تبلّغ الجنّي عنّي.. يقولون: إن جنّيها مسلم، لا يؤذي أحداً، قد يوعز إلى بدران كي يؤذيني. هل أســـتطيع الذهاب إليها ليلاً في الحادية عشـــرة؟ ســـتترك الباب مفتوحاً، ســـتنتظرني، وإذا لم أحضـــر ربّما تُدبِّر لي مكيدة عند بدران، قد يحضـــر بدران وأنا عندها، وأكرّر ما حصل معي في بغداد، ستموت هي، وسأقتل بدران، أنا لم أقتل أحداً، لكنني تسببت في القتل، سيقتل بدران، قد يقتلني بدران، ربّما يساعدني الجني المسلم ولا يســـاعد بدران، لأنه يحبّ رئيفة، ولكن بدران أقوى من الجن والأنس، يســـتطيع أن يخرجهم من جســـد الصـــبي، فكيف لا يســـتطيع أن يقهرهم عندما يراني مع رئيفة، لن أذهب في الحادية عشـــرة، ســـأتجول في الشـــوارع، ســـأهرب بعيداً هل أذهب إلى الأعمى؟ وأطلب إليه أن يربطني إلى شـــجرة حتى الصـــباح، هل أســـتطيع ذلك، ســـأهرب من عند بدران، بعد صلاة العشاء ولن أعود إليه ثانية..

- ما بك؟ سألني بدران، ولم أجب، قلت بعد ذلك، بطني تؤلمني.

قال: تعال لأقرأ لك عليها، زحفت مشلولاً نحوه، قرأ لي بكلمات لم أفهمها، ثم ضربني صفعة، لم أدرِ بعد ذلك أين أنا لدقائق خلت وعدت إلى مكاني.

كان الليل شـــجيّاً فاســـتســـلمت له، وأرســـلت نفســـي وراء هوائه الرخيّ ورحت أعدّ خطواتي فوق البلاطات الصـــغيرة، أراقب الظلال المرتمية على الأرض.. ضـــوء القمر

الخفيف يستلقي على الطرقات ويتسرّب مع عذوبة الهواء وقلق نفسي الغامر، انتابتني هواجس كثيرة كانت تدور كلّها حول بدران، رحت أطرد صـــورته وظلّه من خيالي، قرأت بعض السـور القصـار، كلّ ما تذكرته من القرآن الكريم، كانت صـورة رئيفة تخرج بين الفترة والأخرى كأنما كانت تناديني.. في البداية تأتيني من فجّ عميق، ثم تدنو أكثر وأكثر.. حتى تقترب من شفتي أو أقرب من ذلك، ينبعث صوتها دافئاً حنوناً فأشمّ رائحة بياضها وأقترب منها أكثر وتقترب هي فأحاول أن أضمّها إلى صدري ثم أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم، يا ربّ أبعدني عن الخطيئة، أبعدني عن جبل الإثم هذا، ظللت أتثاقل على نفسي، تذكّرت نفسي حين كنت عند أبي نواس، لهوت معه قليلاً، رقصت الحسناوات بين يدي، جلسـت وشـربت خمرة لم أكن أشـرب الخمرة، لكنّني شـربت، جلسـت رئيفة جانبي، وداعبت شـعري، ثم أخذت يدي وراقصـتني، حين دخلت القصـر وجلسـت إلى المرأة التي في النافذة ودخل علينا ذلك العسكري كانت رئيفة هي القتيلة، وكان جسـدها ينزف الدماء على يديه، يا إلهي من هذه الليلة فقط، مددت يدي إلى السـماء أسـتنجد بها، شـيء ما أعادني إلى الأرض، دفع رأسـي إلى أن أتثاقل إلى الأرض، ومشـيت، جاءتني رائحة الظلال، شـاهدت لون هروبي، زوبعت الريح أمامي، خرج شيء صغير منها، وقف أمامي رجل بحجم ثلاثة أقدام، كان يرتدي ثياب ألف ليلة وليلة.. وعلى رأسـه عمامة.. قال لي: إلى أين أنت ذاهب؟، لقد تأخرت عن موعدك، قلت: نعم لم أحسـب ذلك، وعدت أبحث عن مكان العودة، ارتديت الظلال ونصـف ضـوء القمر، وانسـربت على بلاطات الشارع، إلى بيت رئيفة، كنت مستلب الإرادة، لا حول لي ولا قوّة، يداي متهدّلتان على جنبيّ، وقدماي تسيران باتجاه معلوم، وجدت الباب مفتوحاً دفعته ودخلت..

ضـوء القمر كان يغطّي المكان، تعاونه روائح الأشـجار والزهور والورود، وهناك في البهاء الخالص قعدت على كرسيها، كانت تشبه كلّ أحلامي، ترتدي غلائل وردية، يعطيها القمر صفرة باهتة فتضجّ بشحوب قتيل، سمعت حركتي فنهضت لاستقبالي، أغلقت الباب بداية، ثم تقدّمت إليّ، مدّت يدها فقبّلتها، كرجل حضـاري يأتيها من تلك البلاد التي غابت عن عيني.. رجعت، وما رددت، كنت أخفق بكل قلبي، قالـت: ما بك؟ قلت:

خائف، قالت: ممن؟ قلت منك، ضحكت وجلسنا في نعاس الليل نستنشق رائحة القمر والمكان.

خلّلت أصابعها تحت شعرها ثم هزّت رأسها فضجّ بي نعاس أليف لأنام على هذا الصدر الذي يشبه عباءة لم تتم لكاهن أضاع ما تبقى من عمره عندما رآه.. جلست أتوضّأ على حافة ماء، كنت أخلع حذائي، وأغسل وجهي ثلاث مرات، ويديّ حتى الرسغين ورجليّ حتى الكعبين وبعد ذلك جلست في حضرتها لألمس يدها، أصابعها، هكذا أمرّر أصابعي عليهما وأقبّلهما، ثم أشمّهما، أضمّهما إلى بعضهما، وأضعهما على عنقي، كدت أبكي عليهما، أنهيت لوعة الصباح، وحرقتي إلى لمسهما.. تطاولت قليلاً فرفعت رأسي إلى عنقها وشممته، ثم ضممتها إلى صدري، وأرحت رأسها على كتفي، خلخلت شعرها، بأصابعي، رئيفة: إنني أحب أصابع يديك، يديك البضتين، قالت: وأنا، قلت: أنت الأصل.. قالت: يا عمري.. وعند ذلك فقط سرحت خيول شوقي، وضربت في طول الأرض وعرضها أعدو، وتعدو بي الخيول، كنت فارساً لا يشقّ له غبار، أسابق الفرسان وأسبقهم، وأتوغّل في هذا الليل العميق لأشّم رائحة البلوط والزعتر البري والكبّاد والنارنج والزعفران والمسك، رفعت رأسها إليّ، نظرت عميقاً في عيني، سألتني إن كنت أحبّها، هززت رأسي، أمسكت يدي، قالت: تعال ومضينا.

في الغرفة التي دخلنا كان هناك فرش بسيط، بسط ملّونة، ومرآة كبيرة، وعلى الجدار سجّادة مرسوم عليها نساء يعزفن على آلات موسيقية، في زاوية البيت فراش مرتفع عليه جلود خراف ملونة بالأسود والأبيض والبني، أمرتني بالجلوس فوقه، فجلست، بينما وقفت هي أمام المرآة تسوّي زينتها، تمتّعت بطولها اللائق والمتناسق مع اعتدال جسدها، سرّحت شعرها، ووضعت شيئاً من الزينة على وجهها وظلّلت عينيها، حمرة الخدود والشفاه، العطر تحت إبطيها ورقبتها وأماكن أخرى، سحبت كرسّياً صغيراً وجلست عليه، لفّت رجلاً على رجل فانتفضت ركبتها لامعة مكتنزة، لم أكن قد رأيتها قبلاً، أثارتني كما أثارتني الأصابع واليدان قبل الآن، وهاهي الركبة تثيرني هي الأخرى، وتبعث في نفسي الشجو والألم، تستلقي فوق أختها بنعومة ورخاوة تعانقها وتنام على جسدها، الثنيات الصغيرة تعانق الثنيات الصغيرات، الركبة اليمنى تحتضن

اليسرى بكل ما لها من قوّة، تجرّها إليها وتندغم فيها، وينشأ بينهما عراك صامت وحنين قوي ليقولا أنهاراً من الكلام لبعضهما في الهمس والعناق، قالت اليسرى: ما أجمل أن نلتقي بعد فراق طويل، أخذتها اليمنى بين أحضانها، ياقلبي.. لم تسألي عنّي كلّ هذا الغياب، لماذا هذا الهجران؟ وراحت تقبّل غمازاتها، تقبّل صدرها، ارتفاعاتها، انخفاضاتها، احمرّت اليسرى وتعرّقت، لكنها التصقت أكثر باليمنى، وقفت رئيفة بطولها الشامخ، ثم طلبت مني أن أقف وقفت، أخذتني إلى صدرها، ولا أدري لماذا قبّلتني، قبّلتني طويلاً وأسبلت عينيها على الظلال، سقطت منهن دمعة طويلة.. رأيت بدران يضرب الولد بالجنزير.. يضربه بعنف، والولد مشبوح في حبل السقف المتدّلي، رأيته وهو يلوي جسد الولد الصغير، وهو يصفعني وهو يأخذ السكين ويمضي خارج الزاوية، يمسك دجاجة، ويكبر عليها ثم يمرّر السكين على رقبتها، وينفر الدّم ليملأ الحائط الأبيض، ثم يستقرّ ويسيل قليلاً ويتجلّط.

وكانت تشدّني إليها وتبكي كأنها لم تعرف رجلاً كلّ حياتها، غرزت أظافرها في كتفي، ثم جذبتني إلى الفراش، المغطّى بالفراء الصغيرة، ألقتني عليه، عرّتني من ثيابي، وتعرّت، وبدأت معي تلك القصة التي لن أنساها كلّ حياتي، إن كان لي حياة.

كانت تنزلق فوق جسدي البارد، وقد تحوّلت إلى جسد من نار، يتصبب العرق من كلّ خلاياها، تتخلّص من بين أصابعي، تداعبني، في كلّ مكان، من جسدي حتى استطاعت أن تنسيني خطيئتي تلك، وكل أخطائي التي ارتكبتها في حياتي، نسيت بدران وشكل وجهه، نسيت قائد العسكر القتيل، وتلك الدماء التي كانت، عشت معها فقط، ورحت أتابعها، وأزلقها بين رجلي، وأحاول الإمساك بها فتفلت، تقبّلني وتعانقني، وتعضّني عضّات صغيرات في كلّ أنحاء جسدي وأنا أفرفر بين يديها.. أمضينا ساعة من الشهوة نلهث وراء بعضنا، وأنا أهمس لعنقها.. رئيفة، رئيفة.. وهي تقول: يا عمري، يا روح رئيفة، أنت لي ولن أدع أيّ قوّة تأخذك مني.. هكذا كنا عاشقين التقت روحاهما فاشتفيا دون أن يأثما، فتحت شقّاً في جنبي ومضيت أعبر خضاراً لا نهاية له، خضاراً فاتحاً، وآخر داكناً، وآخر يموج بالأحلام، ثم جاءت عرائس الجنة، حملن أكاليل البنفسج إليّ، وضعنها في رقبتي، وأنا استلقيت على الخضار وحدي في سهل واسع

فسيح، جاءتني جوقة الغناء، كأنّما هي ألحان من السماء، رأيت العذارى الصغيرات يعزفن فوقي، وكثيراً من الفتيات يحرسن جسدي، استرخيت وتركت العذوبة تملأ المكان، وشدّتني رئيفة، قالت: ما بك؟ قلت: لا أدري، هل هذه هي السعادة؟ قالت: سأجعلك تنسى حليب أمك التي أرضعتك، قلت: وحليب أمّي التي لم ترضعني، قالت: ستنساه أيضاً، لن تذكر أبداً سوى حليبي أنا.. الذي لاينسى أبداً، وقفت عارية، رأيتها للمرة الأولى هكذا، شيء من التناسق العجيب على جسد يلتمع تحت ظلّ النور الخفيف، أخذت ثيابها ومضت، قالت: سوف أغتسل وأعود إليك، هل تشرب شيئاً؟ قلت: لا، قالت: بل ستشرب ومن يدي، انتظرت ليس كثيراً، كنت أسرح في متعة الجمال تلك التي وهبني إيّاها الله، تذكّرت الله.. هذه متعة محرّمة، كيف مشيت معها في السوء، لقد مضيت كثيراً في الخطيئة، ولكن ذلك مقدّر عليّ، محفوظ في كتاب، كلّ ما فعلته وما سأفعله مقدّر في كتاب محفوظ، هل فعلت كلّ ما في هذا الكتاب، سيحاسبك الله على كلّ ما لم تفعله.

جاءت رئيفة، كانت أكثر بهاءً، تحمل الزجاجة والأقداح في صينية، قالت: صحيح، لم أسألك عن اسمك حتى الآن.. وأنا قلت: صحيح ما هو اسمي..

عندما استيقظت وجدتُني أحتويها بين نفسي، وهي تتداخل بين ذراعي وساقي، لم تستيقظ بعد، كانت تهدي الحياة بعض الابتسامات وتنفجر شفتاها بفقاعات ملّونة صغيرة.

صرت أخاف على نفسي، أخاف عليها، لماذا كلّ ذلك يا إلهي؟ أنا وحيد في هذا العالم.. بدأت هناك وقد أنتهي هنا، لا أعرف اسمي.. ترى ما هو اسمي؟ ماذا كان؟ هل نده لي بدران باسم معين، سأجرب معه، فقد أعرف اسمي منه، وهذه الضاوية في فيئي، هل سيعرف بدران قصتنا يوماً ما؟ سأذهب إليه بعد قليل، عندما تفيق من نومها رئيفة.. رئيفة يا حبّي.. قلت ذلك بصوت هامس بين عينيها اللتين تغتسلان تحت فمي، ما ردّت، ابتسمت فقط، انسللت من بينها، وبقيت كما هي مرسومة فوق فراء الخراف، ارتديت ثيابي، تأمّلتها عارية، فتحت الباب، وخرجت إلى الهواء الذي كان رأسي قطعة

حديد فوق سندان الحداد، تتناوله المطارق من كلّ صوب. سألت نفسي، هل أذهب فعلاً إلى بدران، فضّلت ذلك فقد يظنّ بي الظنّون، حاولت تفاديه، ولكن رأسي كان يدور باتجاه الزاوية. دخلت عليه مسلّماً قال: اذهب واغتسل ثم اذهب إلى الشيخ جمال الدين، فاليوم موعدك معه، يا إلهي كيف نسيت ذلك؟ وهل يعرف بدران القصة؟ لماذا يأمرني أن أغتسل، قلت: لست بحاجة إلى الغسل، إنني طاهر، قال: إن شاء الله. كذبت، نعم لقد كذبت، إنّ طريق الضّلالة طويل، ويبدأ بفعل صغير ولا ينتهي، وأنا نزلت إلى الطريق المؤدّية إلى المدينة، كان الصباح قد انتهى والناس أنهوا أعمالهم تقريباً، الخضار التي نزلت بيع أغلبها ووضعت في واجهات المحلات، الذبائح علّقت على كلاليبها، الرجال جلسوا إلى المقاهي بعد أن أرسلوا ما اشتروه مع أولادهم، انتهى القرآن الكريم من الإذاعات وبدأت وصلة الأغاني تبثّ من إذاعة القاهرة، الأولاد الذين يتعلمون في مدراس حكومية أغلقت عليهم المدارس، بائع دواليب الهواء يقف مع قفته، ينتظر حلول منتصف النهار عندما ينصرف الأولاد إلى بيوتهم ليأخذ منهم ما تبقى من نقود، القضيماتي ينشر البزر المحمّص على الغرابيل. الأهبل قدّور يكشف عن عورته، يفاجئ النساء المارات، فيصرخن "الولِي" الخافتة، مصلح البوابير ينكش رأس البابور بالإبرة فتندفع النار الزرقاء الملّونة بالبنفسجي. المبيّض يبرم نفسه مع طشت النحاس، خادم الجامع يمشي ويهتف، يا الله يا كريم، ديبو الحجل يمشي كطاووس فقد زهوته، وهو يبرم المنديل الحريري على رأسه، ويرتدي الشروال الجوخ والصدرية، أعرف كلّ هؤلاء وكأني عشت معهم، أعرف بائع العجة التي تفغم الحارة برائحتها المحببة، أعرف مصلّح الراديوهات، أعرف درويش الجامع، والعطّار الذي تشتري منه النساء أشياءهن ويدخلن إلى الحمام لتطرية أجسادهن، وهاهو الحمام حيث يصبّون الماء، كنت وحيداً، دخلت صببت الماء على جسدي، وجدت صابونة، قطعة صغيرة، غسلت بها رأسي، ومرّرت الصابون على جسدي، نويت أن أسقط الحدث الأصغر والحدث الأكبر سبع مرات، قذفت الماء على رأسي وعلى كلّ جسدي، خَلْخَلْتُ أصابع قدمي ويدي، أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا ربي تب علي، أنا عبد ضال، نشفت جسدي بكفي وخرجت إلى ساحة الخضار ثم انزلقت في بوابة المدينة القديمة.

كان باب الحديد شاهقاً وعالياً ومسمّراً بآلاف المسامير، ولا أدري لماذا أثار انتباهي، راقبته طويلاً، ثم تابعت في ظلام سوق الحدادين. كلّهم كانوا يدقّون رأسي، حاولت أن أتذكر من أين كان قدومي، فلم أعرف، حاولت أن أعرف شيئاً عن المكان الذي جئت منه فلم أعرف، رأسي مشوّشة، تذكرت سيف الدولة، الظاهر بيبرس، هارون الرشيد، أبا نواس، طرفة بن العبد، علي بن أبي طالب، وقعة كربلاء، صفيّة، أين كنت؟ لم أعرف، ربّما كان اسمي، لا أعرف، يا إلهي، ماذا سأقول إن سألني الشيخ عن اسمي، هل قلت له قبل الآن اسمي، لا أذكر ذلك، ربّما يعرف اسمي، بدران لم يقل لي اسمي ورئيفة لا تعرف، سأسأل الشيخ عندما أقف بين يديه.

قرعت الباب، هاهو ينتظرني.. سمعت صوته يأمرني بالدخول، السلام عليكم خلعت حذائي، وتركته في العتبة، شممت رائحة المكان.. كان الشيخ جمال الدين يقرأ القرآن بصوت مرتفع، جلست إلى حيث أشار بيده، وصمتّ وتابع هو يقرأ في كتاب الله.

"صدق الله العظيم" أنهى الشيخ قراءة السّور ثم أغلق كتاب الله وفتح يديه يجهر بالدعاء، كان يتمتم بصوت لم أتبينه ثم رفع صوته بصوت مرتفع، وهو يوزع الرحمة على المسلمين جميعاً وعلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، التفت إليّ وردَّ عليَّ السلام، أمرني بالذهاب إلى المغاسل لأتوضّأ من جديد، ولما عدت طلب مني الصلاة ركعتين بنية التوبة.. ففعلت.

كان يجلس على سجادة، وعندما انتهيت طلب مني الجلوس مقابلاً له وأن ألصق ركبتي ببعضهما، جلست بأدب وخضوع لله تعالى، كان يطلب إليّ أن أكون معه وأن أتجرّد من وساوس النفس ودسائس الشيطان، أسبلت عيني ورحت أبتهل إلى الله أن يوفقني ويأخذ بيدي، طلب مني أن أقرأ وراءه ثلاث فواتح سرّاً ففعلت ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وقرأ:

"إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً".

تبت إلى الله وارتجعت وندمت على ما فعلت، وعزمت ألا أعود إلى معصّية.

كان يفتح كفيه وعندما انتهى مسح وجهه بكفّيه، فعلت مثله، ثم راح يقرأ:

"وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إنّ الله يعلم بما تفعلون".

قليلاً قليلاً بدأت روحي تستقر وعدت من رحلة طويلة، تبدأ من ذلك اليوم الغامض الذي ولدت فيه، الشقاء كان دربي، وعليه خطوت وعلى الطريق ذاته عرفت الخطيئة مرة وأخرى وأخرى، هل هذه هي النهاية؟ هنا ستكون راحتي النهائية، هل ستستقر نفسي؟ استقرارها الأبدي، وهل سأترك رئيفة؛ إذا لم أستطع طرد الشيطان من نفسي، وهاهو يعود مرة أخرى ليذكّرني بها وامتدّت صورتها لتملأ المكان، قل:

"أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيّوم و أتوب إليه من جميع الذنوب".

فقلت، قال، قل مرة ثانية، فردّدت، قال وأخرى ففعلت ما أراد، ثم أمسك بيده اليمنى يدي وراح يلقنني: **"لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله ..."**

كنت أردّد بخشوع واستسلام، أذللت نفسي، وأسبلت عيني، ولم أعد أرى أحداً سواه، وضعت صورته بين عيني، شعرت بالاطمئنان وأنا أضع يدي في حنان ودفء يده:

"أشهد الله وملائكته ورسله و أنبياءه والحاضرين من خلفه أني تائب إلى الله مجتنب لمحارمه، مجتهد في طاعته، منيب إليه، مواظب على خدمة الفقراء بحسب الطاقة، وأن الطاعة تجمعنا والمعصية تحول بيننا، والعهد عهد الله ورسوله، وأن اليد يد أحمد الرفاعي وهو شيخنا في الدنيا والآخرة، والله على ما نقول وكيل".

طافت نفسي بين الأجرام، شعرت أنني أطير في السماء ثم أنزل الأرض لأنسرب نسمة تطفو فوق مياه المحيط، أداعب سطح الماء فينقلب بهدوء بين أصابعي، أصل اليابسة، فأستقر على قمة جبل، أبارك خلائق الرّب المنبسطة وأنصت إلى صوت الشيخ الجليل الذي قاد روحي إلى هذا المكان الطاهر.

"العهد عهد الله، واليد يد الله، والبيعة بيعة رسول الله، والهدية هدية الشيخ الأعظم، قدوة الأولياء، شيخ مشايخ العرب والعجم، قطب

الأقطـاب، سـلطان العـارفين، شـيخنا الشـيخ أحمـد الرفـاعي الكبيرقـدّس الله أسراره العليا".

الفاتحـة.. بـنفس واحـدة على نيـة القبـول.. **بسـم الله الـرحمن الـرحيم، الحمد لله رب العالمين..**

هل كان لي أب وأم؟ لماذا لا أعرف أحداً منهما، هل كانت لي أسـرة ومنزل أنام فيه؟ هل كان لي اسـم؟ هل حقاً أنا موجود؟ أو أنني ظلّ لشـخص، أو لشـيء لا وجود له؟ لا أدري ماذا أفعل، أيعقل أن الشيخ يمسك وهماً بيده؟ من أنا؟ قال الشيخُ: قمْ يا عدنان الفلاح مريداً بالطريقة الرفاعية، وقفت كان المكان مليئاً بالناس، لم أدرِ كيف دخلوا إلى هنا؟ متى وصلوا؟ من هم؟ سمعت صوت الفاتحة منهم جميعاً، قرأت معهم، امتلأت بنشوة الفرح، لقد صرت أعرف من أنا.. صار لي أهل وأسرة وأب، قال الشيخ ضع صورة شـيخك بين عينيك، واسـم الله في قلبك ولا تخف. خرجت إلى الشـارع، وضعت صـورة الشـيخ بين عيني، واسـم الله في قلبي، دخلت الأسـواق فوصـلتني رائحة البهارات والهيل والعطورات، فرحتي لا توصف، لأنني أرى صورة الشيخ بين عيني، أرى.. أرى صورة رئيفة وغرقت صورة الشيخ.. يا إلهي، ماذا أفعل؟ حتى اسمك مات في قلبي.

***

وجد صلاح عملاً في مصنع قريب للنسـيج، وهذا ما جعل عمران يشـعر بالوحشـة، قال: اليوم خمر، وعلى ذلك فقد نزل إلى المدينة العتيقة، وبالقرب من برّاكات الأرمن اشترى مدقّة عرق وضعها في جيب سرواله، ثم عاد واشترى اثنتين، وتسوّق بعض المازة ودرج باتجاه النهر.

عند طرف النهر مدّ منديله المزهّر ووضـع بطحة العرق ثم بدأ يخرج من جيوبه بعض الخيارات وحبة بندورة وقطعة جبن، راح يقشّـر ويقطع، ثم نتر رشـفة لا بأس بها من زجاجته، وأخرى وأخرى حتى أتى عليها، أخرج الثانية وراح يمزمز بها، وأمام روعة

الجمال التي لم يرها، بل كان يحسّ بها وثرثرة المياه والخيول والأبقار التي ترعى، والطبيعة التي تتنفّس جمالاً حوله، أمام كلّ ذلك قدح الموّال الأول، شرب قليلاً وراح بالموال الثاني الذي يتحدث عن ظلم الحياة وهجر الأحبة والخلاّن وجور الزمان عليه؛ حتى أنهى الزجاجة الثانية.. الزجاجة الثالثة، اختلف الوضع فقد بدأت موجودات الطبيعة ترقص على إيقاع الطبل في رأسه، بل راح هو يراقصها، ويدبك معها، ثم وقف، وراح يدقّ رجله بالأرض ويغنّي تلك الأغاني الراقصة التي تجعله يضحك ويفرح ويدق الأرض بقدمه، إيه ما أطيب الحياة! "وجودي عليه بوصلك، ومتّعيني" الله، الله..

ظلّ هكذا حوالي النصف ساعة أو أكثر ثم أنهى أموره مع العرق وما تبقى من مازة، وشكل منديله في وسطه واستلم طريق العودة، وما كان أجمله من طريق فلم يدرِ كيف تيسّر في شارع السوق القديم، حيث الخضار والعربات والناس، فتعثّر ببعض البدو الذين ينزلون بضائعهم في السوق، حمل أحدهم سلاحه الفردي الخفيف وشاطه به وهنا بدأ المشهد العظيم، فقد وقف عمران فاتحاً يديه ورجليه ينصت لأي صوت كي يتجّه إليه، قال أحد البدو، من هنا، اضربه من هنا، وانقضّ عمران على الصوت فلم يستطع أحد منعه من ذلك، في النهاية دفعهم من فوقه وظلّ ممسكاً الرجل ثم دقّه عدّة دقّات في الأرض وقذفه فوق الخضار، والناس قالوا الأعمى سكران، ولا أحد سوى الله يعلم من أين جاءت كتلة الأولاد هذه، الأعمى سحب موسه من جيبه، شكل حلقته في إصبعه الخنصر، شخطه على الحائط، وصاح (دوه أنا أبو حمدو، أخت وأم الذي يقترب) ولم يقترب أحد، لاذ كلّ واحد بدكانه، والناس الذين في الشارع احتموا بالدكاكين، الأعمى لفّ المنديل على يده اليسرى وراح يشتم أخوات وأمهات كلّ من في السوق، السوق لم يستطع أن يلوذ بالفرار، فقفز في الهواء ثم نزل بموسه فوق الأرض، شخطها وشتم السوق، السوق تدافع وتماوج إلى الداخل، مشى الأعمى خطوة حذرة ثم أخرى، تعثّر برجليه فوقع بكامل طوله، لم يحاول أحد أن يقترب منه، الأولاد أخذوا أماكنهم على أطراف الجدران، تسلّحوا بالخضار التالفة، وقف الأعمى واندفع يمشي مسرعاً متعثراً، يخبط في أطراف العربات وبسطات الدكاكين، قال أحد الأولاد: سكران. أكمل بقية الأولاد عنه "سكران ساحب موسو، مضيّع شرفو وناموسو" وبدأ قذف

الخضـار التالفة على عمران، عمران لم يسـتسـلم، بل اندفع وراءهم يكرّ على الأولاد، ويضـرب الموسـى على الأرض، تبعثر الأولاد وصـمتوا يلوذون بالجدران ووراء العربات، الأعمى أعاد نفسـه إلى هدوئها وتابع إلى الأمام، جاءته حبّة خضـار تالفة فمسـحها عن رأسـه، وشـتم السـوق، الأولاد أعادوا الكرّة مرة أخرى وأخرى.. واندفع الأعمى وراءهم مرات ومرات، ولم يسـتطع الوصـول إليهم، عند ذلك، وعند ذلك فقط هاجم السـوق بكامله، يقلب كلّ شيء تصل إليه يده، يضرب الدكاكين بالسحارات والزنابيل، يكسر الزجاج، ويقلب العربات، والناس تصـيح والأولاد اعتبروها معركتهم النهائية، فلم يتركوا شـيئاً من خضـار تالفة، وغير تالفة إلا وقذفوه بها، صـاح السـوق: يا لطيف، يا رحمن، أجرنا من هذا البلاء العظيم، قال أحد من السـوق، هذا يوم القيامة، الأعمى لم يترك أمّاً أو أختاً أو زوجة جالسـة في بيتها إلا وجلب فرجها أو مؤخرتها إلى أرض السـوق.. قال رجل وقور: حرام عليكم ماذا فعل لكم حتى تعاملوه هذه المعاملة؟ وهنا اسـتقرّ عمران عند سماعه الجملة وهدأ، الرجل الوقور قال: تعال يا ولدي حتى أوصلك، أسلم قياده للرجل الوقور، صـرخ أحد الأولاد سـكران خفيفة، السـوق نهره، ومضـى عمران مع يد الرجل الوقور خارج السـوق، كان السـوق كضـرّتين نتفتا بعضـهما وتركتا نفسـيهما بانتظار الزوج ليكمل عليهما الحفلة.

عندما عاد صـلاح من عمله لم يجد الأعمى، كان الكرم وحيداً، فاسـتلقى في الظلال على طرف من الجـدار، أخرج من جيبـه الخلفي جريـدة وبـدأ يهجّيء حروفهـا، قـال لـه المسـؤول عنه، عندما تكبر وتكون السـلطة بيدنا سـتكون وزيراً، لم يكن يفهم ما معنى كلمة وزير، ولكنه اعتبرها شـيئاً عظيماً، فالوزير يمكنه أن يأكل نصـف كيلو، أو كيلو من اللحم الكباب ويشـرب معه نصـف كيلو من اللبن، يمكن أن يدخن سـيجارة بفلتر، وأن يرتدي حذاءً جديداً متى أراد.. عنده سـيّارة ولكن صـلاح لا يعرف كيف يسـوق السـيارة، سـيكون لديه سـائق وسـيكون عنده زوجة شـقراء وعندها كلب، هو لا يخاف من الكلاب، هاهي الكلبة التي تحرس الكرم تتمسـح به، تتمرغ عند قدميه، مسـح على وبرها بيده، اسـتلقت بطولها بجانب رجله وراحت تمدّ رأسـها إليه كي يداعبها، دمعت عيناها، سـمع صـوت حجر ينصـفق حولـه، هربت الكلبة، رأى الأعمى ينزلق من فتحة

الجدار، ويضــرب بالحجر ما حوله، صــرخ صــلاح لينبهّه إلى وجوده، الأعمى قال له: ابتعد، فصعد صلاح إلى شجرة وجلس يتفرّج على عمران وهو يقذف بالحجارة حوله، يلتقطها من الأرض ويضرب بها ما حوله، ثم وضع إصبعيه في أذنيه، وراح يصرخ بصوت قويّ، بعد ذلك ارتمى على الأرض ولم يستيقظ إلى اليوم التالي.

صلاح لم يعد إلى الزاوية حتى الآن، والده نسـيه تماماً واعتبره ليس من لحمه ودمه حتى إنه لم يسـمح لأخيه قمر الزمان بأن يبحث عنه، وطبعاً كانت رئيفة مشـغولة بعدنان الفلاح تخطّط مع الجني الصـغير على طرق ووسـائل لتجبره على العودة إليها بعدما تاب وابتعد عنها والتجأ إلى الله، ومرّة هرب قمر الزمان وفتشّ نصف الشوارع عن أخيه فلم يجده، اسـتراح في ظلّ أحد الأبنية، وخرج إليه رجل نظيف سـأله عن اسـمه، فأجابه، الرجل النظيف وبعد أن وقف قمر الزمان أمامه احتراماً قال: "لقد أعجبني اسـمك وسـوف تشـتغل عندي اعتباراً من الغد" كان الرجل يعمل طبيباً جرّاحاً، وقد وافق بدران أن يعمل قمر الزمان عنده، ومنذ اليوم التالي صـار الولد يمسـح ويكنس ويغسـل العيادة، وبعد فترة صـار يعدّ غرفة العمليات، وصـار بعد ذلك مسـاعداً ذكياً للطبيب الذي كان يندهش من ذكائه وسـرعة اسـتجابته، لذلك اشـترى له الهدايا والثياب الجديدة التي تليق بعمله، وكان قمر الزمان فرحاً بعمله الجديد، ينصرف ليلاً، يأكل في الطريق ما تيسّـر له من الطعام، ثم يذهب إلى الزاوية، ينصـت إلى أبيه وهو يحدّث مريديه عن الثور الذي يحمل الأرض على أحد قرنيه، وإذا ما تعب ينقلها إلى قرنه الآخر، وهذا هو سـرّ الزلازل والهزات، أمّا إبليس فعندما تعب من البشـر ولم يعد يقدر عليهم، فإنه أدخل ذيله في مؤخرته وباض بعد ذلك سـبع بيضـات، فقّسـت عن أبالسـة صـغار، تكفّل كلّ واحد منهم بصـنف معين من البشـر. واحد لأرباب الشـعائر الدينية وواحد للمسـؤولين الكبار، وواحد لضـباط الأمن وواحد للزعماء العرب وواحد للدول الاشتراكية وواحد لعبد الناصر وواحد لي، هذا ما كان يقوله بدران، يحاول هؤلاء الأبالسـة زعزعة إيمان من تخصّـص به، أما الذي خصّـص لعبد الناصـر فهو أحمد سـعيد الذي تسـمعونه من صـوت العرب كلّ يوم، وأما الذي لي فها هو، لقد وضعته في

جيبي، ويخرج ورقة مطوية مرســوم عليها شــكل جني، إن قدرتي أقوى من قدرته، لقد مسخته.

يبدأ بعد ذلك الذكر والضــرب على الدّف، قمر الزمان يتابعهم قليلاً ثم ينصــرف منســلاًّ لينام باكراً ويســتيقظ باكراً بهمّة ونشــاط لينطلق إلى العيادة، يجعلها كالمرآة، وينتظر الدكتور هاري الذي سوف يأخذه معه إلى لبنان إن وافق والده.

***

- **عدنان الفلاح:**

دخل شاب من بوابة حيّ المزار، واضح أنه غريب، كان يراقب التغيّرات التي حصلت في الحي؛ مقهى وشوارع عديدة ومطاعم وورشات تصليح وساحة خضار، بعض الناس راقبوه، أو تطلعوا إليه، كان حليق الوجه ويحمل بيده حقيبة وعلى طرف فمه غليون، يرتدي ثياباً غالية الثمن، فكأنه مســتورد حديثاً من دولة أجنبية.. لم يســأل أحداً كان يعرف الطريق التي يريدها، مرّ أمام المقهى، درسه بعض الزبائن المنتشرين تحت أشعة الشــمس الخجولة. وصــل إلى زاوية بدران، وقف عند الباب، ثم وبكل جرأة، وقف في عتبة الزاوية مسلّماً. بدران لم ينتبه إليه وردّ السلام فقط وظلّ ملقيّاً رأسه في فروته:

- كيف هي أحوالُك يا بدران؟

سأل الرجل، وبدران شال رأسه قليلاً، ثم حدّق وأكّد.. قال: ماذا تريد؟

خلع الشاب حذاءه واندفع يقبّل يد بدران، وبرفق أعطاه بدران يده..

- أنا قمر الزمان يا أبي، هل نســيتني؟ وكان لقاء حنوناً فيه الدموع وفيه الحرقة والســوائل الأخرى.. وقصّ قمر الزمان قصــته مع الطبيب الذي أعطاكم عمره بعد أن علّم الولد أسرار مهنة الطبّ وجراحتها، ومنذ الغد وعلى طرف من الساحة اشترى قمر الزمان داراً وصــار يســتقبل الناس فيها على أنه طبيب متخصّــص في بيروت لمعالجة كلّ

الأمراض، وأنا كنت قد اندمجت تماماً بعدنان الفلاح، أواظب على الذكر في زاوية الشيخ جمال كلّ يوم جمعة بعد الظهر، وأقوم بخدمة الزاوية التي أنام في غرفة بجانبها.

بدأت تتردّد ابنة الشيخ جمال على مكان قعدة أبيها، وبحكم عملي فقد كنت أنتهي وأجالسهما؛ الشيخ كان يقرأ سورة مريم بينما كانت ابنته تجلس على الطرف المقابل له، تغطس مقدمة الريشه بماء الذهب، وتخطّ له سور القرآن الذي تحفظه غيباً.

راح عدنان الفلاح يراقب يدها الصغيرة، في البداية وهي تمسك الريشة بدقّة وإحكام، وهي تنقل الحروف على الورق الأبيض، تبدو عروقها وهي تنفر من الجلد الأبيض، تجلس في قعدة مريحة وهي تضم رجليها إلى بعضهما، وأمامها مقعد عليه أوراق أعدّت لتكون مخطوط قرآن، كانت تنقش الحروف وكأنها تطرّز أحلامها، امرأة صغيرة تعدّ بيتها الزوجي، تجهّز حاجياتها بدأب، تعدّ نفسها للأمومة القادمة، تخبّئ الثياب الصغيرة لوليدها القادم، تنقش عليها العصافير وماشاء الله كان، وبسم الله الرحمن الرحيم.. تضع الفاصلات وكأنها ترتّب زهوراً في إناء، ترسم السجدة كأنها تنقش سجادة صلاة وعدنان الفلاح يتابعها من بعيد، يسهو عن الزمان والمكان فيأخذها من يدها ويمضيان على مساحة خضراء يقطفان خوخاً ورماناً.. يطيّران حماماً أبيض.. ثم ينتبه إلى نفسه الأمارة بالسوء، كما كان يسمّيها فيستعيذ من الشيطان ويخرج من المكان، يغسل وجهه بالماء البارد ويتجول بين قبور عائلة الشيخ، قرأ لهم الفاتحة واحداً واحداً.. يا إلهي كيف يمكن أن أتخلص من الغواية؟ ويمضي إلى الأزقة المبلّطة يسير عليها وهو يردّد اسم الله بين شفتيه، يتعثر في الأسواق، يمرّ على بعض من يعرفهم، يسبّح في سبحته، يقرأ على ظهور أو رؤوس بعضهم، يصل الجامع الكبير، يتوضّأ ويصلّي، ثم يتلو ورداً، ويخرج إلى صحن الجامع يجلس على حصير وتغفو عيناه ليجد نفسه مع الملائكة في علّيين وهو متّكئ على الأرائك ويأكل ويشرب في آنية من ذهب وفضة، يحلّق في السماء، دون أجنحة، يزور الأصحاب والأقارب، يتخيّل أشهى الأطعمة فتأتي بين يديه. يمدّ يده فيملأ كأسه من نهر خمر الجنة، يشرب ويشرب ولا يرتوي، يرى حورية حوله فيطلبها لمجالسته، تغمر الفرحة عيون الحورية وهي تلبّيه، تستلقي على المرج الأخضر، وتبدأ تقصّ عليه أجمل القصص، ترفّه عن نفسه، يطلبها

لتلبي حاجة في نفسه، فتجيب طلبه.. وعند ذلك يفتح عينيه ليستغفر الله ويستعيذ من الشيطان الرجيم.. أين يذهب؟ هي موجودة في كلّ مكان، في بيت الله، في الزاوية، في الجنّة، هل يقتلع عينيه؟ هل يصبح أعمى؟ تذكر الأعمى، لم يره منذ زمن، سيذهب إليه ليعرف أخباره، وبعد ذلك سيطلب من الشيخ أن يأذن له كي يعتكف ويخلو إلى نفسه، لا بدّ أن تنصلح هذه النفس، لابدّ.

اكتمل بناء حارة المزار، صار فيها أسواق والأسواق فيها دكاكين تحتوي على بضائع ملّونة، فيها سوق للخضار وآخر للحبوب، وواحد للصناعات التقليدية، وفيها الزعتر والصابون والحلاوة، وباعة الأطعمة وسوق صغير للنحاسين، وجامع له مؤذّن ومفتي، وشيخ طويل للأوقاف يعطي من يشاء ويمنع من يشاء واستأجر عدنان الفلاح فيها بيتاً صغيراً يتّسع لـه وللشمس التي تأتيه مع الصباح وتغادره بعد الظهر، وفي البيت امرأة عجوز لها دجاجات ولا تخلط الخلّ بالزيت.

صار عدنان الفلاح يقرأ الكتب الدينية، يشتريها من أمام المساجد، تلك التي تتحدّث عن أهوال القبور وعذاب النساء يوم القيامة، كان يجلس في ظلال الشمس يقرأ فيها، العجوز تقأقئ هي ودجاجاتها وتنسج غبار الكلام فوق أرض الدار، بينما كان صلاح يهجّئ الحروف في جريدة الحزب التي تحمل شعار المنجل والشاكوش واستطاع مع الأعمى أن يبني كوخاً صغيراً خارج الكرم، في زاويته العليا، جمعا الحجارة، ورصفاها فوق بعضها، ثم سقفا الجدران بالأعمدة والتنك وأبواب السيارات التالفة، ثم وسّعا الكوخ ليسوّراه، ويزرعا على أسواره بعض شجيرات السرو، ثم غرسا نباتات الخشخاش، ولم يزرهما عدنان الفلاح منذ وقت طويل، واليوم قرّر أن يقوم بزيارتهما. جمع راحته في كفّ يده، ونهض.. ودهش حين رأى ما عملاه، وفي دهشته هذه كانا يضحكان عليه.

عند المساء، وبعد أن شرب الشاي ولفّا له عدّة سجائر من نبات الخشخاش، وحكى كلّ واحد للآخر بعض التفاصيل الصغيرة، تدحرج عائداً إلى البيت، وعند أوّل منعطف تلقّاه كهل عجوز محني الظهر: يا ولدي، يا ولدي خذ بيدي، وأسرع عدنان ليأخذ يده،

وكان حديث طويل واستراحات وجلوس، وأمسك بي من هنا، وأسندني على الجدار يا ولدي، وفهم الرجل العجوز قصة عدنان الفلاح، ولم يفهم عدنان الفلاح قصص الرجل لأنها متداخلة ومتشابكة، فاستظلا بأشجاره، كان الرجل يتحدث عن النساء وكيف كن يرتمين عليه في شبابه، وهو الآن قفّة عظام، لا يجد من يتصدق عليه منهن ببصقة.. وكان يثني على شباب عدنان وقوته، وصلابته، ومن هنا يا ولدي، وهذا المنعطف، إلى اليمين قليلاً، ادفع هذا الباب، ويستقرّ الرجل في أرض الدار، يطلب منه أن يسقيه قليلاً من الماء، يشير إليه أن يقرع الباب، يقرعه.. لا أحد يخرج.. الباب الداخلي مدهون بالأخضر الفاتح؛ له حلقة نحاسية صغيرة في وسطه، يسمع صوت القفل من الداخل وهو يفتح.. صوت نسائي، يقول: من؟ ماذا تريد؟ أريد ماء للرجل العجوز، ينظر إلى الرجل العجوز الذي في أرض الدار لا يراه.. اختفى، أين هو؟ يذهل وهو يلتفت إلى الباب، إنها رئيفة بكامل فتنتها، وفتحة صدرها، جرّته إلى الداخل، تهرب منّي، أليس كذلك؟ سآتي بك ولو كنت في أسفل سافلين. البيت ممدود بالبسط الملّونة وعلى أطراف الجدران وسائد وتكايا ومذياع على أحد الرفوف، وكاسات ملّونة على رفوف أخرى، ومدفأة، كان كلّ شيء جاهزاً. أجلسته في البداية، ثم مدّت أمامه صينية صغيرة فيها بعض المكسّرات، أمرت الجنّي الصغير الذي كان شيخاً طاعناً في السن منذ قليل، أن يحضر المشروب والأقداح، أشار بيده فكان كلّ شيء قد حضر، شربت رئيفة الكأس الأول على عجل، وبعد أن استقرّ في جوفها راحت تمطره بالقبل، تشمّ رقبته ووراء أذنيه وشعره وتقول له: أحبك.. أحبك أيّها الغادر، لا أستطيع التخلي عنك، طلبت من الجني الصغير أن يغلق الباب من الخارج عليهما، ففعل، قال له شيخه عندما تقف أمام الخطيئة، اذكرني، فذكره، قال له: ضع صورتي بين عينيك ومحبة الله وذكره في قلبك، ففعل، وتداخلت الصورة، فكانت الصورة تخرج من الصورة، ثم تندغم فيها، تخرج صورة الشيخ لتدخل في رئيفة ثم تخرج صورة رئيفة لتعود مرّة أخرى، وبكل جهده يحاول أن يبقي صورة الشيخ، لكن صورة رئيفة كانت هي الأقوى، يغيب عن حاله، فيرى ماءً وجبالاً وخضرةً، يسافر بعيداً إلى أرض رملية شاسعة لكنه يرى صورة رئيفة تخرج إليه من بين كلّ ذلك، تقتلع محبة الله من قلبه لتستقّر فيه،

فيجاهد على أن يعيد كلّ شيء إلى مكانه، لكن رائحتها كانت أقوى، وسقته كأساً وأخرى، وطلبت إليه أن يشرب ويحدّق في عينيها، وشرب وحدّق فيهما، رأى شيخه يبتسم له، وصفا ذهنه، بدأ يشعر بنعاس ذابل، فلمَّ نفسه على نفسه وراح يذوب في الكأس، وضعت رئيفة قطعتين من الثلج في الكأس وأمسكت به بكلتا يديها وراحت تحتسيه رشفة رشفة، وخلال ذلك دخنّت سيجارتين، وفتحت أزرار صدرها، وأدخلت كفها اليمنى إلى جسدها، مسّدت ثديها ثم مسحت تحت إبطها، وراحت تغني بصوت هادئ كرائحة القرفة عندما ترشّ على العسل.

عندما انتهت من شرب الكأس، ألقت به، وتمدّدت على ظهرها وقد وضعت زندها تحت رأسها، ربّتت على فمها عدّة مرّات، ثم أغفت وخلال ذلك خرجت عدّة فقاعات ملوّنة من فمها، أحمر، أصفر، ازرق، موف، أبيض، رمادي.. أخضر.. الفقاعات تجمّعت مع بعضها فكوّنتني. وقفت إلى جانبها، أراقب هذا الجسد الضاوي أمام بصري، كانت تثني ركبتها بشكل زاوية حادة، والركبة الثانية ممدودة على طولها.. وينفرج ثوب النوم الأبيض الطويل عن ساقيها حتى فوق الركبة بقليل، راقبت بياض بشرتها، والساقين الملتفين فوق بعضهما، هممت أن أستلقي جانبها، أقبّلها، أو أقبّل صدرها المفتوح، بل إنني، فكّرت أن أقبّل قدمها، لم أعد أسيطر على نفسي، لمحت ابتسامة طافية على شفتيها تشبه نسمة حائرة في الصباح، غيّرت وقفتي، حاذيت قدميها، فرأيتها هكذا ممدّدة كليلة تكاثرت فيها النّجوم، شعرت بالعطش، فرأيت نهراً يتدفق بين هذه النجوم، ملت كي أغرف بيدي قليلاً من مائه، رأيت صورة وجه الشيخ تبتسم لي، تراجعت وانسللت من ثقب الباب، وعندما كنت في الشارع لملمت نفسي وحسّنت من شعري، مسحت وجهي ونفضت ثيابي، ومضيت، لقد خرجت من جسد عدنان الفلاح وتركته في جسد رئيفة، يجب أن أتخلص من هذا الجنّي، ولكن كيف؟.

في شارع فرعي مددت يدي، وأخرجت من شقّ في الجدار ورقة مصحف مطوية، حملتها في جيبي وانسللت كزجاج مكسور.

"الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

هدأت روحي وأنا أضع رجلي على عتبة المسجد، خلعت حذائي وألقيت بنفسي على الجدار، أستند إليه، كان عليّ أن أشرح كلّ ما جرى لي، لشيخي، نظرت إليه فابتسم بهدوء بريء، يجلس أمام المحراب وهو يقلّب حبّات المسبحة، همهمات حولي تسبّح في المكان تردّد اسم الله، استغرقت في نفسي ورحت أذكر اسم الله، وضعت صورة شيخي بين عيني وأنا أغمضهما. رأسي كان مليئاً بالصور، رئيفة والجني والأعمى وبدران، تختلط الصور وتتمزّق، ثم تعاود ترميم نفسها لتظهر واحدة بعد أخرى، كيف سيصفو قلبي؟ الله.. الله.. هل يتّسع هذا القلب الصغير لكلمة الله؟ للسر الإلهي، وسع كرسيه السموات والأرض، كيف سيتّسع لحرف من اسمه، وقفنا جميعاً.. ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. بدأ الاطمئنان يستقرّ في رأسي ويمشي مع دمي ليستقرّ في قلبي، لا يمكن للجنّي أن يدخل هذا المكان الطاهر أبداً، راودتني فكرة أن يكون أحد الواقفين حولي، ثم أزلت الفكرة لأن كلمة الله هي المسموعة هنا، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، وتمتد البحار والمحيطات أمامي، أرى السحب المتعانقة في السماء كالعهن المنفوش وهي تنزل ماءها على أرض خراب، تشرب الأرض ممّا يأتيها، فتنتشي ثم ينمو زرعها ويكبر ويثمر، آتي إليها فأقطف من ثمرها رطباً جنيّاً، سفوح الجبال الخضراء وهي تعلو نحو الأبيض فالرصاصي ثم تذوب في زرقة السماء، أراضٍ فسيحة تثغو بها مئات من رؤوس الأغنام، طبول في واجهة اللوحة، بطّ وحمام في الفضاء، عصافير على الأشجار، تزقزق وتغرّد، أولاد صغار يلعبون، يقع أحدهم على المرج الأخضر، يبكي، تأتي امرأة وتلفه إلى صدرها. ربّما هي أمّه، تخرج صدرها وتلقمه حلمتها. هي أمه فعلاً، هل أرضعتني أمّي حليباً؟ أين هي أمّي؟ أمّي أرضعت كلّ الأولاد من حليبها، أكثر الأولاد كانوا إخوتي، كنت أجلس بجانب هند أراقب فتحة ساقيها المشربين بالحمرة، صوتي كان غليظاً عندما قالت لي أن أشتري لها علكة، أخذت النقود وبسرعة الطير كنت بين يديها. بدأت أميل إليها، لا أدري ماذا يصيبني عندما أراها، أجلس في بيتهم وأراقبها، كانت أكبر مني، كنت في الإعدادية العامة، تضع العلكة في فمها، وتعطيني واحدة تطلي أظافرها بالأحمر الوردي، تبدأ برجليها، تلوي ركبتها فيظهر لحمها الوردي، تنفتح أذناي، يخرج منهما البخار الملون، يخشُّ صوتي ولا أرى جيداً، أشعر كأن كومة بحص دُسّت في

حلقي، أركض إلى الخابية فأشــرب ماءها ثم أرشــق وجهي بقليل منه وأعود إليها، رجلها اليمنى ممدودة وثوبها يكشــف إلى ما فوق ركبتها، أســترق النظر إلى فتحة الثوب، هل أساعدك؟ لا.. ما هذا الذي تضعينه؟ لماذا تضعينه؟ تضحك مبتهجة، أنت أخي بعهد الله.. أمّنا واحدة، أمّك أرضعتني سنة كاملة.. كان حليبها جافّاً، أمّي أرضعت كلّ الأولاد وكلّ البنات، كان حليبها يكفي عشــيرة كاملة، كلّما بكى طفل أعطته ثديها، يا إلهي، هل يمكن أن تكون أمّنا جميعاً؟ لكن لماذا أرضــعت هنداً؟ هل حرام أن أنظر إليها، وهذا الشعر الطويل الملقى على كتفيها بنعومة وسلاسة وكأنه يحميها من عيون الناس، هذا الوجه المدور الأبيض الذي يمتلئ بضحكة شجرة الياســمين، هاتان العينان، الزند المكشوف على بياضه، الساقان، الجريمة الكبرى التي ارتكبتها أمّي عندما منحتها بياض حليبها المشــوب بالوردي.. هل يمكن أن أمدّ إصــبعي لألمس ركبتها، هل أســاعدك؟ لا.. أمسك رجلك، تضحك.. فيمتلئ رأسي بصوت ضحكتها.. هل ستظلّ أخي كلّ عمرنا؟ ســأظلّ أخاك كلّ عمرنا، ســأجلس قربك تأمرين فأطيعك، أتأملك وأنظر إلى اتســاع عينيك، أراقبك وأنت تضــعين أحمر الشــفاه وتســوّين ذراعيك وســاقيك، وتطلين الأظافر، أراقب الزغب في فتحة صدرك، أمدّ بصري إلى جذر ساقيك، أراقبهما من ذات اليمين وذات الشمال، أتمنّى أن أضع رأسي فوقهما، وتداعبين شعري، تخلّلين أصابعك به، أنتشــي من الفرح، أذهب معك إلى كلّ مكان تريدينه، أحميك من أولاد الجيران والأولاد الآخرين، أخوتي، أطلب لك الرحمة، أدعو الله أن يطيل عمرك، أســتغفر الله العظيم، ماذا فعلت؟ لقد نسيت كلّ شيء، أستحضر صورة الشيخ بين عيني، أفتحهما لأراه وهو يغمض ويضرب كفّاً على قفا كفّ، سبحان الله، سبحان الله، تبارك بملكوته.. أردت أن أســتريح، أجلس على الأرض ، الذي أمامي كان يرتجف من مفرق شــعره إلى أسفل قدميه، خرجت صورة الشيخ مرّة أخرى، واستقرّت صورة هند، ملأت وجهي وقلبي والمكان كلّه، ملأت نفسي وذهني وروحي، حاولت أن أعيد صورة الشيخ ففشلت، أطلقت بصري في أرجاء المكان، صعدت إلى العالي، إلى سقف القبّة، إلى النوافذ المعشّقة بالأحمر والبنفسجي والأخضر، القنديل المتدلّي من أقصى نقطة في السقف، كم عمره، مئة سنة، أكثر، القناديل الأخرى، أطلقت بصري خارج النوافذ، خارج المكان، انتشرت

مع السحب البيضاء الصغيرة ، عبرت السماء الزرقاء، فضاء يتلوه فضاء، أين أنا؟ كلمات الله، تنساب في سمعي، أدور في فلك الحمد لله، تأتيني الأصوات تراثية متناغمة، وأردّد وأنا أغمض عينيّ مع الجميع: الحمد لله، الحمد لله.. على ما أعطانا وما منحنا من نعمة، أعطانا السمع والبصر فكنّا لــه خاشعين، منحنا العقل لنفكر ونتدبر، عند كلّ مشكلة يجب أن نعود إلى شيخنا ليحلّها لنا، هل أحدّثه بما رأيت وسمعت من هند؟ هل أقول له: إنها أختي بالرضاعة، وأمّي أرضعتها سنة كاملة.. وكنت أنظر إلى ساقيها المبرومتين فلا أدري ما يصيبني؟ وأنها حملت نفسها واتجهت إلى غرفة الحمام، كنت ألعب أمامها، وأمّها كانت تجلس في الشمس الهادئة، تغفو قليلاً والذباب الربيعي يملأ جلستها ووجهها، غطّت وجهها بمنديلها واستلقت بكامل طولها على الحصير، لم أدرِ كم من الوقت مرّ عندما سمعت هنداً تنادي أمها، أسرعت لأسألها ما تريد؟ قالت أن تأتي وتفرك لي ظهري، أخبرت الأم بذلك، قالت لي: قل لها: نائمة، نائمة، وعندما سألتها في المرة الثانية، قالت: اذهب أنت وافرك لها ظهرها. فذهبت وأخبرتها، قالت، هي أختك وأنت صغير وأغفت على ذباباتها. هند طلبت مني أن أنتظر، ثم فتح الباب ودخلت. طلبت مني أن أغلق الباب وأوصده ففعلت، كان الصابون على رأسها ووجهها، وأنا رأيت، نفر مني جسدي، فهذا هو ظهرها الأبيض العريض أمامي ولم أدرِ ماذا أفعل؟ فالتجأت إلى الحائط أبثّه هلعي، رأيت طرف ثديها يشرئب بسمرة حِلْمته فشهقت، قالت: ما بك، لم أجب. كانت تجلس على مقعد خشبي يقتطع نصف مؤخرتها، تابعت الزغب الخفيف الذي ينبت في مستقر ظهرها، أردت أن أمدّ يدي، فلم أجرؤ، صبّت الماء على رأسها ووصلني بعض منه، سألتني إن كانت قد طرّشتني فلم أجب، قالت: ما بك؟ خرست، فلم أجب، عصرت رأسها بكلتا يديها، ومرّرت كفّيها على وجهها، ثم مدّت الكيس إليّ، أخذته مرتجفاً، وبدأت أمسك لحمها الطري، وأكشط عنه العرق والتعب والرائحة الزنخة، لم ارتح في وقفتي وهي لم تشعر بضغط الكيس على جسدها، قالت: إنني لن أكون رجلاً أبداً، فغيَّرْتُ وقفتي طلباً منها، التفتت بجسدها منحرفة عن جرن الماء فأصبحت أمام كتفها، وقالت هكذا أفضل، وبدأت أفرك بقوّة، يدّ على الكتف الأيمن، وأخرى أنزلق بها على جسدها، أصل إلى نهاية العذاب ثم أرتدّ من البداية، أدور

على كلّ ظهرها وأكتافها ، وأطراف الظهر، أنظر من الأعلى فأجد الثديين ينتفضـان من جسـدها، كأنما يتمرّدان عليه لينطلقا وحيدين، سـمعتها تطلب مني أن أفرك بقوة، جمعت كلّ قوتي، وانهرت على ظهرها، إلى الأسـفل، إلى اليمين، إلى الأعلى، دع الأطراف أنا أفركهما، الأكتاف، دعهما لي، زخ العرق من كلّ جسدي، سال لعابي خارجاً من فمي، سـقطت قطرات منه على وسـط ظهرها ، هذا يكفي ، فتوقّفت، ناولتني طاسـة الماء فسـكبتها على ظهرها ، ثم مسـحت ما علق بجسـدها، ناولتني أخرى فزلقتها على ظهرها مرّة أخرى، ثم أخذت الطاسـة منّي وبدأت تقذف الماء على ظهرها. لجأت إلى الحائط مرّة أخرى، رغت الصـابونة فوق الليفة، وناولتني إيّاها ورحت أسـبح في عالم من الأطياف الرقيقة الملوّنة، كنت أسير فوق مرج أخضر ومعي بعض الحملان الصغيرة، أمسكت بها، الواحد بعد الآخر ولوّنتها بأقواس قزح، ورحت بعد ذلك أطاردها فوق المرج الأخضر وهي تتقاذف حولي، وأنا أضحك، أضحك حتى أغرق في ضحكي فأستلقي على المرج وأنقلب فوقهن كما تنقلب كفّي مع الصابون فوق ظهر هند، صرخت بي فجأة، ما بك؟ فأفقت من إغفاءتي، يظهر أنني التصـقت بكتفها، لم أجب وتابعت دهك الظهر بالليفة، طلبت منّي أن أسرع فأسرعت، انتهيت ولم أجرؤ أن أصل إلى قاعدتها، قذفت الماء على رأسـها، وأنا أردت أن أمسـح الصـابون من على ظهرها، جاءتني طاسـة الماء بكاملها، فصرخت، قالت: ما بك؟ قلت: غرّقتِني. قالت: تستاهل، رفعت رأسها وصدرها وألقت الماء، ثم مسحت شعرها ووجهها بكفيها، والتفتت إليّ، وأنا التجأت إلى الجدار، نظرت إلى وسطي بعين حادّة، بداية قالت: ما هذا؟ ثم تداركت نفسها، ثم قالت: ألست أخي؟ اخلع ثيابك كي أغسّـلك، تعال، لقد تبلّلت تماماً، لم أتحرك، بقيت ملتصـقاً بالحائط، هل أنت خائف منّي؟ أنا أختك، رفعت ثوبي إلى الأعلى، رفعت يدي، فإذ بي أقف بجسدي النحيل وسروالي الطويل، ضحكت، ما هذا السروال، هيا اخلعه، فلم أفعل، اخلعه لا تخف، شيء ما سينقذف من جسـدي، حاولت أن أجلس على الأرض فرفعتني، أمسكت بقضيبي من فوق السروال، ما هذا؟ خجلت، اعتقدت أنها ستؤنبّني، ثم وفجأة أسقطت السروال إلى ما تحت ركبتيّ، نظرت إليّ بالتماع عينيها، ربّما دهشت، ربّما فرحت، ربّما غضـبت، كان الخجل يأكلني، هيّا اخلعه، فوضـعت رجلاً فوق رجل،

اخلعه بســـرعة، لا تخف أنا أختك، وخلعته، ألقت به وراءها، وأجلســـتني بحضـــنها، غسلت رأسي بسرعة ثم مدّدتني على أرض الحمام، وراحت تفرك جسدي بالصابون، وكان كلّ شـيء فيّ منتصـباً متوتّراً، ربّما لحظت هي ذلك، قالت، يا ملعون بدأت تصـير كالرجال، ألقت الماء فوق جسـمي عدة مرات، ثمّ اسـتدارت لتغطّي وجهي بظهرها، ولم أدرِ ماذا كانت تفعل بيّ، غير أني لم أعد أحتمل تلك الدغدغة التي تتمركز في وســـطي وتندفع إلى تلك الخلايا التي في جســـمي كلهّ، وأحببت النعاس الذي راح يداعبني، ولم تتوقف هند عن مداعبة جســـدي، كانت تبدأ بأصـــابع قدمي ثم تنزلق فوق ســـاقي، وتســـتقر على ركبتي، وفجأة أوقفتني، ووقفت أمامي، وضـــمتني إلى صـــدرها، حركت وسـطها ليلائم وسـطي، ثم دفعت نفسـها باتجاهي، وراحت تضـمّني بعنف وتلتصـق بي أكثر وأكثر، وإذ بدموعها الساخنة تسقط على كتفي، وأجهشت بصوت حارق، سألتها، ما بها، قالت، اسـكت، فسـكتّ، آلمتني أظافرها التي راحت تحزّ في ظهري، ثم راحت تصرخ بصوت متقطّع ثم صرخة طويلة، وأخرى، وأخرى.. خفت أن تسمع أمّها النائمة، حاولت أن أتملّص من يديها فأعملت أظافرها في ظهري، وعضّـتني بعنف في كتفي، حتى إنّني صـرخت، وقلت، لقد أوجعتني ، راحت تشـتمني، وتشـتم أبي وأمّي بكلمات بذيئة، أمّي التي أرضـــعتها وجعلتها أختي، ثم ألقـت بي فوق الأرض وراحـت تعضّ جســـدي بشراسة، لم أدرِ ماذا أصابها، جلست فوق بطني، وراحت تهرول فوقي، تأتي وتروح كأنها تركب حصـــاناً، إلى أن ارتمت فوقي ملقية يديها فوق كتفي وهدأ كلّ شـيء فيها، لم أتحرّك، لم أتنفّس، إلى أن تنفّســـت هي بشـــكل عميق، نظرت في وجهي، ابتســـمت ونهضـــت، قالت: تعال لأغســـلك، قلت: اغتســـلت، قالت: مرّة ثانية، وضـــعتني أمامها، غسلتني ثم صبت الماء فوق جسدي وطلبت مني أن أنشّف نفسي وأرتدي ثيابي، خرجت فوجدت أمها لاتزال تغطّي وجهها من الذباب، فتحت باب الدار وأطلقت روحي للفضـاء بينما كانت أختي تترنم بأغنية هادئة.

***

بدأت الدائرة تكبر وتتسع، شملت المكان، ورحت أدور عكس اتجاه دورانها، النوافذ العالية فتحت، القناديل تدور، الغرف الصغيرة مفتوحة الأبواب، الأعلام تتداخل ألوانها. لا إله إلا الله وحدها تبرز من البيرق الأخضر، ثم تخرج كلماتها تملأ المكان، لا إله.. إلا.. الله.. تنفصل المقاطع عن حروفها، بياض يملأ المكان، يملأ نفسي، وأنا أذوب في كتلة البياض ثم أتلاشى.. في نقطة واحدة، فتحت عيني، سقطت عليها دائرة صغيرة من الشمس، لا أعرف من أين تسلّلت ورأيت فيها الشيخ جمال كان يرفع نصف رأسه إلى الأعلى ويضرب كفّاً بكفّ على إيقاع الحمد لله. وضعت صورته بين عيني وبدأت أتابع إيقاعه، الحمد لله.. الحمد لله اكتملت نعمه عليّ وعلى مخلوقاته.. على الشجر والطير، على الماء والزهر، على ما يدبّ ويطير، ما يمشي وما يقفز.. الحمد لله.. وصغرت الدائرة حتى وجدتّني أنا.. أنا..

قبّلت يد شيخي وطلبت منه أن يسمح لي بالخلوة مع أول أيام رمضان، فأسبل عينيه وهزّ رأسه. عند ذلك طغت الفرحة في نفسي، استأذنته وخرجت. وقفت بين القبور ولا أدري كيف انهمر الدمع غزيراً من عيني، أخرجت منديلي، وجلست على حافة أحد القبور ورحت أجهش في البكاء، لم أدرِ كم من الوقت استمرّ ذلك، لكنّي عرفت أن روحي قد هدأت وهاهو الشيخ يضع يده على كتفي، قال: الآن بدأت نفسك تصفو، قبّلت يده، قال: لا تنس الله، ضع كلمته في قلبك دائماً، لتكن المقصورة الرابعة لك، قبّلت يده مرة ثانية، وتركني ومشى. ووقفت أتابع طيفه وهو يدخل البناء الملحق بالزاوية.

"ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً.. " الأحزاب 67-68.

المذياع يلقح صوته في فضاء الدار، بصوت غاضب، سألته عن صلاح، قال: لقد هرب، منذ متى؟ لا أعرف؟ أفقت فلم أجده. لماذا هرب؟ قال.. ربّما من ضجيج الإذاعات العربية، ثم ضحك، قال الراديو:

"نسورنا البواسل في سورية والمتحدة والعراق والأردن يسقطون 64 طائرة من طائرات العدو".

قال الأعمى: إنهم يكذبون، لقد سقطت القنيطرة في يد الصهاينة. كيف؟ متى؟ اليوم صباحاً، تشرب الشاي، لم يردّ علي، غسل يديه وبدأ يعدّ الشاي، أنا أعرف القنيطرة، أذكرها كحلم، حجارتها سوداء، وبها سجن كبير، ذهبنا إلى السجن أنا وأحد ما، ربّما أنا وأمّي نمنا ليلة في دمشق، ثم ذهبنا إلى القنيطرة، كان أبي سجيناً فيها، لماذا كان سجيناً؟ لا أدري ربّما قتل رجلاً، أو امرأة، ربّما كان مهرّباً، قد يكون تاجر مخدّرات؟ أو سجيناً سياسياً، كنت صغيراً ولم أسأل أمّي، وقفنا أمام القضبان، أخرجوه وجلس معنا، أمّي طلبت من الضابط ذلك، كانت ذقنه طويلة، اعتقدت أن أبي كان شيخاً، يرتدي ثياباً بيضاء وكوفية، قبّلني، وأعطاني ليرة، بكيت، لا أدري لماذا؟، قال لي، كن رجلاً، كانت أمّي تهمس بصوت قتيل.. أجّرتُ الغرفة الصغيرة، نسكن أنا والولد والبنت في الغرفة الثانية، أجرتها لعسكري، العسكر أفضل لأنهم ينتقلون من بلد إلى آخر، لم يكن متزوجاً، هذا خطئي، لم أكن أعرف ذلك.. نريد أن نأكل.. الأولاد لا يرحمون.. هل هو ضابط أم عسكري؟ لا أعرف.. هل هو ضابط صف؟ لا أعرف.. هل يضع نجوماً من فوق أو من تحت؟ وأشار لها بيديه على الكتفين من الأعلى وعلى الكتف، قالت له: لا أعرف، لم أنظر إليه، يا عائشة، يا عائشة.. إلى ماذا تنظرين؟ كلّ شيء لا أعرف.. لا أعرف.. الحقّ عليك، لماذا تتركنا وتذهب؟، بيدي فعلت ذلك، إنهم لا يرحمون أحداً بدأ يأتي مخموراً ثم صار يشرب في البيت، ويصرخ ويسبّ الحكومة، أخاف أن يمسكوا بي لأنني أسكنه في بيتي، لا يترك أحداً من شره، حتى إنه أستغفر الله يسبّ الله، يسبّ الملك، أي ملك؟ الملك الذي يحكمنا، لا يحكمنا ملك، يحكمنا رئيس، لا أعرف، إنه يسبّ كلّ الناس، والبنت صارت صبيّة، أدخلها إلى البيت من العصر، أخاف عليها منه، يقول كلاماً بذيئاً. في آخر الأمر صار يجلب معه نساء، يسهر معهن حتى الصباح، شرب وغناء ورقص، وأصوات مرتفعة، خبّري عنه، وكيف أخبّر عنه؟ ولكن؟ والله يأخذونني ويتركونه يستولي على البيت. أنت قحبة مثله، كيف تجلبين مثل هذا الشيطان؟ لم أعرف ذلك، كان كالملائكة، قلت يحميني من الناس، أعزب، ويحميك من الناس؟ لك

ثلثا الخاطر، أحلف برأس ابني، لم أكن أعرفه، عموماً هو شـريف ناحيتي، لم ينظر إليّ أبداً، وكنّا نريد أن نأكل، كيف يسـهر إلى الصـباح ويذهب إلى الدوام؟ ربّما ينام عند العسـكر، قد يكون مهمّاً ولا أحد يجرؤ على سـؤاله.. انتبهي لنفسـك وللأولاد، البنت أكثر، وأنت، التفت إليّ كن رجلاً، واحمِ أمّك وأختك، هززت رأسـي عدة مرّات، قبّلني أبي، وعدنا. أدخلوه وراء قضـبان الحديد، وابتعدنا خارج السـجن الملّون بالأحمر القرميدي. دخلنا في حجارة القنيطرة السـوداء، ثم ركبنا السـيارة وعدنا، ومن خلال النافذة كنت أكبر وينمو لي شاربان، أضع سكينة على خصري، أو في جيبي، أفتح باب الدار ثم أهجم على العسكري الذي عندنا، أطرده مع النساء من البيت، وإن لم يخرج، أخرج السكين وأضربه في صدره عدّة طعنات، حتى يموت، هنا وهنا وهناك، ثم يرتمي أرضـاً وتنفجر الدماء من جسـده.. وأصـرخ: مولولاً، فتوقظني أمّي لأنني نمت على دفء الشـمس الآتية من زجاج سـيارة البوسـطة، وكان الشـاي قد أصـبح جاهزاً كما قال عمران، وصبّ لي كأساً وبدأنا نتابع أخبار المذياع:

"وقف إطلاق النارلن يتحقق قبل زوال إسر ائيل".

درج الأعمى سـيجارة حشـيش، وقال لي، هل تشـرب؟ أخذت منه وناولته، أنهيناها، ودرج واحدة أخرى، وأخرى، وهكذا قضـيت اليوم عنده، بدأنا نروي النكات القذرة ونضحك بشـدّة، جاءت الكلبة واسـترخت أمام الباب، الذي لم يكن له باب، ثم وقفنا ورحنا نرقص على أنغام الراديو الذي أدار إبرته، لنسمع أغنية من إذاعة لندن.

.. أنعشـني الماء بنداوته ورخاوته، وأنا أتسـلّل إلى زاوية الشـيخ جمال الدين، رأيت شـيئاً عجيباً! كان الناس محتشـدين، كلهم من الذين يحضـرون الذكر في ميقاته.. كانوا يحملون الأعلام والرايات العاليات، مكتوب على كلّ واحدة اسـم واحد من الصـحابة.. الصـنوج والدفوف.. الناس من الأسـطحة أو على أطراف الشـارع يتفرّجون، وصلت إلى مكان قعدة الشـيخ، نظر في وجهي وبعد أن قبّلت يده، قال: أين كنت؟ تلجلجت ولم أجب، قال: اذهب واحمل راية كبيرة، ذهبت وحملت الراية السوداء، تلك المكتوب عليها بالخط الأبيض الجميل المطرّز، عليّ كرّم الله وجهه، فهمت بعد ذلك أننا سـنتوجه هذا

المساء إلى قرية (دير حافر) القريبة، وسنصل مع الفجر، سنبحر مشياً في نوبة عظيمة تضمّ مريدي طريقة شيخنا، سنصل مع الصباح إلى مقام أبي بكر الهوّاز، حيث تلتقي الطرق الصوفية القادمة من كلّ أنحاء البلاد ومن لبنان ومن العراق ومن تركيا، وهذا اللقاء يكون عادة في الأربعاء الأول من كلّ سنة شرقية "إننا لن نردّ كيد العدوّ إلا إذا هزمناه في عقره".

خرج الشيخ جمال الدين أمامنا وخرجنا وراءه، ونحن نردّد اسم الله. في البداية كانت الأنوار متداخلة، تتداخل راياتنا مع بعضها، وكثيراً من الأحيان كنت لا أرى شيئاً، وألتفّ بالراية، لكنهم كانوا يتدافعون إليّ فيفكّون رأسي عنها، ولمّا خرجنا إلى محيط المدينة، وركبنا طريق باب الله، توقف الحشد لاستراحة قصيرة، أكلنا فيها قليلاً من أرغفة خبز الشعير وبعض الماء المالح وانطلقنا منتظمين، الصنوج النحاسية تدقّ اسم الله وتتجاوب معها الدفوف والمزاهر وأصوات المريدين، واستقبلنا مشرق الشمس بقليل من الحرارة الطازجة، كان النور قد بدأ يشقّ السماء ويلقي ضياءه على أرض الله الواسعة، استيقظت عيناي على خضرة الربيع وعلى النّعاس الذي راح يغلِّفُ رأسي، وعندما مالت الراية السوداء التي أحملها، تلقيّت صفعة هائلة على وجهي، قال لي صوت: أمسك، فأمسكت الراية وتشبّثت بها، وعند مدخل الطريق المؤدية إلى المزار استرحنا، توقفت قافلتنا على يمين الطريق حيث عيدان القمح المليئة تقسم الطريق إلى نصفين، تناولنا بضعة لقيمات من خبز الشعير وشربنا قليلاً من الماء ثم نهضنا وبدأت ألحان السماء تتناغم مع ألحاننا لتكمل أنشودة الطبيعة التي تتراقص بالخضرة من حولنا.

الذين يضربون الشيش كانوا يهيجون حولنا على طرفي الطريق، أو أمام الموكب، الذين يضربون السيوف يمشون بشكل منتظم أمامنا ووراءنا، الذين يضربون النّبوت على يمين ويسار الشيخ، الذين يلعبون بالخناجر من حولنا، لقد اكتمل المشهد، وانطلق يوحّد السماء، كنت أرى بقعاً سوداء أمامنا ووراءنا، وأسمع نداءاتها، ولمّا علا صوتنا، لم أعد أسمع إلا راياتنا، وأصواتنا، بدأت أغسل قلبي من كلّ أوصابه، وبدأ اسم الله يملأ أوردتي، لم تعد المشاهد تتداخل في رؤيتي. هاهي الأرض أمامنا ترتاح العين

لمرآها، الخضـــار الذي يميل إلى الأصــفر الباهت يملأ رئة الأرض، وهاهي الأنغام تتماوج مع تمايل السنابل.. وبقع من الزهور الحمراء تنبت في وسط الحقول كأنها دماء الشهداء من هابيل إلى تموز إلى الحسـين إلى السـهروردي إلى الحلاج، بدأت أحسّ بالفرح الطاغي، يملأ نفســي وروحي، ولم أعد أحسّ بشــيء ســوى رحمة الله التي تملأ صــدى المكان، لتسـتقرّ في قلبي وإذ بي أمشـي على صـراط الحق. كنت أحمل سـيفاً طويلاً من وسـطه، والطريق لا تتسع لأكثر من قدم واحدة، النار كانت على يساري والجنة كانت على يميني، نظرت إلى يســاري فرأيت جهنم وهي تنتظرني، كتل هائلة من النيران، ســيلان من المواد المنصـهرة، تسـيل من أعالي الجبال المحترقة، أنهار من أجســاد البشــر تجري كلها إلى منحدر يتهيّل منه دخان أسود ملبّد بالغيوم ورائحة الأجساد، ملايين البشـر يقفون على أعالي الجبال، وتقذف بهم الملائكة إلى مســتقر الأرض، واد من النيران والبشــر، الذين ينصــهرون قطعة قطعة، يرفعون أيديهم وهم يطلبون الرحمة، لكنهم يذوبون كالزبدة في النار، تعرّقت كثيراً، كان الماء يتصبّب من كلّ أطرافي، لم أبدأ مسيري بعد، نظرت إلى اليمين، كانت الجنة، أو هكذا خيِّل إليّ، بَرَدَ الماء على جســدي، وارتاحت نفســي وأنا أشـاهد المروج الخضـراء كالريف الإنكليزي، تتخللّها أنهار بلون الفضــة، الأطيار تداعب الاشـجار وتقف على أغصــانها، والزهور تسـتقطب الفراشــات والحملان الملونة ترعى فوق المرج الأخضـر، بطّ ملوّن، يطير في وسـط المشـهد، المؤمنون يستلقون على الأرائك، هم وأ زواجهم فكهون، النهار يملأ المشهد، لا ليل في الجنة، إذاً سأبدأ مشواري الطويل.. الحوريات يخدّمن المكان، ثيابهن من رقائق الورد، ملوّنات بألوان فاتحة.. بياضــهن فاضح، بعضـهن سـمراوات، بعضـهن زنجيات، تمنّيت أن أسـقط بينهن، أسـتلقي على المرج الأخضــر ويلتففن حولي، كلّ واحدة منهن تحكي لي حكاية، قصــة من ألف ليلة وليلة. جرّبت أن أشــرب من خمرة الجنة، كانت طيّبة المذاق، لم أذق في حياتي أطيب منها، تفتح الرأس ومسـام الجلد، جرّبت كأسـاً ثانية وثالثة، لم تسـكرني، لكنني شـعرت بنشــوة طاغية التهبت لحمة أذنيّ وشــعرت أنني بحاجة إلى امرأة، أية امرأة تكون قربي الآن، هتفْتُ إلى واحدة تقف على غصــن شـجرة، كانت ترتدي رقائق الموف، جاءتني بطرفة عين، تبتســم، مدّدتها على طرف النهر، قبّلتها من فمها، ثم من وجنتيها، وأطراف

صدرها، كانت تبتسم، وتغمض عينيها، سمّتني «صالح» يظهر أن الأسماء كلها واحدة في الجنة، صالح للرجل، وصالحة للمرأة.. ضمّتني إلى صدرها، مددت يدي إليها فلم أجد شيئاً، قالت: هكذا نحن صبايا الجنة لا شيء فينا من دنس الأرض، قلت، وأنا! وإذ بها تداعبني فأصيب نشوة لم أشعر بها كلّ عمري.. ثم طارت عني.. جاءت زوجتي، رأتها وهي تغادرني، أشارت بيدها إليها مودّعة، ابتسمن لبعضهن، لا أحقاد، لا كراهية، لا غيرة هنا، رأيتها قادمة، فخلعت ثيابي وألقيت نفسي في الماء البارد أبغي طهارة. قالت منادية، الكل هنا طاهر، هل تكون الجنة نصيبي؟ هل يمكن أن أحقّق حلمي وأنا واقف على الصراط المستقيم؟ قد أقع بعد خطوة، بعد خمس، لا أدري وقد لا أقع، سأبدأ الخطوة الأولى، وهاهي الثانية، يجب أن أنظر إلى اليمين وإلى اليسار، هناك إلى الأفق، حيث تلتمع نقطة الشمس، وضجّت في رأسي الصنوج والدفوف، فتحت عيني على مشهد، لم أرَ مثله في حياتي. ربّما أنا في يوم الحشر؛ أصحاب الطرق الصوفية وقد جاؤوا من كلّ فج عميق رفعوا راياتهم وراحوا يهتفون باسم الله، وبوحدانيته، الرايات الملّونة تخفق في الفضاء؛ نساء وأولاد يتفرجون على طرفي الطريق، شكّلت دوائر من بعض الفرق، تجمهر الناس حولهم، راحوا يضربون أنفسهم بالشيش، وبالسيف والخنجر، في الوجنتين، وفي البطن، مدّ واحد يده إلى بطن آخر وأخرج ما فيها من طعام. واحد آخر ضرب رأساً بالسيف فتدحرج أمام الجميع، ثم مسح عليه بيده، وحمله وأعاده إلى مكانه. الناس الآخرون مشغولون بتناول الأطعمة من فوق العربات، باعة اللحم المشوي، باعة صندويش الفلافل لايتوقفون، الذباب يعجّ فوق الأطعمة، الغبار القادم مع قدوم كلّ قافلة يلقي نعاسه فوق الناس والبدو والدواب، وبائع العجة وباقي عباد الله، وأنا مازلت أضع صورة شيخي بين عيني، وفي قلبي كلمة الله، تابعنا طريقنا إلى مدخل الجامع، حيث اشتد الزحام، كانت الشرطة تنظم الداخلين وتحاول أن تطرد الذين لا يخرجون، نساء وأولاد وعجزة وفرق وأعلام وهتافات، تعلو عند المدخل في باحة المسجد، المزار في الزاوية الجنوبية، استطعنا أن ندخل بصعوبة، وصلنا إلى غرفة المزار كان الشيخ "الهوّاز" مسجّى في ضريحه، تعلوه الرايات الخضراء المطرّزة بالآيات القرآنية وباسم الله، الغرفة مزينة بالدفوف والصنوج والأعلام، كان قاطع طريق في هذه

المنطقة، وقد تاب الله عليه، وصــارت لــــه كرامات، ما هي هذه الكرامات؟ كان الناس يهتفون باسـم الله، ويتمسّـحون بحجارة الضـريح، منهم من يتمسّـح بالجدار، بعضـهم يمسح يده أو وجهه، أو عينه أو جسده بالزيت، آخر يصّب قليلاً من الزيت في الطاسة الموجودة عند رأسه، النساء المضغوطات يربطن المناديل للرأس الحجري، والأصوات تتداخل، والأطفال من الشبّاك المحدّد يصرخون، بعضهم يبكي ، الآباء يحملون أطفالاً مرضـى ويحاولون إدخالهم إلى غرفة الضـريح، صــاح الشـيخ الأكبر، الله، كَبّر بعدها شـيخنا، كان الصـوت عظيماً ورأيت القبر ينشـق ويخرج منه رجل، بيده مزهر، يرتدي الثياب الخضـراء، معمّم بالأخضـر والأبيض، طاف على جميع الموجودين، مسـح على رؤوسـهم ووجوههم، وأجسـادهم ثم حلَّق في المكان، كان كفراشـة كبيرة، لم يتوقّف عن الهتاف، وظلّ يطير بنا، خرج من النافذة المحدّدة، وتبعه الخلق جميعاً، وظلّ يطير حتى وصـل إلى السـهل الواسـع الجنوبي، احتشـد الناس حوله، كانوا يرمون أنفسـهم إليه، يمدّون أيديهم وهم يستغيثون باسـمه أن يشـفع لهم عند الله، أن يشـفيهم، أن يمدّ لهم يد المعونة، أن ينصرهم، بدأت السيوف تتضارب، والخناجر تدخل في البطون، ظهرت المعجزات من جميع الشيوخ، صاروا يظهرون كراماتهم، ورحت وقد دبَّ بي الهياج أتمنى أن يبقر بطني واحد منهم، أن يقطع وسـطي، أو رأسـي بسـيفه ثم صـار الزبد يخرج من فمي وارتميت أرضـاً. ورأيت حشـود الملائكة وهي تحمل السـيوف وتطير باتجاه الجنوب، تلاحق فلول العدو المهزومة "لقد غسلنا العار".

***

كان اليوم عـاديّاً، ككل الأيام التي درج عليها عدنان الفلاح، فقد اعتكف في الزاوية ولم يعد يخرج منها، إلا لضرورات قصوى، ينفّذ تعاليم شيخه بدقّة، يتلو الأذكار ويردّد

لا إله إلا الله، يفنى في كلّ طرف فيها، ثم يصلّي على حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يذوب حبّاً فيه.

ضحوة ذلك اليوم جاء الشيخ وابنته، أسرع عدنان الفلاح وأخذ أحذيتهما ثم نظّفها خارجاً. الفتاة قعدت مكانها تخطّ آي الذكر الحكيم بخط الذهب، والشيخ أخذ يد عدنان الفلاح بعد أن طلب إليه أن يتوضّأ، وراح يقرأ ويمسح له على قفا كفّ يده ثم قرأ على صدره وظهره، صلّى الاثنان ركعتين، وأبلغه أمراً، قال يجب على عدنان أن يدخل في خلوة السبعة المحرّم ابتداء من غدٍ، أي من الحادي عشر من شهر المحرم، اليوم الذي يلي عاشوراء.

انقضى ذلك اليوم والشيخ يتلو آيات القرآن، بينما عدنان يوحّد الله، ويصلّي على نبيّه، والفتاة الصغيرة تزيّن الحروف بماء الذهب، انتهى اليوم وانتهت الصلوات، وبقي الفلاح وحيداً، كان يعرف الخلوة، التي سيختلي بها، يعرف واجباته، فقد أفهمه الشيخ أكثر من مرّة، ما عليه أن يفعل، كرّر ذلك لنفسه، التطهر، الصوم سبعة أيام على وضوء دائم، لا ينام فيها مع امرأة، حلالاً أو حراماً، وهو لا يملك هنا حلالاً ولا حراماً، ويمتنع عن أكل ذي روح، وأن يحفظ لسانه عن التكلّم بكلام الدنيا، وأن يرتبط قلبه في الله بسائر أوقاته وفي كلّ خلوته، وألاّ ينسى همّة المرشد، الشيخ؛ وعلى ذلك فقد نهض مع الفجر، ذهب إلى البئر الذي بين القبور، انتشل بعض الماء، صبّه على نفسه على نيّة الطهارة، ثم توضّأ، وصلّى الفجر، ودخل مقصورته.

كيس من الخيش، رغيف خبز شعير، وكوز ماء مالح، وقلب نقي، ولسان يتهدّج بذكر الله ورسوله. هذه كانت عدّة الفلاح في خلوته. بدأ بقراءة الفاتحة ثم أهداها إلى سيّد المرسلين، وإلى أصحاب الطريقة الرفاعية المباركة ولحضرة شيخه ولإخوانه المسلمين أجمعين، ثم صلى صلاة الصبح وجلس على ركبتيه يردّد "يا وهّاب" يا وهّاب،

مئة مرّة بعد كلّ صلاة، هكذا أمره شيخه، وبعدها أيضاً "اللهم صلِّ على سيّدنا محمّد النبي الأمّي، الطاهر الزكي وعلى آله وصحبه وسلّم"

جاءت رائحة الخشب القديم واندغمت مع صورة القناديل ثم تجاوبت مع صمت المكان، خفقان القلب الدافئ والهادئ والمتتابع مع كلمة «يا وهّاب» حركة الأصابع وهي تمرّ على حبّات السبحة، وتتابع اسمه المعطي، جاءت الصلاة الثانية ثم الثالثة، ثم انقضى النهار، جاء الليل، الخشوع شمل كلّ شيء، لا صوت، لا رائحة، لا لون، كلّ يخشع في كلمة الله، وعدنان الفلاح يجاسد كيس الخيش، لم يهتم بالطعام، لم يشرب ماء، نسي كلّ شيء، نسي نفسه، واستغرق كليّاً في كلمة الله، وضع الكلمة في قلبه وأطبق عليها، سالت الدموع من عينيه، الدموع شكّلت نهراً، النهر صار بحراً، والبحر صار مخيفاً، والكيس صار زورقاً، وعدنان ركب الزورق وسار بعيداً في رحلة لا يدري أين تنتهي. كان أبوه يهدي الفاتحة إلى النبي الأمّي، وإلى آل بيته وجميع المسلمين، قبل أن ينهيها بآمين حاول أن يدخل في تفاصيل وجه أبيه، لم يستطع، مجرّد كفين مفتوحتين ووجه حيادي لا تعابير فيه، لا وجه، لا أنف، لا عينين، هل هذا هو أبوه؟، كان يسير معه أمام المركب، ربّما يدلّه على الطريق، ولكن أيّ طريق هذه؟ إنه يترك المركب تسير على هواها.. ربّما يصل تلك الجزيرة، ربّما تلك.. ربّما يجد أحداً عليها، لا يعرف كيف يحرّك الزورق، يصل إلى الجزيرة، ينزل من مركبه، يمشي على رمل الجزيرة، صورة الرجل الذي دون ملامح تسير أمامه، على الجزيرة يستريح قليلاً، تغيب صورة الوجه.. الأب يستلقي لينام قليلاً، يرى أطياراً تطوف حوله، الأطيار لها أجساد نورانية، يسمعها تسبّح معه، يا وهّاب، يا وهّاب، يردّد معها، ثم يتساءل، أين هو؟ لا أحد يجيبه، تشتعل ذاكرته ويومض البرق، الأطيار محمّلة على محفّة وتطوف به في الجزيرة. أطيار أخرى تغنّي له، تمرّ قافلته ببعض أشجار الأناناس، يشمّ رائحة طيبة، يتذكر المرأة إنها رائحة المرأة التي لا تنسى أبداً. تحطّ به المحفّة أمام إحدى الأشجار، تَنْشقُّ الشجرة، وتنفتح كجرح، وتخرج المرأة، عارية تماماً، شقراء، جسدها يميل إلى البرونز، يغضّ بصره، تأتي إليه، فتلفّه، ثم تريح رأسه على ساقيها، وتداعب شعره، هل رأى أحد هذه المرأة قبلاً؟ لا يتذكر، ربّما سيراها في المستقبل؟ سحبته المرأة إلى شاطئ البحر، تدافعا

قليلاً ثم انزلقا إلى البحر، ظلاّ هكذا زمناً، يغمرها بالماء، وتغمره، تضحك وتجرّه إليها، تهتف إليه وتناديه، وهو يغمض وجهه بكفه، جرّته إلى مغارة في قعر البحر، لم يكن يجيد السباحة كثيراً، لكنها أخذته من يده، وأدخلته المغارة البحريّة، وهناك وجد قوماً يتحلقون حول رجل لا تبدو ملامحه، ربّما كان هو الأب الذي رافقه في سفره، أشارت صورة الأب: أن يحضر أمامها، الفتاة الشقراء، أحضرته، طلب إليه أن يسجد أمامه، فما سجد، قال: أنا لا أسجد إلا لعزة الله، وجلاله، طلبت صورة الأب أن يقتل، الفتاة خافت عليه، فغادرت به المغارة، رحلا سوية وبسرعة تبعهما جيش لا حدود له من الأشياء الهلامية، وصلا الشاطئ، استراحا قليلاً، وعندما نهض وجد صورة الأب مرسومة على الشاطئ الرملي، أخذ حجراً وضرب بها الصورة، ثم سمع صوتاً هائلاً يقول: لقد قتلتني أيها الولد العاق.

كنت أيضاً تريد قتلي، ثم تأبّط يد المرأة، ودخلا الغابة الصغيرة، وتحت ضوء القمر مدّت الشقراء عريها، وراح عدنان الفلاح يلملم وجهه فوقها، يكتب بإصبعه على جسدها قصة حياته، التي لم تنتهِ، ولا يعرف لها بداية ولا نهاية، لا يزال يبحث عن قصة لأبيه ينسجها ويرتّبها بعناية من فقد ضالته. ربّما ولد هناك فوق هذه الجزيرة، وإلا فما الذي جاء به إلى هنا، قد تكون هذه أمّه، وهو أبوه ذاته، قد يكون واقعها كما تفعل الآن وحبلت به تسعة أشهر، ثم ولدته هنا، وقد تكون هذه الأطيار حملته بهذه المحفة، وتنقلت به في بلاد الله، ثم وصلت به إلى هذه المدينة، ورمته. إنه يعرف أنه ليس عدنان الفلاح ويعرف أنه يحمل اسماً آخر، لا يدري ما هو، هل يصدق هذه الحكاية؟ لماذا لا يصدقها؟ وهنا على البحر على الشاطئ، ووصلت المياه إليهما.. ظلاًّ متماسكين، والماء فوقهما، انحسر الماء وظلاّ متشبثين، غطَّاهما الزبد الأبيض وظلا متماسكين، لا أحد يدري كم ظلاًّ على هذه الحالة، لكنَّه يعرف أنه يجب أن ينفصل عن عدنان الفلاح أن يعتق جسده منه، كان يريد أن يشرب ماء، حاول ذلك فلم يفلح، قوّته ميتة، لكنه راح يردّد يا وهّاب، ويقرأ الفاتحة، كان يقرفص فوق كيس الخيش، ويردّد، والليل، ربّما انتصف، ربّما أكثر قد يكون راح نهار أو اثنين، وظلّ هكذا يردِّد اسم الله الذي في قلبه، لكنَّه لم يستطع أن يتمّ معه مرَّة، يا وهّاب، كان يشرد كلّ مرّة، وينسى ما كان قد بدأه،

كان يغمض عينيه ثم ينشــقُّ الجدار، وتمتد يده إليه، يقبّلها فتسـحبه تلك اليد، وتجلســه في قصــور من نور، الحوريات يشــرقن على الدوام فيها، ويجلس فيها وحوله غلمان مولَّدون، وعندما يجوع يصــفّق بيديه فتنزل الأوزّة من الســماء، تكون طائرة فتهبط أمامه، وتتقدم إليه، فتذبح وينتف ريشــها، ثم تنظف، وتتبّل وتشــوى، فتكون أمامه، يأكلها ويشرب كوزاً من خمر الجنة بجانبها، ثم يجمع عظامها ويلقي بها فتعود إلى الســماء وهي تطير، ثم ترقص الحوريات بين يديه، والغلمان يســعون بين يديه، يلبّون جميع ما يريد، يظلّ هكذا الليل كلّه، وقد تعجبه حورية فينام معها، تفرش له من أوراق الورد وتغطّيه بنورها، لم يكن يفعل شــيئاً، يرضــى منها أن تعدّ له كلمة يا وهّاب فقط، لكنه أبداً لم يتمّ الرقم إلى المئة، كذلك خرج من خلوته، ولم يعرف كم يوماً قضى منها، كان طعامه كما هو، وكذلك ماؤه، وقف بين يدي الشيخ، الذي قال له: إنك لن تســتطيع معي صــبراً، فبكى بين يديه، وقبّل يديه ورجليه، قال الشــيخ: إنّ عليه أن يصــبر فوافق أن يفعل مثلما يفعل الشــيخ، قام الشــيخ وخلع كل ثيابه، صــار عارياً، عورته لم تكن ظاهرة، كانت كتلة ســوداء تغطيها، ثم طلب إليه أن يفعل مثله، أبلغه بأنهما سيمشيان في السوق، هكذا، تلجلج في البداية، لكنه فعل مثله، وانطلق الشيخ أمامه عارياً في السوق فتبعه، ظلّ يتبعه، يمشي وراءه إلى أن جابا كلّ أطراف السوق.

في البداية، وقف الناس مبهوتين، بما يرونه، حاول بعضــهم أن يأخذه أو يغطّيه، لكنه رفض، وأصرّ على المشي عارياً، ومع إصراره راح الناس يلقون إليه بكل ما لذّ وطاب من المواد التالفة التي لا يحتاجون إليها، ثم بدأ الصــفير والصــراخ، وكان لا يبالي بأي شيء، بل يمضي وراء شيخه، صبّوا عليه الماء، والأقذار وكل ما هو فاسد لديهم، لكنه ظلّ يمشي كأنما هو في مسيرة أمل ولن يتوقف حتى تتحقّق كلّ أهدافه، يا عباد الله، إن الله يمتحنني، وهاهو شــيخي أمامي، خرج من الأســواق وهو يهتف وتبعه أولاد الســوق يهتفون ويهزجون، وهو يرفع يديه إلى الأعلى، وســار حول القلعة عدّة مرات، والأولاد يهتفون وراءه، ثم صعد وراء شيخه إلى القلعة وصلا إلى أعلى نقطة فيها، وقف الشيخ، ثم فرد يديه وانطلق إلى السماء يطير، كذلك فعل مثله، وأفرد يديه، وقذف نفسه من

أعلاها فنزل إلى أسفلها يتدحرج بينما كان الأولاد وحشد كامل من البشر ينتظرونه عند الخندق، حملوه فوق أيديهم وطاروا به إلى أقرب مشفى.

في هذه الأثناء كان بدران يمرّ بجانب أحد البساتين، جلس يستريح على طرف ساقية، أعجبه البستان لكثرة ثماره وأشجاره الضخمة، وحسن رعايته. جاءه البستاني وجلس معه. سأل البستاني عن صاحب البستان وأخبره بأنه يريد شراءه، البستاني عرّفه بنفسه وقال: إنه لا يبيعه إلا بقصر في الجنة، ولكن من أنا حتى تطلب منّي هذا الطلب؟ شحب وجه بدران وتغيّر لونه، ثم تبّدلت الصفرة بحمرة، اطلب ما تريد في هذه الدنيا أعطيكه، لكن الرجل أصرّ على القصر في الجنة، وبعد أخذ ورد وافق بدران على طلبه، الرجل طلب منه أن يكون ذلك مكتوباً، وبخط بدران، فأخرج بدران ورقة وقلماً وخط فيها.

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى وسأله عن اسمه.. فكان عبد القادر البستاني السوادي من العبد الفقير بدران بن بدران ضامناً له على كرم الله تعالى قصراً في الجنة، تحفّه أربعة حدود، الأول إلى جنة عدن، الثاني إلى جنة المأوى، والثالث إلى جنة الخلد والرابع إلى جنة الفردوس بجميع حوره وولدانه وفرشه وأسرته وأنهاره وأشجاره وأطياره وظلاله، عرض بستانه في الدنيا، والله شاهد له وكفيل» ثم طوى الكتاب وسلّمه إيّاه، فأخذه البستاني ومضى إلى أولاده وهم على الدالية يسقون ذرة كانوا زرعوها، فقال لهم انزلوا فقد بعت البستان إلى سيدي بدران، فقالوا: كيف تبيعه، ونحن محتاجون إليه؟ فعرّفهم بما جرى من حديث القصر وأن خطّه في يده بذلك، فأبوا أن يرضوا إلا أن يجعلهم شركاء فيه، فقال: انزلوا فهو لي ولكم والله على ما نقول وكيل فرضوا ونزلوا وأخذ بدران البستان وعيّن عليه بستانياً آخر يدير شؤونه، وبعد مدّة يسيرة توفّي الشيخ البستاني؛ وكان قد أوصى أولاده أن يجعلوا ذلك الكتاب في كفنه، ففعلوا ودفنوه، فلمّا أصبحوا من الغد وجدوا على قبره مكتوباً:

"قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً"

في الليالي المقمرة كان بدران يقرأ ما يتيسّر من كتاب الله الكريم، ثم يجلس تحت ضوء القمر، ويخرج سبحته، ويبدأ بذكر الله كثيراً، كان لا يتوقف حتى تنهمر من عينه

اليمنى الدموع الغزيرة، عند ذلك يمسح وجهه بيديه، وينظر إلى السماء ويطلب الرحمة، والمغفرة من الله، وغالباً ما كان يلتقط ضوء القمر عند جدار الزاوية الشرقي، حيث يكون على أشده قوة وضياءً.

اليوم وما كاد يمسح وجهه بيديه حتى سمع صوتاً ينشج بكاءً حقيقياً، اعتقد أنه نفسه، وتأكد من سلامة عينيه، ثم أدار رأسه في المكان وعلى طرف كومة حجارة وجد كومة تنشج، اقترب منها، فإذا هي رجل في مقتبل العمر، وماذا تفعل هنا يا رجل؟ والرجل أجاب بأنه يذكر الله في ضوء القمر وذلك بعد أن أخذ الأمان، ولمّا كان جائعاً فقد أدخله بدران إلى الزاوية، وقلى لـه البيض ووضع اللبن والخبز والمربّى والجبن والخيار، أكل الرجل ذلك، ثم حمد الله وشكره، وعند ذلك سأله بدران عن اسمه فقال: إنه زهير البابي، قالها بخضوع وبعد أن أحنى رقبته، ثم تلاها بعبدك المطيع الخادم الأمين الذي لا ينسى لك فضلاً والذي يتقوّت من فضل خيرك. ورحمة بهذه الكلمات وبعدها فقد قرّر بدران أن ينام، زهير في الزاوية علّه ينال به درجة في علّيين وعند الصباح، لمّا نهض بدران يريد الوضوء والصلاة وجد زهيراً أمامه وقد تبعه إلى الموضأ، يمسك بيده حذاء الوضوء والمنشفة. صلّى وراءه ثم وقف خلفه إلى اليمين قليلاً كلّ النهار، وعند المغرب، أراح نفسه بين يدي بدران وراح يقدّم لـه أمدح الحديث. أغفى بدران وقال لجميع الجالسين بين يديه، إن هاتفاً قد جاءه، يقول له أن يعيّن زهيراً برتبة مأمور الشؤون الدينية في حارة الزاوية، واعتبر أن كلّ ما لـه علاقة بالأديان، يكون الشيخ زهير، كما سمّاه مسؤولاً عنه وكذلك عن تعيين أئمة المساجد والمؤذنين وكل ما لـه علاقة بهم وكذلك الأموال التي ترد إلى خزينة بيت المال.. وما ينفق منها، والأملاك العائدة لأوقافها، وفي اليوم التالي حصل الشيخ زهير الذي أطلق لحيته على غرفة وطاولة وبعض المقاعد، وعلّق لافتة تقول: إنه مأمور الشؤون الدينية، وبدأ الناس يتوافدون عليه للتهنئة، يحملون الهدايا النقدية، أو يرسلون الأكباش الملوّنة بالورود ومنذ اليوم الأول بدأ عمله، وكان ذلك بعد أن انتهى من استقبال المدعوّين، فقد خرج من مكانه وطاف حارة الزاوية وعاينها بيتاً بيتاً ثم جاب الأحياء المجاورة والأراضي والبساتين، والكروم والعرصات، واختلى مع بدران آخر الليل، وفي اليوم التالي

أرسل وراء عدد من الأشخاص لنقل اثنين فقط وطلب منهما أن يبيعا بيتهما إلى بدران بقصور الجنة، تهلّل وجه الرجلين فرحاً، وأخذا صكّاً بذلك لأن معجزة البستاني كانت لا تزال ساخنة، ولم ينقضِ شهر واحد إلا وكانت كثير من البيوت الفاخرة والبساتين الطيّبة قد استبدلت بقصور وحوريات وغلمان في الجنة والحقُّ يقال فقد كان الرجل أميناً، ينفق على الأسر المستورة والأيتام والأرامل بحيث أن يده اليسرى كانت لا تعرف ما تنفق اليد اليمنى، ولا ما يدخلها من أموال، وعلى ذلك فقد حصرت أموال الزكاة بزهير وكذلك أموال الأوقاف، وطرأ تحسّن ملحوظ على أوضاع أسرته التي تواردت فرداً وراء آخر، وأسرة وراء أخرى، وأسكنهم خارج الزاوية، حيث بنى لهم بيوتاً ومزارع، اعتبرت منتجعاً لفقراء المسلمين وأسرهم، وأخذ أقرباؤه بطاقات خاصة وسيارات لا تتوقف لأحد، ويقال إنهم كانوا مسلحين بأسلحة أوتوماتيكية، ولكن ذلك لم يثبت ببرهان، وكانت الأقاويل تؤكد ذلك، ولكن بدران اعتبرها لحماية المكتسبات الدينية التي تحقّقت في عهد زهير.

مضى على ذلك زمن واستطاع زهير أن يجمع حوله المريدين، الذين أطالوا لحاهم وشكّلوا فرقاً خاصة غايتها حماية الدين ومكتسباته، وكان يعهد، أي زهير، إلى بعض الشعراء من مدرسي اللغة العربية فينظمون له بعض الأبيات لا تتجاوز الخمسة، ويقف بين يدي بدران، وقد طوى رأسه إلى رقبته ليلقي هذه الأبيات بين يديه، وينال مدرّس اللغة العربية خروفاً أو ما يقابل ثمنه، وبعدها يجلس زهاء الساعة، يلقي المدائح بين يدي بدران الذي يغمض عينيه، ويسوح في سماوات وبلاد واسعة، يجلس على كرسي من ذهب، يطوف به الأرض والسماء وعلى رأسه تاج مكلّل بالجواهر واليواقيت والزمرد والأحجار الكريمة الأخرى، يدور في فلك واحد وهو يغمض عينيه، ويبكي زهير بين يديه ويحلّق عالياً عالياً إلى أن تأخذه غفلة من نوم.

هل أخطأ إبليس في ذلك؟ ربّما، ولكن الناس جميعاً كانوا يعرفون أن ذلك مستحيلٌ، لقد جهّز الرجل قافلة للحج، جمع وراءه خلقاً كثيراً من مريديه، ووصل إلى الدّيار المقدسة، وطاف وابتهل إلى الله، وأنهى مناسك الحج، وعندما أراد أن يرجم إبليس جمع الحجرات وأمسك بواحدة ورماها.. وعندها خرج إبليس من بين ركام الحجر

وقال له بابتسامة عذبة: حتى أنت يا زهير. ولمّا حاول أن يرمي الثانية لم يستطع، أمسك يده التي تجمدت وصرخ صرخة حارقة وعاد.

شرح ذلك لمريديه، قال: إن كومة الحجر انشقت وخرج منها عمود من نار، ظهر فيها صوت يقول: أنا إبليس، لقد أحرقتني يا زهير، لأحرقنّك قبل أن أنتهي، ضرب يدي التي رميت بها، وفجأة خرج نور أخضر حال بينه وبيني، وأعاده إلى حجارته. فغر المريدون أفواههم، وهزوا رؤوسهم إعجاباً، وعندما عادوا فتح زهير، أمتعته فخرج إليه إبليس صغير، ينطّ أمامه، ضحك زهير، وضرب كفاً بكفّ وهو يرى المشهد الذي أمامه، كان إبليس الصغير يجلس أمامه على الكرسي ويلفّ رجلاً فوق رجل، فاستسلم إليه وراح يهديه إلى الدين الحنيف، ويقنعه بقصر في الجنة، إن هو أسلم ونطق بالشهادتين، بينما كان إبليس الصغير يطمئنه بحصوله على قصر صغير في سقر، ولما جنّ الليل، هبط إبليس الصغير من علّيته التي كان رابضاً فيها، ووقف على حافة سرير زهير، رآه وهو يستعيد أحلامه في بناء البساتين والقصور، فمدّ يده وشقّ صدره، أخرج القلب، ثم استقر فيه، ونام هو الآخر مرتاحاً.

نهض زهير لصلاة الصبح، وعندما أراد وضوءاً، غسل يديه إلى الرسغين ثم غسلهما إلى المرفقين، والرجلين إلى الكاحلين، والوجه ثلاث مرات، ومسح الرقبة، ثم الرأس، وهنا اختلج شيء في صدره، وارتفع وجيب الدم في صدره، يا عباد الله، ماذا جرى؟ ولم يحصل شيء، ولكن ما هذا؟ لقد نبت له قرنان، صغيران، صغيران جداً بحجم إبهام طفل صغير ولد توّاً، وضع عمامة على رأسه ولم يكمل ما بدأ به، بل خرج يمشي إلى الزاوية.

***

- **بيروت.. يا بيروت:**

اكتمل بناء المدرسة الجديد، فقد تفرّعت عن حي المزار زواريب عديدة وشوارع وحارات صار فيها المقاهي والخانات والحمّامات والبيمارستانات، ولم يسمح بدران

بدخول الكهرباء، ولا حتى وسائل التطور الحديث التي كان يسمّيها بالبدع، كذلك قطع أيّ اتصال له مع النساء، وأصبح زهير الملازم الوحيد له، في حلّه وترحاله وفي جلسته وتجواله، يجلس بين يديه هادئاً مستكيناً وهو يلقي رأسه على كتفه، وينشد بعض الأبيات عليه، بينما بدران يفحص عينيه ويحلّق بعيداً، وقد يشاهدان أحياناً وهما يتجوّلان في بساتينهما أو رياضهما، التي كانا يسميانها (متاع الغرور).

لا أحد يدري كيف عرفت أميرة طريق الأعمى، ربّما كان عن طريق الرائحة، فبعد أن افتقدته جلست أياماً وشهوراً لا تعرف ماذا تفعل فعبد الجليل متفانٍ في عمله، يأتي عند المساء، يأكل وينام كالقتيل، وهي تتزين وتتبرّج وتنتظر أن يقرع الباب، تذهب مع قوّاد إلى بيت، حيث ينتظرها مجموعة من الشبان، تشرب معهم قليلاً وتأكل ثم يتداولونها واحداً بعد الآخر، وفي إحدى المرّات اصطدم الشبان مع بعضهم، ثم راحوا يتهاوشون بالسكاكين، جرحوا بعضهم، ونالها جراء ذلك ضربة سكين في جفنها، كادت أن تصيب عينها لولا لطف الله وعنايته، ومنذ ذلك اليوم راحت تخفّف من عملها، وظلّ جفنها مرتخياً، لكنها ظلّت تتذكر عمران الأعمى وظلّت رائحة جسده تفغم أنفها.

تسلّلت الرائحة في إحدى المرّات إلى أنفها فنهضت وألقت شيئاً على رأسها وجسدها وتبعت الرائحة، ظلّت تسير وتسير حتى وصلت إلى البيت الذي بناه الأعمى من حجارة الطريق ولم ينتبه إليها أحد لأن عمران كان قد شرب زجاجة كاملة من العرق، مع توابعها من سجائر الحشيش، كان مرمياً في أرض الدار، وقد فتح يديه ورجليه ونام على ظهره، همست له فما ردّ جواباً، حاورته، ناغته، داعبت شعر صدره، ثم راحت تقبّله بحنان ودفء وغنج وتحادثه، فانتشر كلّ شيء فيه، ما عدا دماغه، قامت وجلست عليه وراحت تنهض ثم تجلس، إلى أن جاءها النحيب، فبكت كما لم تبكِ النساء من قبل، وعندما جاءتها الفرحة العظيمة، تابعت بين ضحك وبكاء إلى أن ارتمت فوق جسده منهدّة القوى.. وهكذا نامت حتى صحوة اليوم القادم حيث أعلن عن محاولة لاغتيال زهير بينما كان ذاهباً إلى الزاوية؛ فقد هجم عليه شابان ملثّمان وضرباه بسكين حادة، ولكن الضربة لم تكن قاتلة، فقد جاءت في أعلى الكتف، ولم تصب القلب بأي خطر، فقط أفزعت إبليس الصغير فخرج من القلب، واختبأ داخل الجبّة وقد وُزع

منشـــور ذلك اليوم يعلن عن تأســيس منظمة متطرّفة تدعو إلى إلغاء الامتيازات التي يتمتَّع بها زهير، وتريد العودة بالدين الحنيف إلى أصــوله الأولى، وأن ينقّى هذا الدين، كما جاء في البيان، من كلّ بدعة ليتطهرَ ويعود إلى نقائه وصــفائه، وقد وقع المنشـــور باســم: جماعة الفداء، تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وبعد أن بدأ زهير يتماثل للشــفاء، زاره بدران وعقد معه اجتماعاً مغلقاً تمّ فيه وضع الأسس العامة للسياسـة المستقبلية لحارة المزار وما يجاورها من أصـقاع، فقد تقرّر تأسـيس جهاز "العيون السـاهرة" وترك أمر تعيين رئيســه لزهير، كما تقرّر القبض على كلّ من له يد بمنظمة جماعة الفداء، وتقديمهم إلى محاكمة سريعة لإدانتهم.

أخرج زهير إبليسـه الصغير من عبّه، ووكّله بإدارة أمن العيون السـاهرة فارتدى ثوباً بشـرياً، وأصبح رجلاً وسـيماً، كما اتخذ مقراً لقيادته وبدأ عمله وخلال السـاعات الأولى كان ثلث أعضاء الجماعة في السجن الذي بني حديثاً أو لنقل: غرفة التوقيف.

كان الواحد من أعضـــاء الجماعة يبســط بســطاً ثم يقف منهاراً بين يدي إبليس الصغير الذي صار اسمه غسان العاشوري، الذي ضخّم نفسـه وكبّر شـاربيه ليخاف منه كلّ من يقابله.

عند المســاء عقد اجتماع ســرّي ثلاثي، أعطاهم فيه مدير العيون الســاهرة ثلث أســماء القيادة، وفاجأهم بأن قائد الجناح العســكري هو ابن بدران، ولكن هذه الحقيقة لم تؤكد حتى الآن.

لم يصعق بدران في أول الأمر، لكنه أصيب بالإحباط الكامل، انتظر أكثر من خمس دقائق ليعود إلى ما كان عليه ســابقاً وقال جملة واحدة: إن من أولادكم أعداء لكم، ثم أخذ أســماء الجماعة وغادر المكان، هكذا إذاً، لقد تدّرب في الجوار على أعمال القتال وعاد لينتقم منّي فلتبدأ المعركة.

وبدأت المعركة فعلاً، وخلال أيام قلائل اسـتطاع الجناح العسـكري أن يحرز بعض النجاحات كاغتيال بعض المخبرين، أو ممن ســمّتهم البيانات بذلك، وتعاطف معهم بعض الجماعات اليســارية المتطرّفة هي الأخرى بإصــدار بيانات تأييد، جلس بدران وحيداً يفكر من أين خرج هؤلاء؟ أين كانوا يختفون كلّ هذه المدّة؟، خرج إلى مشــارف

الصحراء واستطلع المكان وعاد ثم أعطى أوامره بتسوير المنطقة التي تسمّى بالبادية، والتي تقع بين الصحراء والسهول ووضع عناصر في مواجهة السهل، أمّن لهم المواقع الحصينة، وسلّحهم بالأسلحة المتوسطة والقصيرة المدى، ثم أمر أن يؤتى بجماعة الفداء، خلّصهم من كلّ ثيابهم وأحذيتهم، وأعطى كلّ واحد منهم قطعة قماش، وتركه يعبر إلى البادية، ثم دخل عليهم وطلب منهم أن يعيشوا كالصحابة الأوائل وكي يزيد الموضوع إثارة ترك بينهم مجموعات اليسار، وطلب منهم أن يردّوهم إلى الدين الحنيف، ثم جعل يرسل إليهم ببعض الأمّيين ليعلّموهم القراءة والكتابة، وتكلّل جهده عندما عثر على حبشي بينهم فأمره بأن يتكفّل بالأذان بينهم. قال لهم: اعملوا وكلوا من طيبات ما رزقكم الله، ابنوا مدينتكم الفاضلة.. أريد أن أرى بينكم عمراً وعلياً وأبا بكر وباقي الصحابة، وقطع عليهم كلّ اتّصال خارجي، وبين الفترة والأخرى يزجّ إليهم ببعض المجاهدين أو يسحب من بينهم الأمّيين الذين تعلموا القراءة والكتابة، ليزوّدوه بالتقارير حول الوضع الداخلي للمدينة الفاضلة، كما سمّاها له زهير، كانا يمرّان عليهم بين الفترة والأخرى، يتجوّلان بينهم، وقد ارتدوا ثياباً واسعة وأطلقوا لحاهم، ولم يستطيعوا حفَّ الشارب فلا أدوات عندهم لمثل هذه الأمور ولا لغيرها، يسبّحون اسم الله في الظلال، ومنهم من يقوم بتعليم الأمّيين، وبعضهم كان يدير حركة حوار ساخن مع اليساريين، وكان يدير الحوار غالباً رجل عتل، نصف أصلع، جسده ممتلئ، لا يرى شيئاً، لأن نظارتيه قد تركتا خارجاً، وقد لاحظ زهير أن الدكتور كما كانوا يسمّونه، صار يستقطب الجميع من كافة الفصائل، فترك هذه الملاحظة في ذهنه.

عملية حفر البئر، كانت صعبة قليلاً، لكن جهود المؤمنين أثمرت، عندما دبّبوا بعض الحجارة التي راحوا بها يحفرون حتى وصلوا إلى الماء، نقروا الأجران والقدور، صنعوا الإبر والأسلحة، ثم راحوا يزرعون بعض الأشجار، يسقونها من ماء البئر، فأصبح لديهم عصر حجري لا أمتع ولا أجمل منه، لم تكن تنقصهم الخبرة فهم يعرفون كلّ شيء، كانت تنقصهم المواد الأولية ولم تمضِ فترة قريبة حتى استطاعوا بناء قرية نموذجية من الحجارة والسّعف، وكل واحد صنع بيته كما يرغب، وفرشه كما يريد بما لديه، أو يتوفر لديه من مواد أولية بسيطة، وكان الحبشي يؤذّن فيهم خمس

مرات، كلّ يوم.. كما حاول الدكتور أن يرأس الجماعتين، فاختلفوا فيما بينهم، وشكّلوا انقساماً خطيراً، هكذا قال عنه الدكتور، فالمؤمنون صاروا في طرف والمشركون في طرف آخر، وقد انضم كثير من الأمّيين إلى المشركين، لأنهم كرهوا النحو والإعراب، والبخر الذي يخرج من فم الصائمين.

أصبح لكل طرف أسلحته من الحجارة المدببة، والمفلطحة والقاطعة، وفي يوم لم يكن فيه ضوء قمر، هاجم المؤمنون المشركين، وبطشوا بهم قبل أن ينبلج الصباح، وقد وصل الصراخ والعويل إلى أبواب السموات، وكانت نتيجة الهجوم الأول، أو بدر الثالثة كما سمّيت، وبدأ التاريخ بها، أن أسر عشرات المشركين، الذين صاروا خدماً عند المؤمنين، يسومونهم سوء العذاب، وقد حضّر إبليس الصغير، العين الساهرة، إناء فيه ماء، أمام بدران يريه من خلاله، ماذا جرى في أرض النفاق؟ كما كان يسمّيها.. فكان بدران يجهّز أركيلة ويجلس ويتفرّج عليهم، ثم يضحك من كلّ قلبه، وهو يرى مؤامراتهم الصغيرة، وحروبهم.

صار لديهم مقبرة للشهداء، وبنوا مسجداً واسعاً، عبّدوا بعض الطرقات وأجروا الأسيقة، وكان بدران يرسل إليهم في كلّ مناسبة وطنية بعض الشتلات ليزروعها، فتعلموا الزراعة والريّ، والتقليم والتطعيم، ثم انتخبوا عشرة منهم، سمّوهم مجلس الشورى، وانتخبوا، أي العشرة واحداً منهم، ليقود الجميع في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ الأمة، كما قال البيان الذي صدر عن هيئة الرئاسة العليا.

اكتمل كلّ شيء في المدينة، ولم تنقصه سوى النساء، وقد استعيض عنهن بالابتهالات وذكر الله وقتل النفس بالصبر، وقد أجرى لهم بدران بعض الماء، جنوب المدينة، وزرع فيها بعض أشجار النخيل، فكانت واحة هادئة للذين يثبت حسن سلوكهم خلال أسبوعين فيرسلون إليها للتريّض جزاءً بما كانوا يكسبون.

المفاجأة كانت متوقعة، لكن ليس في هذا اليوم، فقد همس زهير بأذن بدران أن العين الساهرة قد قبض على ولدكم البار، وهو الآن في غرفة التحقيق، رفع بدران يده نصف رفعة، ثم أسقطها، وأغفى. رآه الجميع، وقد تتالوا خارجين من الزاوية، بينما

غطاه زهير بعباءة وخرج، أغلق عليهم الباب، وقال لهم: إنها الرجعة الأولى، ولا أحد يعرف كم ستدوم، ومنذ اليوم التالي، اجتمع أهل الحي وراحوا يقرؤون السور القصار، والطوال أمام الباب، ثم أعطى زهير أوامره فغطّيت الأبواب والنوافذ بالطين والحجارة وتركت في أعلاها فتحة صغيرة، تتسع ليد واحدة أن تدخل بسلام وتخرج بسلام، قرعت الدفوف وضربت الصنوج واهتزّت المزاهر، وبدأ أصحاب الطرق يهتزّون يمنة ويسرة، وإلى الأعلى والأسفل وهم يذكرون الله. ظلّوا هكذا حتى المساء، وقد اشتد الهيام ببعضهم فضربوا أنفسهم بالشيش، وأكل بعضهم الزجاج، وأخرون أضرموا النار في وسط الساحة، ثم وضعوا عليها الحديد حتى حمي، فمسوا به ألسنتهم، قبضوا على الجمر، فانطفأ بين أيديهم، وبعضهم مشى على النار، يا نار كوني برداً وسلاماً، فكانت كذلك وهاج الجمع وماج، وهم يعدّدون ويذكرون مناقب بدران، رفعت الأعلام الأربعة فوق القبة، وراحت كلمة الله تدور فوق رؤوس الجميع، وتناغمت حركات المشهد مع بعضها، الإيقاع والاهتزاز وارتجاف الأعلام، والقرع، والأصوات، وعندما أيقنت الشمس من انعدام حركتها، جاء صوت زغاريد شقّ المشهد، وأصمته، هدأت حركة كلّ شيء، وعادت الزغاريد مرة أخرى، وأخرى، أفاق من كان في حالة النشوة واللذة، والتفت المشهد إلى الصوت القادم، فإذا بها رئيفة، التي وقفت في الساحة جنب النار وراحت تزغرد وتزغرد، ثم أمسكت يد الجنّي وراحت ترقص وسط الساحة وانقضى المشهد سريعاً وهم يشاهدون الجني وقد ارتدى ثياب علي بابا، كان قد كبر وأصبح شاباً، بذقن وشاربين، وهاهو يرقص على إيقاع الطبل والمزمار، ورئيفة وقد ارتدت ثياب الرقص لقد كانت تشبه الراقصة نجوى فؤاد عندما كانت صغيرة وشابة وهاهي تكشف عن ساقيها وعن جسدها ثم ترفع قدمها إلى الأعلى وتسقط حذاءها، الفردة اليمنى، على الجمع الهارب ثم تلحق اليسرى بهم، قال الناس: يا لطيف، ها هي علائم يوم الساعة، وظلّت رئيفة ترقص وترقص حتى انتصف الليل، وعندها، راحت تسجد على الأرض وكأنها تبتهل، وفي تلك اللحظات خرجت من فتحة القبة، التي في السقف ألوان صفراء وحمراء وبنفسجية، ألوان قوس قزح بالتمام والكمال، كانت تنتهي، ثم تتكرّر، ووقف الجنيّ على بابا يجمعها بردائه ثم يطلقها ثم يعود إلى جمعها، وإطلاقها حتى كان

الصباح، حيث وضعت حراسة مشددّة عند باب الدار ومنع الأقوام من الاقتراب من المكان، خوف التخريب وكانت تأتي فرقة موسيقية تابعة للجيش تزور المكان كلّ يوم جمعة، الساعة التاسعة فتعزف النشيد الملكي، بوقار، حيث يجتمع الأولاد يتفرجون ببلاهة إلى تبديل الحرس، وعزف النشيد، وعلى ذلك فقد تقاسم العين الساهرة وزهير الأعمال بالنيابة، أما ما كان من ابن بدران ورئيفة فقد أخرج بعد ستة شهور صحيح الجسم سليماً يستطيع الوقوف لكنه صار غير محدّد التفكير، وقد نسي اسمه ونسي المرأة التي أرضعته الحليب، ونسي تاريخ حياته وأين ولد وأين شبّ، وأين تدّرب، وماذا فعل في جوار البلد الشقيق. كان يصمت الساعات الطوال، ثم يستيقظ ليصرخ بـ حيْ واحدة، سريعة، وقويّة ويعود إلى صمته الخاص وعلى ذلك فقد أعطي يومين وليلة، استجماما في الواحة، وافقه في ذلك أبو سفيان وأبو جهل، وكانا مسؤولين عن الثقافة في حزبين يساريين وبعد ذلك عاد الثلاثة إلى المدينة.

وفي السيرة الميتة لابن بدران والتي قضاها في بلاد الله غير الواسعة نلنا الحديث التالي:

حمل صلاح آلامه وحزنه وطوله الناحل، وراح يبيت في الحدائق وتحت الجسور أو في أسواق الخضار، يأكل من النفايات، ليلاً ويتسوّل نهاراً، ويذهب إلى مسؤوله الحزبي كلّ أسبوع في الخامسة مساءً، ولمّا شرح له حالته، اعتبر المسؤول الحزبي أن هذه الحياة التي يحياها صلاح مهمّة حزبية عليه أن يتابعها حتى النهاية، ولمّا كان رأس صلاح كبيراً بما فيه الكفاية، فقد هزّه مرّة واحدة فقط، وطلب إليه المسؤول أن ينتظر أمراً أو إشارة خلال أيام معدودات، ثم انقضت الأيام المعدودات ولم يأتِ أي خبر أو إيحاء وبينما كان ينام مرة في إحدى الحدائق، إذ أحاط به جمع من الجلاوزة، وأخذوه في سيارة غير فارهة، بل مغلقة من كافة أطرافها، ثم نام تلك الليلة في النظارة التي جعلته يتمتّع برائحة البول والأشياء الأخرى التي تصدر عن بشر لا يجدون مكاناً لتفريغ أحشائهم، وفي الصباح أخذوه إلى بناء كبير، ووقف أمام رجل، أقل ما يقال فيه أنه وقور، فقيّده لصالح السجن لمدة شهر، تبدأ مع هذا اليوم بتهمة التشرد، وهناك تعرّف على ما كان ينقصه في حياته، وعندما انتهت مهلة التشرد لم يتخلوا عنه، بل أخذوه إلى

الشرطة العسكرية فقد اكتشفوا أنه كان مطلوباً للتجنيد العام، وعنوانه غير معروف، وهاهو الآن بين أيديهم، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياة صلاح بدران، إذ اقتيد إلى الجبهة وبعد دورة صغيرة وضعوه على مدفع مضاد للطائرات وطلبوا منه أن يتصدى لكل طائرة معادية.

عندما التمع سرب الطائرات فوق رأسه في السماء، لم تستطع يده أن تشدّ على الزناد، وأنزلت الطائرات حمماً لم يشاهد مثلها في ألف ليلة، قال لهم: إنه جبان وغير قادر على التصدي لمثل هذه الآلات الجبارة، فحاكموه بتهمة الخيانة الوطنية وقرّروا إعدامه بالرصاص، فاطمأنت نفسه واعتبر ذلك أرحم من الذهاب إلى الجبهة والتصدي لطيران العدو الغاشم، كما كان يسمّيه ضابط التوجيه السياسي، ثم استقرّ رأي القضاة على أن يتابع صلاح بدران المهمّة الموكلة إليه في الجبهة والتصدي لطيران العدو.

طيران العدو، عندما علم بعودة صلاح، استنفر كلّ قوته، وراح يضرب الجبهة يومياً، وفي الصباح والمساء، عند كلّ طعام، وكل حديث، ثم وقف صلاح فوق تلّة صغيرة، وصاح بملء صوته "يا هذه الدنيا، أطلّي واسمعي، جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي.." وتحت جنح الليل كما يقولون حمل طوله ورأسه وغادر المكان، وترك الجبهة بحماية الله ورعاية أوليائه الصالحين.

مشى كثيراً، وجاع ثم عطش، ثم رآني، بداية خاف مني، وعندما علم أنني هارب مثله، اطمأنّ لي ومشينا معاً، سألني، إلى أين أنا ذاهب، قلت له: إلى لبنان، قال: أذهب معك، وهكذا خرجت من العصر العباسي، لأصل مع صلاح إلى الحدود اللبنانية، وها نحن نقف عند ضفة الكبير الشمالي. خضنا في الماء تبعنا الحرس، ولمّا أوغلنا بعيداً تركونا طعاماً للكلاب كما سمعتهم يقولون، عند ذلك طمأنته إلى أنه الآن في أمان وفي دولة أخرى لها قوانينها وعلمها، التفت وبصق على الطرف الآخر من النهر قلت له: هذا فراق بيني وبينك، "بلادي وإن جارت علي عزيزة" وعلى ذلك فقد أشرت إليه أن يركب حافلة تقلّه إلى طرابلس الشام، ومنها يصل إلى بيروت، وهناك قد أراه، أو لا أراه. ودّعته وانصرفت، ركبت زوبعة، ريحاً قادمة وتحوّلتُ إلى قشة في مهب الريح والتصقتُ بجسد

صلاح بدران أراقبه كي أحفظ عليه طريق الرجعة، وماذا يهمّني إن رجع أو لم يرجع، أهو ولدي، أم أخي؟ كانت قضية القشّة كذبة لفّقتها نفسي، ربّما أنا هو صلاح بدران، لأنني لم أرَ ذاتي حتى الآن.. أنا لا أرى سوى نفسي الملتصقة بنفسه، ربّما أنا هو فلندخل إذاً طرابلس معاً ولنأكل قليلاً من الشواء، هل أطعمتنا مما تأكل يا رجل؟ وأطعمنا الرجل، ثم تسلّلنا، تسلّلت، تسلّل هو، لا أدري إلى إحدى الشاحنات، ودخلنا جميعاً مدينة بيروت التي كان اسمها فوق كلّ المدائن، لما ملكته من حسن وبهاء، كانت امرأة الشرق، وجميلة الجميلات، حسدتها مدننا على كلّ ذلك، ونصبت لها الأشراك، جمعوا لها كلّ السحرة لينالوا منها، لكنها ظلّت دائماً بيروت.

في ساحة البرج وجد صلاح خلقاً كثيراً، من كافة أصقاع الأرض، الأحمر والأصفر والأبيض والأسود، من الهند وسريلانكا، والصين والسويد وفرنسا، ووجد كثيراً من أبناء وطنه، الذين كانوا يفتحون فمهم ويرخون ركبهم وهم يتساءلون عمّا يجري، جلس بينهم، استدان وطُعِم، وفي اليوم الذي يلي اليوم الذي وصل فيه نزل إلى البور للعمل بمساعدة أحد أبناء وطنه البررة، حمل أكياس السكر والأرز على ظهره واستطاع ان يجمع بعض النقود كانت تكفيه ليستأجر بيتاً مع أشخاص عديدين ومع هؤلاء تعلم شرب البراندي وسجائر الحشيش ولعب الورق.

سكن في الكرنتينا، في بيت معلّق قريب من الله، وكان يراقب منه أغلب بيوت الكارنتينا وقد كان لهذا البيت عدة فوائد، أهمّها التلصّص على العلاقات غير النظامية التي كانت تجري حوله، وفي الليل وعلى بصيص من أمل ضائع يتلو البيوت واحداً واحداً ويراقب العري الذي يفوح منها، الوقوف وتبديل الثياب، العطر الرخيص الذي يُصَبّ تحت الإبطين وعند فتحة الصدر، العلك الفاضح ثم الاستلقاء وإطفاء الأضواء، نور باهت يأتي مع الرائحة الرخيصة وصوت الراديو الذي يذيع التعليق السياسي، ثم يأتي الأصحاب، وهم يحملون المعلّبات وزجاجات البراندي، في البداية لم يستطع أن يجاريهم، وشيئاً فشيئاً، وكرمى لي، وأهلاً أبا الشباب، ومن أجل خاطري شرب، ثم شرب، ثم تقيّأ في الليل، وأعاد ذلك مرة وأخرى، إلى أن بدأت نفسه تطيب لذلك. يومها أحضروا سارة التي من البقاع، جاءت وجلست على الكرسي الوحيد والذي يتألف من

صفيحة فارغة وعليها كيس مطبّق، كانت تتكحل بشكل فاضح، وتضع الروج كذلك، لفّت رجلاً على أخرى، فبان لحمها الممطوط، دخّنت سيجارة مارلبورو، ثم قسموا الغرفة ببطانية، وراحوا يشربون البراندي ويلفّون سجائر الحشيش، وشرب صلاح معهم، شرب بصحة سارة، وشربت بصحته، وتورّد خداه، واستكان للدفء والانسطال، فذاب في مكانه، وعندما جاء دوره، جاءت إليه، ورأته نائماً، أيقظته، وطلبت إليهم أن يحملوه إلى الشقّ الثاني، ففعلوا، عرّته، وراحت تقبّله خليّة خليّة، تقبّله وتبكي، وتقرقر له كلّ أعصابه، حتى تحرّك قليلاً، وعندما عرفت أنّ فيه روحاً تبعث، بدأت بالمعجزات معه حتى استطاعت أن تهيّجه، وتوقف شيئاً ما فيه، ثم أسلمت نفسها إلى وسطها، جلست وراحت تندب حظّها وتتذكّر كلّ ويلاتها التي مارستها وكل طقوسها التي عاشتها أحلامها الجميلة، وهو كان يبتسم ويرخي نصف وجهه وهي تأتي وتروح وتصرخ وتولول، وتشهق وتبكي وتضربه بعنف ودون رحمة، إلى أن بدأت الابتسامة الأولى تطلع من كلّ وجهها، ثم تورّد وجهها وأشرق وازداد جمالاً، وشدّ لحمها وبدأت توغل فيه إلى أعماقه الدفينة، وكأنها تريد أن تستخرج عمقه كله، ثم كلّبت بكتفيه وغرزت أظافرها فيهما، شدّت كلّ جسده وصرخت صرختها العظيمة، ثم ضحكت ضحكة عالية، واسترخت فوق جسده المسترخي، وهبطت فوقه ونامت حتى الصباح التالي، ولما كان يوم عطلة فقد تركت حتى المساء دون أن يزعجها أو يزعجه أحد، وعندما استيقظت، أيقظته بقبلة، ظنّ نفسه في إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، وقد أقنعته بذلك ولم تأخذ منه أي نقود، بل إنها قالت له: ستأتي كلّ أسبوع عندهم، ولن تأخذ منه شيئاً، في البداية رفض واعتبرها جزءاً من كرامته، لكنها أقنعته أن الكرامة لا دخل لها بهذه المواضيع.

حشد من البشر الذين يتكوّمون فوق بعضهم، هكذا هي الكرنتينا، أقوام دبّت من مواطنها إلى هنا يدفعها طلب الرزق، وأشياء أخرى، نساء يجلسن أمام أبواب الدور وقد كشفن عن صدورهن أو عن سيقانهن، العلك في الفم، والكحل للعينين يزجّج.. وهاهي الشجرة الكبيرة في مدخل الحي تخيّم بظلالها على رحمة ميتة تنزل على هؤلاء البشر.

يجلس صلاح مع الفجر، فيعدّ إبريق الشاي، ذقنه طويلة، هيئته رثة، وشعره طويل، يحلق ذقنه على مرآة ملتصقة بالجدار، أو ينساها.. وتكون جارته التي أمامه قد استيقظت هي الأخرى من ليلة منهكة؛ العلك الفاضح لا يزال في فمها، وآثار الخمرة والليلة غير السعيدة تملأ رأسها، تبدأ الشتائم إلى الذي بجانبها، تدفعه ليذهب عنها، فينهض متثاقلاً، ويوزّع نفسه في أطراف الأرض، تبدأ الأصوات بالاندفاع، من هنا وهناك، وكلّهم يبدؤون رحلة الصباح، تظلّ بعض النساء والأطفال وتقذف البوسطة آلاف العمال في شوارع بيروت.

عندما لا يذهب صلاح إلى البور، يوماً ما يكتشف أسرار الكرنتينا، يجلس في علّيتهن ويراقب النساء المتفرّدات وهن يجلسن أمام بيوتهن، يقشّرن أو يفرمن الخضار، وقد سمحن لسراويلهن الصغيرة بالظهور، الساق مقوّسة على بعضها، ويبحر صلاح في نهاياتها، ليشاهد هذا اللحم المتثني الذي يميل إلى الداكن، فيفلت شهقة عميقة طويلة، ليبحث عن بقايا زجاجات البارحة، وقد يكسّر قطعة كيف بيده، ثم يدرجها في سيجارة الـOK، ويشفطها بحرقة وألم، يعبّ نفساً طويلاً، ثم يسدّ فمه وأنفه ليترك الدخان يصل إلى رأسه ثم يفلت كلّ شيء، وعندما وصلت رائحة الكيف الطيبة إلى جارته مريم، تركت كلّ شيء، جاراتها والخضار التي في يدها، ووصلت إليه، طرقت الباب، فأوجس خيفة، ولما دخلت عليه، ابتسمت، وقالت له: إنها بحاجة إلى سيجارة، ولما أعطاها، أرادت من تلك التي يعبّ أنفاسها، وهكذا جلسا صديقين أليفين، يكسّر لها ويحشو السجائر، وتشعلها مرة أو يشعلها هو، حكى لها قصة حياته، هي حكت له قصة حياتها، وجهها النحيل، راحت تقصّ عليه الثلاث رحلة طويلة، بدأها أخوها، ثم استجرّ البنات الثلاث، هي وأختاها. الآن هم يعملون جميعاً، وهي مسؤولة عن البيت والطعام، عندما ستجد عملاً ستذهب هي الأخرى، البنات يعملن خادمات في بيوت الخواجات، والأخ يعمل في النسيج.. لماذا لا تذهب معه؟ يعلمك صنعة، البور، ليس صنعة.

بدأ صلاح يتقاعس كثيراً في الذهاب إلى البور، أحبّ الجلوس أمام مريم، يراقب وجهها الأبيض الصغير، يراقب يديها وهي تعدّ الشاي، يراقب أصابعها وهي تضع السكر

في الكأس، وهي تحرّك بالملعقة، وهي تقدمها لـــه، وهي تعبّ من السـيجارة، وهي تقدمها لـه، تدير نـارهـا بـاتجـاهها، يراقب دموع عينيها، وهـاهي اليوم تقف أمامه، ترفع غطاء شـعرها، تقف أمام المرآة، وتهزّ رأسـها لتفرّده، ثم تأخذ المشـط، وتنزله في شـلالات من الشـقاء، لم يكن يدري أن لمريم هذا الشـعر الجميل، فهي لم تفرّعه ولا مرّة أمامه، كان يريد أن يقول لها شـيئاً، لكنّه لم يسـتطع، يبسـت الكلمات في فمه، بينما وقفت مريم أمام المرآة ، تسبّل صوتها وتغنّي:

جاءت سارة عدّة مرّات، كانت تأتيه في الحلم، وقد فتحت صدرها، لعينيه، كانت في كلّ مرّة تشـكل وردة عند فتحة الصـدر، أو وراء الأذن، أخذته معها إلى برج البراجنة، حيث كانت تسـكن، ألبسـته ثياباً جديدة، وحنّت يديه بالحنّاء، أتته بالصـينية، وعليها الشـموع، فوق كلّ قطعة حنّة شـمعة ملّونة، خلعت ثيابها، وارتدت ثياب الرقص، وراحت ترقص لـه، كانت تتثنى كماء الحياة، وكان ينظر إليها مبهوتاً، جلسـت معه وأطعمته من يديها، قشّـرت له الفواكه، وسـقته كأسـاً وآخر، وقبل أن ينتهي الحلم، ضمَّته إلى صدرها وأغفت على صدره.

كان صـلاح يسـوح في بيروت كلّ يوم أحد حيث كان يعطّل إجبارياً غير العطل التي كان ينام فيها بعد الحلم، وحين تزوره مريم، يذهب ماشياً إلى ساحة البرج، يتفرّج، يقول لنفسـه: هـاهو العـالم بين يـديك يـا أبـا الصـلح، ثم يتـدحرج قليلاً قليلاً إلى منطقة الفنادق، حيث يتفرّج على السابحات بقطعهنّ الملونة، يهزّ رأسه، وقد يأكل صندويشة أولا ثم يعود على أطراف النهار، ليصـل أوّل الليل، إلى مدخل الكرنتينا، يتعثر بأحاديث النسـاء ورائحة عطرهن الرخيص، يسـمع طرقات العلك في أفواههن، وقد يجلب معه بطحة براندي مع علبة سـردين "أبو الشـنب"، ليفتح مائدة صـغيرة، ينهيها بموال عتابا، وكأسـي شـاي، وسـيجارة حشـيش، إن كان بقية السـاكنين حضـروا أو ينام انتظاراً للغد وهو يحلم أن تأخذه سارة إلى برج البراجنة.

كان بيت صـلاح المعلّق يتكوّن من علبة كرتون كبيرة تسـتقرّ على أرضـية البيت الخشـبية، وفوقها فراش اسـفنج صـغير، مغطّى ببطانية شـتوية، ووسـادة، وعند طرف

الباب إبريق شـــاي، وثلاث كاســـات متســـخات غالباً، وبابور كاز، وصـــحنان ومقلاة، وملعقتان ومسامير على الحائط، تستقرّ على صحيفة المحرّر حيث يوضع عليها بنطال وقميص ليوم الأحد. سـفلها حذاء وبداخله جورب متّسـخ، وفيما بعد عندما تعرّف على رضـــوان الملتحي، أضـــيفت قطعة اســـفنج أخرى وبطانية ووســـادة وقميص وبنطال.. وأحزان كثيرة في الاثنين معاً.

تعرف صـلاح على رضـوان، في سـاحة البرج حيث كان يراقب ألعاب الخفّة؛ الثلاث ورقات، والسـبعة خسـرانة.. كان يراقب ولا يقترب لأنه كان حريصاً على كلّ ليرة يكسبها، ومرّة جاع فذهب إلى فلافل المصـــري واشـــترى واحدة، وجلس يأكلها بهدوء، مع قرون الفليفلة الحدّة الطويلة التي كان يحبّها.. وأمامه كان يجلس شاب بعمره تقريباً، نظرا إلى بعضـــهما وتآلفا مع بعضـــهما دون أن يقولا ولا كلمة واحدة. وبعد أن انتهيا من الطعام مشـيا مع بعضـهما، وعلى طرف الروشـة جلسـا في صـمتهما، ثم كان اليوم التالي حيث سكن رضوان مع صلاح. لم يعجبني ذلك، فقد دخل شـريك ثالث بيننا، وعلى ذلك فقد انسحبت من صلاح وتركت له مريم وسارة ورضوان، حزمت نفسي وركبت الباص عائداً إلى حي المزار.

كان كلّ شـيء قد تغير، فالعين السـاهرة تراقب كلّ شـيء، وكنت قد أطلقت لحيتي قليلاً. تبعني اثنان وعند مدخل إحدى الحارات كتّفاني وأخذاني إلى السـيد مدير العين السـاهرة وهناك قدّمت تقريراً بنفسـي، سُـجّلت باسـم عدنان الفلاح، واخترعت لي أماً وأباً وأخوالاً وأعمـامـاً وعمـات وخـالات وأهـل وإخوة وأخوات وملأت أوراقـاً، وأخـذوا بصمات أصابعي العشرة على أوراق بيضاء، تركوني في التحقيق خمسة أيام ثم أرسلوني وقد امتلأ رأسي بفراغ غير محدود، ويظهر أنهم علّقوا، أو أدخلوا جهازاً في جسدي يدل على وجودي، فيظهر أن زيارتي إلى لبنان كان مشـــكوكاً فيها، وكي أخلّص نفســـي من كلّ ذلك فقد اتّجهت من ســـاعة إطلاقي إلى زاوية ســـيدنا جمال الدين، قلت، أشـــرح له

الموقف، علّه يدخلني في الزاوية، أختلي بذكر الله، لا ينفعني سواه، رحّب بي الشيخ، ولما حكيت له القصة من أولها، عبس قليلاً وطلب إليّ أن أعود بعد فترة، غادرته وأنا آسف.

***

- **زهير الرّماني:**

جئت بعد أيام، قبَّلت يد الشيخ جمال الدين فغفر لي، طلب مني أن أظلَّ في حضرته، فظللت أخدم الجامع الذي هو مدّة طويلة. راقبته فيما يفعله، كان يدخل رأسه في حاصل الماء فترة طويلة، ثم يخرجه.. يذكر الله كي لا يدخل الشيطان في كلمات الله، ثم كان يتوضّأ فيسيل الماء ماء وفضة، صلّى صلاة العصر، ثم أمسك بي من يدي، قال: تعال معي، فأجبته، اجتاز بي جدار المسجد فإذا نحن ببرية عظيمة في العراق، قال: سبحان من سبحته الوحوش في القفار، فإذا بين يديه وحوش قد ملأت البطحاء تبرطم بلغاتها وتهيم بأصواتها واختلطت الأسد بالظباء بالأرانب وجعل بعضها يترنّح على قدميه، ثم قال: سبحان من سبّحته الطيور في أوكارها، فإذا في الهواء طيور كثيرة، قد سدّت الفضاء من كل جنس تلحن بأنغامها وترّجع بأصواتها ودنت حتى عكفت على رأسه، ثم قال سبحان من سبّحته الرياح العواصف، فهبّت رياح كثيرة جدّاً من كلّ جهة لم ير ألطف منها نسيماً ولا أرقّ هبوباً، ثم قال: سبحان من سبّحته الجبال الشوامخ، فاضطرب الجبل الذي أمامنا وتساقطت صخراته. خبّأت وجهي بكفي حتى لا أرى المشهد، وعندما كشفت عنه لم أر إلا قميصه، أين أنت يا سيدي جمال الدين؟ لم أر أحداً، قلبت القميص فلم أره، درت في البرية أبحث عنه، فلم أجده، جلست إلى نفسي وبكيت، ساعة أو أكثر، وعند غروب الشمس كان أمامي، قال: انهض، لنرجع، فنهضت، أمسكني من يدي وأدخلني في نفسه فكنا في زاوية المسجد.

عشاءً طلبت منه أن يأذن لي بالخروج أتريّض قليلاً، فأشار بيده: أن اذهب، مشيت بحضن الليلة أتنفس الأقمار والنجوم ولما دلفت إلى المقبرة رأيت رجلاً يريد أن يعتلي

دابته، نهض مرة أخرى فلم يستطع، قلت: أساعده وأنال ثواباً، ولما سألته ذلك وضع رجله في الركاب، وعاد وأنزلها. قال: لم أجد مكاناً في الأرض موضعاً لقدمي. ثم سألني إن كنت أعرف حمّاماً يبيت فيه ليلته، أخذته إلى حمام السوق، وطلب إلي أن أدخل معه، طلب إلي أن أسبقه حتى يعقل دابته، دخلت إلى الحمام فما وجدت فيه أحداً.. كانت منارة والموسيقا والأغاني تنتشر في المكان، الماء يتدفق من النافورات، تقدمت بحذر، فتح الباب خلفي وانبعث منه دخان أصفر، تبعته، رأيت خيال امرأة، فجئت إليها.. ولما كشفت عن وجهها.. فإذا هي رئيفة، ابتسمت لي، فابتسمت لها، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ضعفت أمامها، ثم جالستها ودخلنا معاً إلى الحمّام بعد أن بدّلنا ثيابنا.. وفيما نحن في إحدى الخلوات نخلع ما بقي علينا من ثياب، إذ بالدخان الأصفر يدخل جوفها.. رأيته بعيني هذه التي سوف يأكلها الدود، وهي أنكرت ذلك، فلا خوف عليّ طالما هي معي، ثم بدأنا نغتسل، أو بدأت بغسيل جسدي.. أنت شقي، منذ متى لم تغتسل؟ قلت لها، ربّما من ألف سنة أو مئة، أقل، أو أكثر لست أدري.. شطفت جسدي ببضع طاسات من الماء، ثم تركتني وذهبت، راقبت مؤخرتها ولون بشرتها، كانت مرتفعة بنسبة لا بأس بها عن بطن ركبتها، لها غمازتان، وانزلاق ضامر من الخاصرتين ينحدر إلى الشق الصغير الذي يقسمها.

استرخيت في مكاني وكأنما النعاس يقضم دماغي، دخل علي أبو النواسِ مع نصف دزينة من البنات البكور، كنّ يحملنه على راحاتهن، وهو مستلب أيضاً، تائه، وكأنما يحلّق في بعيد متناه الخضرة، ابتسم لي بعينه الصغيرة، وابتسمت له، بعض الفتيات المرافقات غسلن إحدى الغرف ثم دخلن جميعهن مع أبي نواس ولم يسدلن شعراً، غسلن جسده قطعة قطعة، كل واحدة تكفّلت بقطعة لم أر منه شيئاً، أجساد تبرق فوقه، ألوان متناثرة، تقتحم ضياء عيني.

كانت في الحمّام، أو في البراني من الحمّام بركة ماء تناثرت فوقها الرياحين والورود، ربما كان ماؤها من أطايب العطور لأنها كانت تتضّوع على المكان بأكمله. ألقت النساء بأبي نواس فيها، ثم اندفعن خلفه، يتراشقن بالماء/العطر، لم أدخل في حضرتهن خشية

أن أنزع حلمي، تركت النواسي وحيداً، ربّما كانت جنان الجارية معهن، خرجت إلي رئيفة مرة أخرى، كانت متجمّلة كأجمل ما تكون النســـاء، جلســـت قربي وانبعثت منها رائحة تدعوني إليها، لم أستطع المقاومة، أخذتني من يدي إلى مكان قصي، كانت هناك أجسام غير مرئية تعدّ لنا المكان؛ فرش وثيرة، غلائل على جدران غير مرئية، وســـائد من ماء مقطر، فاكهة وطعام تملأ العين من جمالها.. واســـتلقت تريدني.. واتكأت أداعبها.. أطعمتني وأطعمتها ثم تصــافينا أرقّ الكلمات وأعذب القبل، وعندما جذبتني إليها، تغيّر لونها فجأة، ثم تقلصت وتطاولت، وبدأت تفحّ فحيحاً طويلاً، صار لون جسدها يتناوب بكل الألوان، ارتعبت قليلاً، تراجعت إلى الوراء، حقيقة خفت، كانت تدعوني بيديها وجســـدها يتملص منها، بكت، وضـحكت في وقت واحد.. جســـدها يرتجّ عنيفاً.. يا أيّها الناس ماذا أفعل؟ وها هي تطلق صيحتها الطويلة والقوية عالياً.. ثم يهمد كل شيء فيها.. وتُركنا هكذا فترة، لم ندرِ كم كانت؛ لكنني عندما اســتيقظت وجدت رئيفة تبتســـم لي.. قبّلتني من كل وجهي، ومن عيني.. ثم نهضـــت وأنهضـــتني، وغســـلتني مرة أخرى.. تركتها وخرجت، ارتديت ثيابي وتيسّرت إلى الهواء الفسيح.

وصلت إلى شيخي جمال الدين، كنت طاهراً على يدي رئيفة، جلست في حضرته.. لم أقل شـيئاً، كنت عاصياً، وكان كل شيء في يقول ذلك.. قال لي الشـيخ جمال الدين: (لو لم تفعل ذلك لقتلك..) أدرت بصـري في كل أطراف الشـيخ، توقفت عند لحيته الناعمة الخفيفة.. تابع الشـيخ.. لقد كان فيها.. نعم إن الجني الصـغير كان فيها، لقد دخل دخاناً أصـفر، لقد قتلته الآن.. ورئيفة أصـبحت طليقة، سـتنال ثواباً على ذلك. لم أقل شـيئاً، رحت أراقب أرنبة أنفه الواقفة فوق الشـــاربين الخفيفين، كان يتكلم، ولم أفهم منه شيئاً، ثم راح يتلو الآيات ويقرأ على رأسي، ويمسح صدري وظهري.. وفجأة ضربني ضربة عظيمة بجمع يده، وقال: انهض لقد دخلت في دائرة شـــيخك جمال الدين، فاســـتعدّ للرحلة، ابتداء من الغد. لم أعرف عن أية رحلة يتحدث، لكنني كنت أؤثر الصـــمت، مســـح بيديه وجهي ثم أغمض عنّي بكفه الكريمة. فإذا به ينقلني إلى لطفه ونوره، لم أعد أرى شيئاً، تركني مكوماً، وتلاشى. سمعت صوته يبشرني بجنات عرضها السموات والأرض، لم أتحرك من مكاني حتى الغد. عندما دخل علي مســـتبشـــراً.. ووراءه ابنته

الصغيرة.. بيدها أرغفة الخبز وكوز ماء. أنهضني وأدخلني معه إلى برودة الجامع. فتح علي باب الخلوة، أدخلني، ثم أغلقه وخرج. جاء الصوت إلى عدنان الفلاح من خارج الخلوة. صوت ناعس ضعيف، يطلب إليه أن يذكر.. الاستغاثة، كل يوم بعد كل صلاة خمس مئة مرّة.

طعامه كان على ما هو عليه، خبز الشعير والملح والزيت. بلّل ريقه خلال ثلاثين يوماً عدّة مرات، ربما كانت أربعاً أو خمساً، كان يردّد يا حقّ، يا حقّ، في الأيام الأولى، ثم انتقل إلى يا حنان.. فيا حليم، يا حي، يا حافظ.. كل واحدة بتعداد.. لكنه لم يعد يعرف العد، يدخل فيها من استيقاظه، لتدخل معه في غيبوبته.. وهاهو اليوم يصل إلى "سبحانك لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين.." سُبْحته بيده والدموع تنثال على وجنتيه وشعر لحيته، لم يعد يستطيع أن يذكر شيئاً، قلبه كان يدقّ بالدعّاء، الخشب حوله، هو الذي كان يردّد، حجارة المكان هي التي تردّد.. فراغ هائل يحيط به، لم يكن داكناً، كان به شيء من نور النهار، صوت يناديه ويجذبه إلى البعيد، صوت حذر ناعم هسيس.. خلع ثيابه ودخل في الفراغ، مشى أياماً وأياماً وكان قلبه يدقّ بالآية الكريمة بكل حرف فيها، مدّ يديه على طولهما، شعر أنه يسبح في هذا الفراغ، أوغل أكثر.. شاهد أقواماً يجتمعون ويتفرقون، فنزل بينهم. كانوا يذكرون الله كثيراً، فاتّخذ مكاناً قصيّاً تحت ظلّ بناء.

كان الصوت يملأ كيانه، يدخل في خلاياه، يتنفّسه، وجد ناراً من بعيد، وصل إليها، كانت على قمة جبل، وقف يستريح عندها. لم يكن يشعر بالتعب، كل شيء كان يجذبه إليها، ومن قمة الجبل شاهد جيوشاً تتصارع، جيوش المسلمين كانت تتراجع وجيوش الكفر تتقدم، ثم دخل الكفار في جيش المسلمين وأصابوا منهم مقتلة عظيمة، أراد أن يتدخل بينهما، ولكن غمامة كبيرة وقفت فوقه وظلّلته ثم انسل منها شيخ ذو لحية بيضاء وعمامة خضراء، وقف وسط النار وأشار عليه ألا يتحرك، أخرج ورقة وشق الجبل نصفين، وبيده الطاهرة سمح للمؤمنين بالمرور إلى الطرف الآخر، ثم خلع فردة قبقابه، وضرب جيش الكفر، فهربوا مذعورين، لم يتبعهم، وإنما ركبوا سفنهم، وأوغلوا

في البحر، خلع فردة قبقابه الثانية، وألقاها إليهم، فاشــتعلت النار في ســفنهم، كانوا يتصــايحون ويســتغيثون، والبحر يبتلعهم والنار تلتهمهم.. وعدنان الفلاح يردّد في قلبه نداء الآية الكريمة.. ربِّ إني كنت من الظالمين.

أنا لم أظلم أحداً، كنت مظلوماً كل حياتي.. ولدت في دائرة من الخوف.. اجتمع الناس عليّ من كل طرف، لم أبك يومها، ضــربوني كي أبكي.. تألمت ولم أبك.. أخذتني امرأة وغســلتني أذكر ذلك تماماً، لكنني لا أعرف من هي هذه المرأة الآن؟ أرضــعتني من صدرها.. يومها رأيت نوراً يصعد إلى السماء، هاهو النور اليوم يسقط من كوة الخشب على وجهي، كنت أغرق في لجة الحرف فانتشــلني بضــوئه من صــمتي.. امتطيت النور وتسلقت الحلم وسعيت لدى أول نقطة أراها، لم أخرج من الباب، تركته مغلقاً ورائي. امتلأ المكان بي ثم خرجت من مبســم النور.. نزلت الســوق ومشــيت فيه، ناداني الناس باســمي، باســم غيري، لم أعرف ما هو اســمي.. هل كانوا ينادونني؟ هل كانوا ينادون غيري؟ لم أدر إلى أن وصــلت الحمّام، دخلته، خلعت خرقتي، لم أغتســل، جلســت صــامتاً، راقبني الناس، ثم قمت إلى ثياب نظيفة معلّقة ليســت لي، لبســتها، ثم لبســت خرقتي، وأردت الخروج. خرج الحمامي من وراء شــبّاكه، صــعد إلي وراح يضــربني، ثم اجتمع الناس عليّ وراحوا يضــربونني، إلى أن تمزقت روحي وأثقلني الألم. مزّقوا ثوبي، وأجبروني على خلع ثياب غيري، ثم خرجت إلى السوق عارياً.. ولما رآني الأولاد مشوا ورائي وراحوا يردّدون الهتافات التي جعلت السوق كله يضحك علي، تناولوني ببقايا السوق، صــبّوا نفايات أخلاقهم علي.. أحببت ذلك، كنت أســتحق ذلك.. هذا الجســد يجب أن يروّض ويداس بالأحذية.. إنه ســبب كل تعاســتي.. لقد أذاب روحي وما زلت أحسّ به، إنّ شيطاني رجيم.. فمن يخلصني من ربقة الجسد؟

وعند قمة الســوق أمســكني الرجل من يدي.. لم أشــاهد مثله قبلاً، خرج من بين أصــابعي؟ وتدفقّ كنافورة ماءً أمامي. قال: تعال معي، فجئت معه، ســحبني من يدي، وأدخلني مدخلاً صــعباً، كأننا كنا.. كأني كنت في خاتم، ومنه انزلقت إلى جبال وعرة، ثم دخلت مدخلاً آمناً وإذ أنا في بيروت وحيداً، بحثت عن الرجل حولي فلم أره، رأيت

صلاحاً في ساحة وحوله يلتفّ الناس، أشرت إليه بيدي، فأشار: أن انتظرني. دنوت منه أكثر، رأيته يلعب بألعاب الخفة، وعندما اشتدت الأمور حوله واندلع صوت الرصاص، قفز من خاصـرتي، واندفع إلى سـحّارة فاكهة فارغة، أخرج منها بارودة روسـية عيار 7.62، وراح يطلق النار في الهواء. ظلّ يطرق الحديد زهاء سـاعة، وكنت قد انبطحت على الأرض في زاوية بائع تبغ، أسرع واستلني من بين دخان الرصاص وأنفاس الناس، ثم انسحبنا، وعندما وصلنا إلى أطراف المدينة، جلس يضحك بكل ما أوتي من عزم.. قال، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ قلت: لا أدري. سـألته ماذا يفعل؟ قال: إننا نحارب، قلت تحاربون من؟ قال: نحارب الجميع، تعال معي إلى البيت، انصـببنا باتجاه البحر.. وعند الزيتونة دخلنا في الخرائب قال: إنه ترك الكرنتينا منذ زمن، عندما علقت الحرب، لم يعد يرى سارة، وكذلك مريم، في الغرفة المخرّقة يوجد فراش صغير من الإسفنج وموقد غاز، وكوبان متسخان وإبريق شـاي، وقدر به طعام قديم وبعض الجرائد. قال: يمكنني أن أنام هنا. وجّه الكلام إليّ، وهو يتدبر نفسـه، تركني وانزلق يقفز فوق الدرجات، حاولت أن أصرخ عليه.. صلاح.. صلاح، لكن الكلمة لم تطاوعني وظلّت في حلقي.. رأيت فم البارودة الروسية، فصمت.

كان هناك امرأة في أسـفل الزقاق.. المرأة تبيع البطيخ الأحمر، زوجها يسـاعدها في ذلك بعد أن يعود من عمله، ماذا يعمل؟ لا أدري.. يعود في السادسة مساء يأكلان أمام الناس، ويبيعان البطيخ الأحمر معاً، للمرأة فتحة صـدر ممتلئة، وأنا جلسـت قبالتها، أسـبح باسـم الخالق.. اعتقدت أنّ بي مسّـاً.. فهدّأت خاطرها، طلبت مني أن أذهب عنها فلم أفعل.. أفهمتها أن عملي هنا، وعلي أن أوحّد الله في هذا المكان، فهزّت ردفيها وكتفيها غير مبالية، ثم صبت لي كأس شـاي وارتاحت إلى هدوئي. بعد ذلك أطعمتني، أكلنا معاً، وقصت لي حكايتها. قالت: إنها تبيع الحشيش، وهذا البطيخ الأحمر، على عينك يا تاجر، ليس أكثر.. قالت: إنها ابنة أناس معروفين، ومن عائلة متديّنة، إنها ليسـت من هنا، لا تحبّ أن تذكر من أين هي.. لكنها أحبّت هذا الرجل الذي يأتيها مسـاء، وهربت معه عندما مانع أهلها زواجها منه، كانت تتكلم، وبيدها عود تخطّ به على الرمل خطوطاً وتعاريج، كأنما كانت تبصّـر لأيامها القادمات. بيدها اليسـرى كّتلت ثوبها ووضـعته بين

فخذيها.. دفعته إلى الوراء، بان لحم ثنية ركبتها، فتناولت السيجارة التي أعطتني إيّاها، شرقت منها مرة وأخرى وابتلعت الدخان كاملاً.. انتعشت روحي، ورأسي صار يزوغ مني، ركبت مركباً صعباً، وانتبذت مكاناً قصيّاً.. كانت تحدّثني وأنا أهوّم بعيداً وراء جبل من الثلج، جهّزت واحدة أخرى وفنجاناً من القهوة، تجاذبناهما مع هدوء رائحة الريحان.. ثم سحبتني إلى بيتها الذي يقع وراء كومة البطيخ الأحمر، أغلقت الباب، واستراحت في حضرتي، أخرجت من صدرها كتلة من الحشيش ووضعتها بيننا، جلبت علبتين من البيرة الباردة، قالت: دبّر أمورك حتى أعود، صببت لنفسي كأس بيرة، ودلقته في حلقي دفعة واحدة. بينما كنت أسمع صوت الماء وهو ينزلق على جسدها.. قالت: إن اسمها سعاد، باركت الاسم القتيل، سبّحت بحبات المسبحة وأنا أنتظرها، خرجت إلي وقد ارتدت ثوباً طويلاً، مشقوقاً عند فتحة الفخذ، ومزيناً بوردة كبيرة آخر الفتحة، جلست على الأرض، جاءتني رائحتها الممزوجة بالقرنفل والياسمين، فاستكبرت ذلك على نفسي، شهقت وقلت: يا حيّ، قالت: ما بك.. قلت: يا نفسي، إني أخاف الله رب العالمين، شدّتني إليها وأراحت رأسي على فخذها، وراحت تكسر قطع الحشيش وتدرجها في سيجارة، ثم غنّت لي، بصوت شجي، فأراحت أعصابي، كأنما كنت قادماً من أعماق محيط، كأنما كنت أسير فوق الماء، تحملني عربة من أوراق الياسمين والغار، تقودني حوريات البحر، وتطير حولي الملائكة الصغار، كنت أطارد الصوت الذي يعبث بشعري، فيأتيني رخيّاً هادئاً، ناعماً، كأنه يمشط شعر الماء، مددت كفي أتلمسه، فبكيت، كأنما شهقة الروح عادت إلى مستقرها، داعبت زبد صوتها، ومرغت وجهي عليه، ثم شققت حلمي، وضممتها إلى صدري، كنا كائنين ودودين أليفين، غادرنا بعضنا منذ ألف ليلة ولم نلتق إلا الآن. سمعت صوتها البعيد، يسألني عن اسمي، فلم أدر بماذا أجيب؟ واكتفيت بالبكاء، حرارة جسدها، أطفأت دموعي.. ولم أستطع أن أصف ما أنا فيه، فاكتفيت بإراحة رأسي على صدرها، لأسمع أنين صوتها القادم من بابل.. قالت سأطلب من زوجي أن يطلّقني، هل تتزوجني إذا طلّقني؟ لم أجب واكتفيت بالاستغراب، وعند ذلك انهمر صوت غزير من طلقات الرصاص، قالت: لقد أتوا.. من هم، قالت: الميليشيات، يريدون البضاعة. ارتدت ثيابها بسرعة، وانقذفت إليهم، باعتهم، ثم عادت، قالت: إنهم جماعة

أبي الهول، اشتروا منها ثم ذهبوا، لم أسألها شيئاً، واكتفيت من كل ذلك بالتدخين في حضرتها.. وقبل أن يأتي زوجها الذي سوف يطلّقها كي أتزوجها خرجت من عندها إلى البناء المتهدم الذي طلب مني صلاح أن أسكنه. فتحت الباب فرأيت صلاحاً، ينتظرني، هو الآخر كان قد ملأ الغرفة برائحة الصندل العتيق، صنوبر وسرو، وشيء من كل ذلك راح يدخل النعاس إلى رأسي. تكوّمت على نعاسي وذبلت، وأرحت يدي على رأسي ثم نمت.

راح صلاح يقص علي حكايته، وأنا كنت أسبح مع أطياف الجنة.. كنت أسمعه يحكي قصة، تأتيني عبر فراغ طويل، فقد ترك بيروت الشرقية، إلى الغربية، وعاش أياماً قاسية تحت القصف، لكنه عندما انتبه إلى أنني نائم، قذف أمي بمجموعة من الشتائم المباركة، وشرب علبة بيرة ونام هو الآخر.

تعوّدت على بطيخ سعاد، كنت أتعصرن عندها كل يوم تقريباً، وزوجها لم يطلقها كي أتزوجها، قال لها: إنني أدفع لك بانتظام، فلماذا نطلق بعضنا! وهي بدورها كانت تصبّرني على ذلك، وكنت أجلس قبالتها، أداعب شجيرات الريحان وأنظر في عينيها.. وعدّة مرّات كدت أقول لها: إنني مسكين لا أهل لي، لا أحد إلى جانبي، إنني لا أعرف من أنا. كانت أصوات السيارات العسكرية تقطع علي ما أريد قوله، إذ سرعان ما تأتي عدّة سيّارات، دورية كاملة مؤلّلة، تنتشر حول مداخل الحارات، ينزل واحد وآخر، يشتريان، ثم يندفع الجميع إلى سيّاراتهم، ويذوبون، جماعة من الكفاح المسلح وصلت الشعبية بعدها، فتح، الصاعقة، الديموقراطية، أمل.. كل الجماعات المسلحة مرّت من هنا، من كومة بطيخ سعاد ينزلون بكامل أسلحتهم بعد أن يطفؤوا سياراتهم، أو يتركوها تعمل ثم يقذفون أنفسهم في ظهر السيارات الجيب المسلحة بالرشاشات الخمس مئة وينزلقون من أصابع سعاد.. وأنا كنت أشفط السجائر من يديها وكدت أبكي عدة مرات، شعرت أنني سأختنق، حاولت أن أقول لها كلمة واحدة، أو كلمتين اثنتين، لكنني فشلت. مرة مددت يدي، أصابعها كانت ترتجف، قالت: ما بك؟، لاشيء، أمسكت نفسي عن الكلام، لم أستطع أن أقول لها: إنني أحبك، يا سعاد.. لأن سيارات من الفرقة الانتحارية وصلت تواً، ونزل زعيمهم بكامل عتاده العسكري، رفس بطيخة برجله، ثم

شد سعاد من شعرها وأخذها معه إلى غرفتها، أردت أن أسأله إلى أين يأخذها، فناولني معاونه صفعة أزاح بها نصف وجهي عن موضعه سمعت صراخ عريها، فأدخلت إصبعي في فتحة أذني، وصرت أصفر، ثم هربت إلى المقبرة القريبة، حفرت قبراً لنفسي، ودفنت نفسي، أهلت التراب على رأسي، ورحت أردد أسماء الله الحسنى.

ثم وجدتني في زاويتي وغبار التراب يعلو جسدي، كم صار لي هنا؟ لا أدري خبزي كما هو، وكذلك مائي، جلست على الأرض ووضعت الكيس الذي كنت أجلس عليه فوق رأسي:

"يا بدوي، يا رفاعي، يا كيلاني، الله.. الله.. يا حميد".

في أي يوم كنت؟، كان علي أن أتمّ أربعين يوماً وأزيدها واحداً، أظل في دائرة (يا حميد) في يومي وليلي، في صيامي وإفطاري، لم أفطر، لم آكل شيئاً، خيمتي على رأسي وأنا أجلس في الياء والألف، أستغيث بك، يا مغيث المظلومين، ربي، إني ظلمت نفسي فكن بي رحيماً، أستيقظ مع الفجر، هذا إن كنت قد نمت، فأصلي، وأدعو الله، أستغيث باسمه، لم أعد أرى شيئاً، الحاء تجلس على الميم، الميم مولد الكون، الكون بدأ به، وينتهي به، باسمه ينكشف الظلام وتتبدّد حلكة الليل، الياء سفينة تطوف بي في سماء زرقاء.. وأنا أجلس في مقدمتها ومعي من كل شيء زوجان.. أرى نجماً يلتمع في قعر السماء، ربما هو كوكب غير مأهول.. السفينة تتجه إليه، الالتماع يشتد، أرى جبالاً وأنهاراً، وسهولاً وهضاباً.. أرى أبنية شاهقة، وأخرى وضيعة.. أرى نفسي، أنا الجالس في الزاوية، أسمع صوتي يتهدّج باسم الحميد، يختفي الصوت وأظلّ في دائرة الكلمة، نبض القلب يأتي خفيفاً يردّد مفتاح سر الكلمة.. يا.. ح.. م.. ي.. د.. لا أستطيع أن أضرب على قفا يدي، لكنني وغطائي فوق رأسي أرى العالم صغيراً بين أصابعي، ها هي بيروت وها هو صلاح، وتلك هي مريم، وهذه هي سعاد، صلاح ينتقل ما بين بيروت الشرقية والغربية، يخوض حتى ركبته في أصوات الرصاص، هاهو يعود إلى أبيه يُقتل ويَقتل، ثم يقبض عليه، ويوضع في قريش الجديدة، هاهي سعاد تموت برشقة رشاش على يد زعيم الفرقة الانتحارية.. ومريم تسافر عبر البحر إلى قبرص.. ثم جاء المغول واعتصروني كحبة سمسم وأخذوني معهم.. أنا الجالس هنا في غبار التراب، لست هنا..

أنا هناك في البرية، أمشّط شعر الشجرة العجوز الجالسة وحدها في العراء، ثم هبت الريح فاقتلعتني مع الشجرة، صرت كورقة تطير على مساحة واسعة من الرمل.. أمسكت بي يد، قبلتني، ثم أعادتني إلى كتاب أصفر قديم، قرأت علي:

"ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً".

قال ردّدها بعد كل صلاة، واجعل عددها سبعاً وخمسين وخمس مئة مرة. وهكذا كان، صرت أصلي الصبح بوضوء العشاء، فأدخل خلوتي ولا أخرج منها إلا عند طلوع الفجر، وخلال ذلك أذكر الله كثيراً، إلى أن يمضي الثلث الأول، أرددّ: "المحيط، الرب الشهيد، الحسيب الفعّال الخلاّق البارئ المصوّر" وراحت جثتي تتضاءل مرة وتعظم أخرى، أرتفع في الهواء إلى أن أغيب عن بصري، أطوف وأطوي الأرض مرة وأخرى حتى أعدّها سبعاً، أنتقل من جبل إلى آخر، وأعبر السحاب، ثم أغتسل بالمطر، وألتحف بالثلج، أمرّ على أقوام، أجالسهم، وأتعرف على أحوالهم، يزوجونني ببنات من عندهم، ويحتفلون بي فأنهض من جنب كل امرأة تزوجتها، أغتسل في مياه البحار ثم أصلّي قائماً على قدمي، أتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثاني، ثم أحمل سجودي وأجلس متوجّهاً فشاهداً مراقباً إلى قريب طلوع الفجر، حيث أبدأ الدعاء والابتهال والتذلل، يغشاني ويكاد يخطف الأبصار إلى أن أغيب عن نظري:

"سلام عليكم، سلام عليكم، سلام علي..".

فأخرج لصلاة الفجر، كل يوم في مدينة، أصلي، في جامعها الكبير، وأنام في طرف الظلال. رافقت سيدي ومولاي الخضر عليه السلام في أول دخول أرض العراق، وما كنت عرفته، وكان ذلك بشرط ألا أخالفه، قال لي: اقعد هنا، فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين، يأتي كل سنة مرة، فيقول لي، تجددت عليك العقوبة، مكانك حتى آتيك.

سمعت صوت القصف كالرعد، من كل مكان، من السماء والبرّ والبحر، نخرت القذائف جسد الأرض، ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المُجَاهدات،

فآكل المنبوذ ولا أشرب الماء، ومكثت فيها سنة، أشرب الماء ولا آكل المنبوذ، وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام.. والخضر عليه السلام يبشّرني بالعقوبات تتجدّد علي.. ونمت بإيوان كسرى في ليلة باردة، فاحتلمت، فقمت وذهبت إلى الشطّ واغتسلت، ثم نمت فاحتلمت ، فذهبت إلى الشطّ واغتسلت، رأيت البوارج راسيات، فوقع لي ذلك في تلك الليلة أربعين مرة وأنا أغتسل ثم صعدت إلى الإيوان خوف النوم ودخلت في ألف ونون حتى أستريح من دنياكم.

هاجمني البرد في هذا الشتاء، كان شديد البرودة، ولم يكن علي إلا قميص واحد، لكن العرق كان يخرج من جسدي وحولي رجال لا يرون، يروّحون بمراوح من ريش على جسدي، ثم جاءتني الإشارة الرفاعية، انشطر جسدي إلى قسمين، مشيت بأحدهما وحملت الثاني بين يدي وسحت هكذا خمساً وعشرين سنة في البراري، آكل من نبات الأرض، وأشرب من الأنهار، وقد أصبر عن الماء سنة وأكثر، إلى أن أعطيت حرف (كُنْ) وأنا سائح في البرية فكنت أجد الموائد منصوبة فآكل منها ما أشتهي، وأقطع من الجبل الحلوى وآكل، وأشرب من الرمل السكر، فأضع الماء وأصبّ عليه من البحر الملح وأشربه حلواً، ثم تركت ذلك أدباً مع الله تعالى.

قال نصفي الذي يحملني ألا تراني مصفراً من آثار الجوع والسهر وأَكْل خبز الشعير، وسلوك الطريق، قلت، أنا النصف المحمول، كل الخلق كذلك.

.ولكنك تأكل الدجاج وآكل الشعير..

مد يده إلى عظام الدجاج، قال قومي بإذن الله فقامت، قال: إذا صرت هكذا فكل ما تشاء. فمضينا.

ثم جلسنا نستريح بأرض مقفرة، جاءنا رجل من بغداد، قال اختطف الجان ابنتي، قال لي: تذهب معه إلى غربي المدينة، خطا دائرة، وقولا: بسم الله على نيّة شيخنا، ذهبنا وفعلنا ما طلب، فجاء الجنّ زمراً زمراً، جلدهم بالسوط، إلى أن جاء ملكهم وقبّل الأرض بين يديه.. ذكر له البنت، فأحضر الملك من اختطفها، ودفعها إلي، كان الخاطف يضع

رتباً ونياشين، ويعتمر طاقية.. أراد أن يضرب عنقه، لكنه تركه رحمة بالبنت، ثم وقف على شرفة المكان يراقب الجنّ وهم في أقصى الأرض يعملون..

لم أعد إلى نفسي، رأيت ماء كأنه المحيط، أشار نصفي الآخر بكفّه فعبرت الماء كأنما هو سهل أزرق.. وصل رأسي قبلاً إلى الضفة الأخرى، ثم مشيت أكثر فظهر تحت الرأس كتفان وصدر، وصرت كلّما نزلت خطوة يظهر شيء مني، حتى اكتملت على نفسي، وقفت على رأسي، ثم غطّيت رأسي بكمي، فإذا أنا في صحراء فيها نهر عنده شجرة.. مسحت على وجهي من رملها وتوضأت من النهر، ثم صليت، فلما سلّمت، ورفعت الغطاء عن وجهي فإذا أنا بمجلس الشيخ زهير، فجلست أنصت إلى حديثه.

كان إبليسه يراقبني بعيني زهير، فرحت أقرأ أسماء الله الحسنى، وآية الكرسي وأنفخها بين عينيه، فغشي عني.. ولففت نفسي بآي الذكر الحكيم فصرت أراه ولا يراني وأسمعه ولا يسمعني، واستطعت أن أكون عنده، وأن أكون هنا.. كان يطلب من أتباعه.. أن يشكلوا جماعات معارضة تؤيّده في أقواله وتعارض أعمال أتباعه، فانتشروا في الأرض يبحثون عن معارض، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، حنق عليهم فسامهم سوء العذاب، ثم طلب إلى غيرهم أن ينزلوا إلى الناس في الأسواق وفي الحوانيت وفي المسائل الأخرى يجبرونهم على تشكيل جماعات معارضة، فنزلوا ولكن أحداً ما لم يقبل بذلك، فهل يعقل أن يعارض أحد أمراً لمولانا، ولكن مولانا هو الذي يطلب ذلك منكم.. إنها مزحة ثقيلة والناس في هذا البلد لا تحب المزاح الثقيل.. وعندما نفد صبر زهير أعلن عن إجراء الخازوق لكل من لا يريد المعارضة، قبل الناس الخازوق ولم يقبلوا تشكيل جماعات معارضة.. فأعلن زهير أمره المطلق واصطف الناس بالدور وراء بعضهم يجلسون على الخازوق يستمتعون به ثم يمضون..

وعندما جاء فصل الصيف، وأصبح الذباب الأزرق يأكل من أنوفهم، وسلخت الحرارة جلدة رؤوسهم، صرخ واحد منهم.. هذا يكفي، فأسرع القوم إليه يقبّلونه ويباركونه، هاهو معارض أنطقه الله. فأخذوه إلى سيّدهم، وأعطوه أوراقاً ليشكل جماعة معارضة، لكنه بكى، نعم يا سيدي، بكى، وحق السماء، لا أريد أن أعارض

أحداً.. ولكنك شتمت، نعم شتمت لأن الخوازيق قليلة، أطالب فقط بالإكثار من عدد الخوازيق.. لاستعجال الدور، فما كان من زهير إلا أن بصق في وجهه وجعله يصطف آخر الدور.

عندما طالت يد زهير، صار يجعلها تقوم بحراسة حارة المزار، تفتش البيوت وتندسّ بين النائمين ليلاً، تثير شهوة المرأة على رجلها، وتثير شهوة الرجل على امرأته، ومن لا بعل لها، كان يبعلها بيده..

تصعد النوافذ والأسطحة، وتندسّ تحت الأغطية، تفتّش الخزائن، ومن جلب مالاً أو ذهباً أو عملة صعبة بغير وجه حقّ، كانت خزائنه تنظّف باليد التي باركها زهير، وتعود بالمال، وعمل إبليس معه فكان يدلّه على الخزائن السرية والنساء الأبكار والجميلات ذوات الحسن والبهاء.. وكان يفعل بيده اليمنى أشياء يكتمها عن يده اليسرى، وفي خلواته، حين يجلس بينه وبين نفسه، يترك ليده الحرية فتنطلق في بيوت المدينة يقودها إبليس الصغير، ومن فراش إلى فراش، ومن صدر إلى صدر حتى تتوقف عند كاعب في التكويرة الأولى، يدوّر لها رأس حلمتها بباطن كفه، ثم يقلب الكفّ ليتلمّس حرارة الصدر، وعندما يحسّ بالسخونة، تدمع عينه اليمنى فقط، لأن اليسرى يتركها مفتوحة كيلا تغفل عن رؤية المكان، ويظل يمدّد الكفّ على تكويرة البطن ويمدّ سيفها بين الساقين، فيجعلها تنام على فراش وثير ناعم دافئ مثل نعاس في شمس نيسان.. يعمّر بيده الأخرى نفساً من التبغ المخلوط بكسارة الحشيش، ويبدأ بشفط ذكريات قديمة عمرها ألف عام، وربّما أكثر.. وتهتزّ المواجع في نفسه وتعرّش الصدر فوق رأسه، وينهمر الدمع غزيراً من عينيه.. ثم يضرب بكفه الحرّة على ركبته، ويبدأ الدوران في ملكوته حيث لا يسمح لأحد بالدنوّ إليه وتدور الدنيا.. دولاب، هكذا هي الحياة، يتذكر أيامه الخوالي، لا تدوم لأحد.. يا حي، يا قيّوم، وتنتقل اليد من صدر إلى صدر ويسمع الشهقات بأذنيه فيلملمها واحدة إثر واحدة ويدفعها إلى نفسه، كأنما يغزل قصيدة

عشـق، لم تبارك بعد.. وعندما ينتهي، قبل الصـباح بقليل، ينسـلّ إلى نفسـه، ويضـع رأسه على ركبته، ثم يغلق عيناً ويبقي الأخرى مفتوحة تحرس المكان.

***

انتظر النـاس وراء بعضـهم انزلاق الصـباح من فتحة السـماء، ثم بدؤوا يرتّلون حكاياتهم أمام زهير.

دخلت امرأة فلم تر شـيئاً، تأملت غبار المكان، لم يكن هناك شـيء، رائحة فقط، وصوف خروف ملقى في صدر المكان.. جاء الرأس فسألها عن حاجتها.. سمعت الصوت فقط، أدارت نفسها في المكان، وعندما رأت الرأس، صرخت صرختها العظيمة وهمدت على نفسها..

في الدور الثاني وعندما دخل رجل أعرابي قادم من غافل علم الله.. وجد قدماً ورأساً، بكى على القدم وتمسح بها، وأظهر شوقاً وحرقة، ثم شرح أمره لزهير.. أعطاه قليلاً من الكرّات ليسمّم زوجته، ويدفنها على رأس قبة عند منتصف ليلة السابع من الشهر القمري، وخرج الرّجل متهلّلاً، فقد قضى على مشكلة تؤرق حياته منذ خمس سنين، بينما اعتبر زهير ذلك هدية مجّانية يستفتح بها يومه.

الرجل الآخر الذي كان دوره، يعيش مع صبيّة، وهو لا يدري مَنْ السبب، العقم منه أم منها؟ خاطب الرجل الثانية التي استراحت بجانب القدم، والتي حضرت توّاً، طلب إليه الرأس بصوت مسموع أن يترك عنوانه عند الباب، وأعطاه البشارة فامرأته ستحمل بعد خمسة عشر يوماً وزاد على البشارة بأنها ستحمل بصبّي، سيكون شبيهاً

بـه، أي بزهير، عـاد الرجـل ومرّغ وجهـه على القـدمين، وقبلهمـا بعنف، كمـا لم يقبّـل بحياته أحداً بمثل ذلك.

وهكـذا اســتمر النهـار، فمن فقـد مـالاً وجـده لـه زهير، ومن أضـــاع طفلاً وأعطى علامـاتـه، ردّه إليـه، ومن فقـدت محبوبـاً، كـان هو بـدلاً عنـه، لكنـه رفض قطعيـاً أن يتحدث أحد بأمر سجين بخاصة أولئك الذي ينضوون تحت اسم "السياسيين" الذين يريدون هدم البنى التحتية للأسـاس الذي تقوم عليه سـياسـته.. وانفضّ الناس بعد أن صفّقوا للكلام الذي قاله.

بعد استراحة الظهيرة، اجتمع الشبان من الأجناس الثلاثة في باحة القصر الخلافي، لأن زهيراً كان قد أعلن نفسـه خليفة لبدران حتى عودة ذاك الأول، وطرح شـعار "الدولة أنا وأنا الدولة" ألقى زهير في الذين أمامه خطبة، ســماها "الحلالية" حضّ فيها هؤلاء الشبان على العمل، ووزّع فيها بيوتاً في المدينة السكنية الأولى، التي تحيط بالبادية، كما وزع عليهم الأراضي كي يستصلحوها بمساعدته، واعتبر نفسه شريكاً لهم فيما ينتجون، بعد ذلك عزفت الموســيقا نشــيد الوداع وأعلن المجلس الأعلى للدولة أي زهير مباركة الزواج، ثم طلب من كل صـبية أن تختار الشـاب الذي يناسـبها، وتأتي إلى أمامه ليبارك زواجهما، سجّل تابعه الأسـماء على ورقة خاصـة باللون الوردي، ثم تمّ تسـجّيل أسـماء الجنس الثالث على بعضـــهم. وطلب من الشــبان أن يتجهوا إلى حمّام البســتان، ومن الجنس الثالث أن يتجهوا إلى حمّام الســلام، ومن العذارى التوجه إلى حمّامه الخاص ليباركهن، صـفق الجمهور، وصـاحوا "هيه" جميعاً.. وعلت الهتافات والموسـيقا، وقرع الطبـل، وجـاءت المطربـة نجوى المغربيـة، وراحـت تغنّي، والحفـل الكريم يبتهج ويغنّي

ويرقص وذهبت العذارى للاستعداد لليلة الموعودة، لكن الحفل الصاخب ظلّ يبتهج ويرقص ويغني، وبعد ذلك أي حوالي الساعة الثانية، ذهب كل واحد إلى حمّامه.

كانت العذارى في تعداد السنين، ربّما أكثر، ربّما أقل، بين السابعة عشرة والعشرين، وفي الحمّام الخاص، ذهلن ممّا رأينه..

قبسات من النور في كل مكان، تنزلق على رخام إيطالي ملّون في الأرضية والجدران والسقف على أطرافها الأرائك الوثيرة، وفي الباحة برك تقذف المياه الملّونة.. تستمدّ ماءها من بركة كبيرة في وسط الباحة، الماء مغطى ببللور ملون، تنقذف عليه أضواء ملّونة بألوان بهيجة، ومن السقف تتدلى عرائش من الأنوار الملّونة، وعلى الجدران تتسلق فاكهة من نور ملّون..

فتنت الفتيات بالمكان، لكن الأوامر أتتهن عبر أصوات مزروعة في الجدران، بخلع ثيابهن قبل الدخول إلى الجرن الخلفي، فخلعن كل شيء عليهن، وألقين الثياب خارج المكان، وقبل أن يفعلن أي شيء طلب إليهن التوجه إلى داخل الحمام وترك الباحة.. ففعلن، وفي الجوّاني كانت الصدمة الكبرى.. فلكل واحدة مقصورة، والمقصورة كانت مصنوعة من البللور أو المرايا.. واحدة هكذا وواحدة هكذا، أعطيت كل واحدة رقماً، ودخلت مقصورتها المرقّمة بالرقم ذاته، ووجدت داخلها امرأتين، وعلى عجل بدأ الحمام الأول لإزالة الزفرة المزارية كما سمّوها.. وبدأ غسيل الأجساد ودعكها وفركها، وإزالة الشعر من عليها، وبعد ساعتين، أو أكثر قليلاً طلب إليهن الخروج إلى البرّاني للاستراحة، وتنظيف ما خرج منهن.. غُسل الجواني وشُطف ولُيّف بالماء والمواد المطهرة.. بينما كانت العذارى يأكلن البرتقال والجبنة الخضراء، والكبّة النيّئة، والهبرة النيّئة.. والخيار وأنواع المخللات، وفي نهاية ذلك طلب إليهن الاغتسال في أماكنهن والعودة سريعاً إلى الجواني وترك كل شيء مكانه، ففعلن، وعادت كل واحدة إلى مقصورتها، فوجدتها نظيفة مرتبة، غسلن مرة أخرى بالماء الحار وصابون "فاو" و "لوكس"، وبأنواع الشامبو، والصابون الغار الأصلي.. ثم ليفّن الأجساد مرّة أخرى، وطلب من كل واحدة

أن تنقع جسـدها بالحوض المليء بأنواع العطور، أي كل حوض بعطر معين، كانت تورّده أشهر شركات العطور العالمية.

نقعت الأجساد لأكثر من ساعة، ثم رُشّت العطور في المقصورات من فتحات في السقوف والجدران، والتفّت كل عذراء بمناشفها وخرجن إلى باحة الحمام الأولى، فوجدن فرقة موسيقية من الأبكار، وأخذت كل واحدة مكانها على أريكتها، أمامها أصناف الفاكهة.. ومنع عنهن الزّفر كي لا تؤثر رائحته على أجسادهن.

عزفت الموسيقا ألحاناً رقيقة، ثم همست مغنية بأرقّ الكلمات. ثم وصلت إليهن أرقّ الثياب، فارتدينها، جاءت وصيفات فجمّلنهن.. وبعد ذلك حُملت كل واحدة على محفّة، إلى غرفة واسعة انشقت من جدار الحمام، كانت الغرفة واسعة جداً، وفي وسطها سرير واسع، وسع رحمتهن جميعاً، اصطففن بحسب الأرقام فشكلن قلباً.. بقي وسطه فارغاً، إلى أن دخل عليهن زهير، فبهرهن بطلعته، أشار بيديه: أن لا حركة، ووضعت كل واحدة يدها على فمها، لتمنع آهة تريد أن تنزلق.. وخلع الرجل كل شيء عنه، وبقيت العمامة والذقن ومن خلال ممر صغير، ألقى نفسه في وسط القلب، وطلب موسيقا فتهاوى كل شيء يسبّح بأعذب الألحان. لقد أعطي زهير قوّة ألف رجل، لذلك فلم يشعر بالتعب، بعد أن أنهى الفوج الأول من العذارى المائسات، أتبع ذلك بالفوج الثاني فالثالث حتى أنهى الستين واحدة، ولأنه كان لا يجيد العدّ الدقيق، فلم يلاحظ الأرقام التي تجاوزت الستين.

بعد ذلك تجلى عليهن مرّة واحدة.. فكان مع جميعهن في وقت واحد، لهاث واحد متقطع يمتزج مع الموسيقا الهادئة، وصوته يعلو على صوت الجميع، بل على صوت المعركة.. ثم هدأت الموسيقا الرخّية، واندغمت الأصوات مع بعضها، الآهات تتكوّم في الصدور، ثم تنقذف متقطّعة، متراتبة، كنوابض تعلو وتهبط، ولم يعرف أحد في أي ليلة كان ذلك، في أي يوم، في حلم أم في يقين؟، ذهب ليل، وجاء صباح.. تعدّدت الأيام وكذلك الليالي.. وكان أن تعب زهير فأفلت جسده واسترخى كل شيء فيه، فأشار أن تبتعد العذارى فابتعدن، جُهّزت كل واحدة إلى عريسها، وفي المقابل كان الأعمى قد زُفّ إلى الجنس الحيادي فراح يفتك بهم، يأكل على ظهورهم اللحمة الكباب والعسل،

والبيض البلدي النيئ، ويندفع وراءهم الواحد تلو الآخر، حتى أنهاهم جميعاً هو الآخر، وكان صباح لا حياة فيه، عندما نهض زهير، وتوضّأ، ونزل إلى القبو السري، حيث قسم التحقيق مع المساجين السياسيين، أخذ كبلاً رباعياً، ودخل غرفة التعذيب، ولم يخرج منها حتى أنهاهم جميعاً.. كانوا يتلوّون جميعاً على الأرض بين قدميه، ثم جلس على كرسي متعالٍ وأخذ بيده قدحاً من الويسكي، راح يرتشف طعمه ثم يراقب حركة أجسادهم وهي تتلوى ألماً، أثار الكبل الرباعي تفتح لحمهم وتفزّرهم، ضربات على الرأس والوجه والمؤخرة، على الصدر والأفخاذ كأنهم عادوا من معركة مع حيوانات الغابة.. يا الله.. صرخ بأعلى صوته:

ــ أين الطبيب؟، جاء الطبيب على عجل، لماذا لم تضمّد جراحهم حتى الآن؟ وأسرع الطبيب بمعالجتهم..

دلق ما تبقى في جوفه، ثم نهض.. أريدهم أحياء، بين يدي بعد ساعتين، وانطلق بطوله وكأنما كان على موعد مع أحد ما مهم..

عندما كان صلاح في بيروت غاب رضوان عنه شهراً، أو أكثر، عاد بعد ذلك وقد نبتت على أطراف فكّيه بعض الشعيرات، صار له ثوب قصير وسبحة وكثير من آي الذكر الحكيم وأسماء الله الحسنى..

ضحك صلاح وهو يراه بهذه الحالة، لكنه في اليوم التالي، كان معه عند الآمر بالله.. لم يعرف صلاح أين كان ذلك، هل هو في مدينة بيروت، أو غيرها.. كل الذي يدريه أن سيارة مغطاة جاءت وأخذتهما، وانطلقا.. يوماً، أكثر.. لا يعرف.. وعندما وصلا إلى مشرق الشمس، سُدّت عيناه برباط متين.. وظل هكذا، ربما يوماً كاملاً، ولكن عندما رفع الرباط كان بين يدي الآمر بالله.

نور على نور، المكان واسع مريح طافح بالنور، مقاعد وثيرة على الجانبين، تقدّم وحيداً، لم يتقدم، في البداية ركع، ثم زحف، ثم ركع.. ثم لم يستطع أن يفعل شيئاً، حاول أن ينظر إلى صدر المكان، طغى النور على عينيه، رأى بياضاً يتماهى في شقرة

النور، حاول أن يحدّق أكثر، رأى هيئة تجلس على كرسي متعال، لم يستطع أن يتبيّن ملامح الجسد ولا ملامح الوجه، أمره أن يتقدّم، فلم يستطع، ركع وظلّ راكعاً، طلب الصوت إليه أن يمزّق كلّ ما كان عنده من جرائد قديمة، وأن يمسح من رأسه تلك الفترة ويلتزم كلمة الله ولا يبتعد عنه، يجعل صورته في قلبه، وينفذ كل ما يطلب إليه..

حاول صلاح جاهداً أن يقبل رجل النور لكنه لم يستطع الوصول إليه فخرّ مغشياً عليه.. وبعدها تماماً أخذ إلى دورة تدريبية مسلحة في أحد المعسكرات، تخرج منها برتبة أمير، ودفع إلى العمل العسكري مباشرة، دون أن يرافقه رضوان.. عاد وأدخل عبر الحدود وبدأ ينفذ العمليات العسكرية حتى قبض عليه وكان سبباً في موت أبيه.

في الرضوانية، الاسم الجديد للمدينة الفاضلة.. اشتدت المنازعات بين الدكتور والمؤمنين الجدد، فقد كان الدكتور يجمع، الضعفاء وأبناء السبيل، وأطراف المدينة، ويلقي عليهم البيانات حول الصراع الطبقي، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وعالم الغد الفتي حيث ينتفي الصراع ويعيش الناس كأسنان المشط.. بينما في الطرف الآخر كان المؤمنون يحذّرون من طمع الإنسان، ويتحدثون عن الجنة والنار والصراط المستقيم ويبشرون أصحاب الأعمال الصالحات بجنّة عرضها السموات والأرض، ويبشّرون الكفار بجهنم خالدين فيها سعيراً، النار التي وقودها الناس والحجارة، ثم سعى بالفتنة أناس من الطرفين، انتهت الفتنة بمحاولة خطف الدكتور من جماعة مجهولة، وعلى إثر ذلك تمّ تشكيل مجموعة حماية ومجموعة اقتحام، غرضهما انتقاء العناصر المضادة وخطفها ومعاقبتها، وكذلك فعل الطرف الآخر وكان غسان العاشوري يضحك مع زهير، وهما يتفرجان في إناء الماء على ما يجري في الرضوانية، بل إنهما راحا يرسلان سراً بعض المواد الأولية التي يمكن بها صنع متفجرات بدائية لكلا الجانبين، ومنذ ذلك اليوم صارت الانفجارات تسمع كل يوم في كل أطراف الرضوانية.. وتزايد عدد القتلى والشهداء من الطرفين.. وكانت الزهور توزع على الأضرحة، وتقرأ آية

الشــهداء، وينصــرف القوم غاضــبين، يقســمون على الانتقام بأوراق يقرؤونها فوق الضريح، وعهداً لن ننساك يا رفيق، وسوف يكون الانتقام عاجلاً.

والشهيد حبيب الله، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، وسيكون الانتقام رهيباً.. وإن غداً لناظره قريب.

جاء الغد، وعدت إلى العجوز التي ســكنت عندها في حارة المزار، طرقت الباب، فلم أسمع جواباً، دفعت الباب فاندفع، كان الغبار يغطي المنــزل، والمرأة العجوز تستلقي على أريكة خشبية وهي تفتح فمها باتجاه السطح، نباتات الختمية والشجيرات اللفلافة ملأت الجدران وتعرّشــت إلى داخل البيوت، مياه رغوة الصــابون جامدة كما تركتها.. كأنما المنــزل أوقف تنفسه منذ تلك الأيام، هتفت على المرأة العجوز، فتحرّكت، وسمع لعظامها طقطقة الخشــب، هرّ الغبار منها، قالت: أين كنت؟ قلت: أســوح في بلاد الله الواسعة، قالت: كنت مشغولة عليك.. قلت: أريد أن أنام.. قالت: اذهب ونم.. فالفراش كما تركته.

دخلت الغرفة فوجدت كل شــيء، على ما تركته، وكان بيض الدجاج في أرض الدار قد زرع في كل مكان.. لمّته العجوز ودفعته تحت أريكتها، قالت: هل أنت جائع، لم أجب لأنني كنت أودّع بيروت في أحلامي.

أصاب قمر الزمان شهرة واسعة، ليس في حي المزار فحسب، بل في الأحياء المجاورة، وجاءت هذه الشــهرة من مهارته في العمليات الجراحية التي كان يجريها على الأجســاد البشرية، لكن أحداً ما لم يسأله عن الشهادة التي يحملها إن كان يحمل شهادة ولا عن مصدرها، إن كان لها مصدر.

وعلى ذلك فقد كان يصــطف أمام باب العيادة مجموعة طويلة من أبناء الريف وأبناء البادية.. وأبناء المدينة، يتسلســلون على الدرج إلى الباحة الداخلية والخارجية.. ثم إلى الطريق العام، وغالباً ما يحملون مرضــاهم مع الفجر، ويصــلون إلى العيادة مع بداية حركة النهار، وبعد ذلك ينتظرون حضور الطبيب، ساعة، ثم ساعات حتى تبتعد الشــمس عن منتصــف النهار، فيأتي الطبيب ويأتي الفرج معه، فيفقد المرضــى جزءاً

حميماً من أجســـادهم، ثم يعودون محمّلين بالكباب والبرتقال والموز وبالدعاء المبارك من شـيخ الجامع القريب. كان قمر الزمان قد جهز سـطح الدار، سـقفه، وأعدّه ليكون مشفى للغرباء، فرشه بالأسرّة والعناية المركزة، ثم تزوّج ثلاث نساء دفعة واحدة ليقمن على رعايته، واحدة للطبخ وأخرى للتنظيف وأخرى لتساعده في شؤون التمريض، فكانت يداه تلغ في الأجساد البشرية نهاراً، وفي الليل ينام مرتاحاً فوق أجساد بشرية، وكان ينتظر قليلاً من الراحة كي يشكر الله على نعمته، إلى أن جاءه يوماً زهير، وغسان العاشوري وتشاوروا معه كي يكون طبيب الرضوانية، يذهب يوماً واحداً أو يومين في الأسبوع لا أكثر، يطّلع فيهما على أحوال السجناء.. لكن قمر الزمان رفض ذلك بإباء، وهنا نهض زهير ونهض غسان وراءه، قال زهير، نحن بحاجة إلى عميد للصحة كي يفتش في صحة الشهادات التي يحملها الناس.

عند ذلك وافق قمر الزمان على ما يريدانه، واستلم الرضوانية وما بها من بشر منذ اليوم التالي.. وكذلك فعل الأعمى عمران، فبعد أن غيّر عدّة حمّامات، استقر في حمّام الخصيان الواقعة أسفل قبو الحطابين.

كان يأتي في التاسعة، بعد صلاة العشاء، يجلس على المصطبة، يغيّر ثيابه، يلبسونه الثياب النظيفة الموشاة، ويضعون على رأسه عمامة، وبعد ذلك يبدأ موسم الطعام.. فيدفعون إليه باللحم الكباب وبالكوارع وبأنواع السلطات، كان يكتّل أنفه، ويبرم فمه قليلاً، ثم يبدأ بتغذية نفسه، بعد ذلك يغسل يديه في طبق يقدمه إليه أحد الغلمان، ثم ينام إلى ما بعد منتصف الليل، ومع هدوء الليل الرخي، تكون الأمور جاهزة، ولأن المسكين لم يكن يرى شيئاً، فقد كان يكتفي بالعسل والفواكه، ثم ينهضونه، ويتجه إلى غرفة سرية أعدّت للمهام الصعبة، يغسلون جسده، ويليّفونه بأطايب أنواع الصابون، ثم يفركون الجسد بأنواع الطيوب، ويشمّونه، ثم يعيدون التطييب أكثر من مرة، وبعد ذلك يدخلون عليه "شخصية مهمة" كما كانوا يخبرونه قبل الدخول.

كان لا يتكلم، يتلمسّ فقط، وكي يطيل وقوفه أكثر، صنعوا له رفّاً فرشوه بأنواع قليلة من المازوات، ومدقّة عرق كبيرة، فكان يحتسي العرق الأبيض، ويتناول الهبرة

النيئة، وأنواع الجبن والموالح، وفي وقفته هذه يدفع جسـده دون رحمة في شـيء لين ضـيق، وهذا الشـيء يتأوه بأنين مكتوم.. متقطع في البداية، ثم متسـارع، ثم يهدأ.. وينطفئ.. عند ذلك يجلسـون عمران، يغسـلونه مرة أخرى، ويقشّـرون لـه قرون الموز بانتظار الوجبة الثانية، وهكذا إلى أن ينتهي الليل، وعموماً لم يكثروا عليه حتى في أشـد الأيام ازدحاماً، ثلاثة فقط لا أكثر، لأن الرجل له طاقة وحرام، فصـحيح أنه نبع، لكن النبع قد يجفّ أيضـاً.. وبعد صلاة الصبح يؤخذ إلى مصطبة داخلية، يفرشـونه عليها، ثم يُغطّونه، ويتركونه ينام إلى يوم جديد، فيستيقظ في ضحوة اليوم التالي، يمرّرونه من باب جانبي فيندلق في الأحياء حتى يصل إلى المقهى، يحتسي قهوته، ثم يمضي إلى بيته، يجهز كمية من سجائر الحشيش ويجلس مع نفسه يغني لأم كلثوم.

***

- **الرضوانية:**

عندما فتحت عيني اللتين ظللهما الخدر، سـمعت صـوتاً يغني لأم كلثوم، أتتني عذوبة الصـوت متسـاوية مع ظلال النهار، عبر رائحة الرطوبة المنبعثة من نباتات أرض الدار، فاستغربت، تلمست جسدي، فأين أنا؟ تسلّلت بأذني لأعرف ذلك، كانت هناك، وكلّ شـيء كان نظيفاً، تذكّرت العجوز والبيت والغبار، فما رأيت من ذلك شـيئاً، أنا في نعيم من النظافة، نظرت من ثقب الباب فرأيت الصوت في أزهار وورد، وعرائش تتسلق على النوافذ، بحرة تنوفر مياهها إلى داخلها، فتحت الباب، فانهمر الحسـن أمام بهاء عيني، سـبّحت باسـم الخالق، ربّما متّ، من زمن، وهاهي الجنة أمامي، رأيت طائراً يغرّد على غصن فناديته، لم يستجب لي، وطار بعيداً.. باحة الدار هي هي، ولكنها كانت كلفتة حزن قديم أصابها فرح، سـمعت الصـوت مع انزلاق قدم عارية على السـلّم الحجري، فانشـالت عيناي إلى الصـوت، لمحت امرأة، رأيت بطة رجلها عارية.. بيضـاء، لم يعكّر صفوها أحد سـواي، المرأة كانت ترتّب قناديل الورد على أطراف السـلم الحجري، تغنّي

وترتّب، وأنا صـرت أرتجف، صـعد الطائر إلى حافة الجدار، ثم وقف على طرف نجمة وسـط الدار، كان الوقت بعد العصـر، فمن أين جاءت النجمة؟ ومن أين جاء الطائر؟ وهذه المرأة؟ وأنا؟ وكلٌّ في فلك يسبحون قلت هذه آية من آياته، فأستغفر الله العظيم.. نزلت المرأة إليّ، لم تفاجأ بي، وقفت أمامي، ثم قبّلتني، قالت حمداً لله على سـلامتك، هل نمت جيداً؟ لم أعرف بماذا أردّ، أشـرت برأسـي، ثم سـحبتني من يدي، وأجلسـتني جانب زرعها. قالت: تأكل، فأشـرت أن نعم، فاسـتجاب الطعام لها وكان بين أيدينا.. قالت: تذكّرتني؟ فذبت بين أصابعها، بينما كانت تصب لي القهوة. كيف لي أن أتذكّرك، أنا كنت عند العجوز التي تخلط الخل بالزيت.. كان الغبار يملأ المكان.. وها أنا بين يدي الرّحمة، فأفضل شيء أن أسبح باسمه الخلاق العليم.. الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً. لا إله إلا الله. فرشت مائدة للنظر.. وجلست أمام المرآة، خلّلت أصابعها في شعرها، وهزته يميناً ويسـاراً، ثم راحت تسـوي زينتها.. رأيت تحت إبطيها فأثارتني الصـحراء الصغيرة التي بدت لي، ثنيات اللحم المبارك، قرفت ضحكة من أقصى حلقها، ثم خلعت ثيابها الخارجية، وظلّت في رقائق ناعمة، سـألتني لماذا لا آكل، قلت: أنتظرك، جاءت وأطعمتني بيدها.. لم أنظر إليها.. فضحكت مرّة أخرى، قالت: أتظنّني عورة، رجسـاً، أم ماذا؟ قلت وأنا آكل من يدها.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، جاءتني رائحة طيبة من لدنها.. فصـرت أسـبح اسـم الخلاّق العليم، ابتهلت بكل ما أعرف من السـور القصـار والتعاويذ، قالت: اذهب إلى الشـيخ يكتب لك حجاباً يمنع عنك شـرّ النسـاء، قلت: سـأفعل.. ثم هزّتني إليها وجذبتني نحوها.. اقتربت بوجهها من وجهي، وبشـفتيها من فمي، كنت أقرأ وأستعيذ، وأضع صورة شيخي في عيني، وكلمة الله في قلبي.. مرّغت خدها على خدي، لم أتحرك، كنت قطعة خشـب، لا حول لي ولا قوة، قالت: ما بك؟ لم تكن هكذا قبلاً، أبعدت يدها وانهالت على خدي بصفعة، كانت كأنها جبل سقط علي، فلم ألتفت إليها، ظللت أهرتم بأسماء الله الحسنى، وأستعيذ من الشيطان الرجيم، نهضت وطلبت إلي أن أنقلع من وجهها، لم أتحرك كنت كتمثال من الشـمع الأصـفر الباهت، تركتني والطعام ونهضـت، ارتدت ثيابها الخارجية وذهبت، لا أعلم إلى أين، وأنا من طرفي،

تبلّغت لقمتين، ثم ذهبت إلى الشيخ جمال الدين، فبلّغني مقامي الجديد، صرت في رتبة "الخليفة" وصار يحق لي أن أجيز إعطاء العهد الرفاعي الكريم.

عدت إلى البيت، وجلست متربّعاً باتجاه قبلة البيت الحرام، قرأت سورة الإخلاص مئة مرة، ثم أردفتها بسورة الأعلى سبع مرات، أخذت سبحة وصرت أرسل الصلاة إلى سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي، صلاة تحلّ بها العقد وتنفك بها الكرب، وعلى آله وصحبه وسلم، أعدّ مئة مرّة، ثم أتلوها بـ لا إله إلا الله مئة مرة أخرى، وأستغفر الله العظيم مئة مرة أخرى، وأكرر ما بدأت به حتى ينتهي ليلي، فأقرأ سورة الفاتحة سبع مرات، لم أتوقف عن القراءة والدعاء ولو للحظة واحدة.. كنت أحاول ألا أنام أو تغفو عيني، وفي ليلة الجمعة وقد كنت متسلّحاً بوضوئي، التمع أمام عيني عمود من نور، انشقت السماء ووصلتني به، شمّرت عن قدمي، ورفعت ثوبي ومشيت فيه، تباركت السموات والأرض، فإذا أنا بينهما، أطير فوق الغيوم، أقفز بينهما، السعادة تغمرني من أخمص قدمي حتى مفرق شعري، ابتهجت للعلي القدير فأنزلني منزلاً كريماً، رأيت أرضاً بوراً، فاستجمعت نفسي، ونزلت بها، كنت حاصباً من نديف القطن منثوراً، ثم استجابت المياه الأخرى التي في الغيوم، فأنزلت ما بنفسها على الأرض، فأسقيناها ماءً فراتاً.. انتعشت الأرض فتفتق فيها الزرع من كل لون وشكل، فكان فيها الحَبّ والرّمان، ومن كلّ فاكهة زوجان، انشقت فيها السواقي والغدران، وانتشر الخضار يملأ سفحها وظهرها، وأنا تنشّقت رائحة الجمال، فنصبت لي أرجوحة بين شجرتين، واستلقيت، مسترخياً كي تداعب الشمس جفوني..

جاءت العصافير والقبرّات فتسلّقت الشجرتين اللتين أحلم أسفلهما.. ثم جاء البط والأرانب، فصار يسبح ويركض في السهل الذي أنا فوقه. الفراشات غمرت المكان بالألوان، شجيرات اللوز أزهرت بالأبيض الأكحل، الحياة سارت بألوانها السبعة، تناثرت في الوجود الجميل أغنّي أعذب الألحان.. جاءت الطواويس مختالة، وفرشت ذيولها على الأرض. فغصّ المكان بالرحمة والبهجة والحبور، ظلال من النساء يطفن المكان. غلمان يحملون في صفائح من ذهب وفضة أنواع الشراب.. استرخيت، وأغلقت

جفني على هذا الضـيـاء.. فجاء زهير ومعه غسـان العاشـوري ودخلا في الحلم، لمن كل هذا المكان.. سـألاني، ولم أجب، كرّرا السـؤال ولم أجب، عند ذلك أمرا من كان معهما، فصلباني على شجرة نخيل، ثم استسلمت للضرب الذي راح ينهال على جسدي.

اسـتمر ذلك يوماً وليلة، وكنت ألوي رأسـي على جذري، وأسـبّح باسـم الله الواحد القهار، يطعمونني لقمة أو لقمتين وقليلاً من ماء الملح، ويتركونني تحت هجير شـمس النهار، كنت أتقوتّ بالطعام كي أظل حّياً، وكان العذاب يقودني إلى حياة جديدة لا يمكن لأحد أن يعيش أجمل منها.

كان زهير يأتي كل يوم، يقف عند أسفل قدمي، يسألني عن مالك هذه المزارع فأشير إلى السماء برأسي، يعلو صوته، ويستشيط غضباً، يسبّني بآبائي وأجدادي وأمّي إن لزم الأمر.. ثم جاءني برجل ملتح مرة ومعهما أوراق وطلبا إلي أن أوقّع هذه الأوراق، لم أستجب لهما، لأن الأرض ليست لي، ولست وارثاً لها.. صعد إلي وبصق في وجهي، ثم طلب فكّ يديّ من المرافقة وأجبرني على التوقيع على جميع الأوراق.. أنزلني، ثم حقّقوا معي، ودفعوا بي إلى الرضوانية بتهمة سجين سياسي، فقد كنت في عصور سابقة دون علمهم.

لم أتكلم، ولم أقل شـيئاً، كنت بحاجة إلى أن أكون مع نفسـي، حملوني في وقت الظهيرة والهجير يلفح رأسـي، مررنا خلال ممر طويل مشجر.. كنت محمولاً على محفّة، فتحوا بوابات وأغلقوا أخرى، قذفوا بي إلى المدخل وهناك، خلعوا ثيابي، وحذائي، وأعطوني قطعة قماش وقطعة جلد، ودفعوا بي إلى داخل الرضوانية.

عند الصباح التالي زارني الطبيب، عرفته كان قمر الزمان، ابتسـمت له بابتسـامة خفيفة وشاحبة، وراح يلفنّي بالشاش المرطّب كي يخفّف من عناء جسدي، ولما اختلينا قليلاً، قال لي: إن صـلاحاً هو الآخر يموت، قلت، وهل هو هنا، أجاب بهزّة من رأسـه، ترك لي كوزاً من الماء المحلّى، نصحني بأن آخذ منه رشفة كل نصف ساعة، أشرت إلى يدي، إني لا أملك ساعة، فرسم لي خطوطاً على الأرض، وفهمت من ذلك أن أشرب كلما وصل ظل الشمس إلى خط منها. ذهب عني، ثم جاءتني جوقة من المرتّلين، قرؤوا عليّ ما تيسـر من سـورة يس.. ثم راحوا ينشـدون المدائح علي.. جاء آخرون فأخذوا قطعة

القماش وقطعة الجلد، أعطوني عوضاً عنهما، ألبسوني إياهما.. ثم سلَموني إلى إمام الجماعة، كي يحقّق معي.

سألني عن اسمي، فأغمضت عيني، ورحت أستعيد ما أعرف من ذكريات حياتي.. غامت الصورة، ثم اختفت، ثم غامت مرّة أخرى.. تذكرت عدنان الفلاح وعاليا، وبدران ورئيفة، ذهابي إلى العصر العباسي، المغول، بيروت.. حارة المزار، عمران الأعمى، الشيخ جمال الدين، ترى هل يعلم الشيخ جمال الدين بما أصابني؟ تركني إمام الجماعة تحت حراسة رجلين خوفاً من اختطافي من قبل جماعة الدكتور، كما صرح بذلك.

بعد ساعة ازدادت حرارة رأسي، شعرت بالنار الحارقة بين جفوني، رحت أتحدث بكلمات غير مفهومة.. أخذوني إلى ظلال باردة، طلبوا إلي الحكيم، جاء مسرعاً، وراح يضع الخرق الباردة على رأسي ووجهي وجبيني، صرت أصرخ أحد، أحد.. لا إله إلا الله.. وفجأة شعّ شيء نوراني أمام بصري، حملني بين يديه وطار بي، يرفّ بأجنحة طويلة، وأنا كنت متكوّماً بين يديه كطفل بين يدي أمّه.. أنزلني فوق جزيرة، فتح ثمرة كبيرة، أخذ ماءها، وغسلني به، تعافى جسمي، وارتدّت إليّ روحي نشطة، فوقفت على قدمي، اتجهت إلى البحر، فخضت فيه إلى ركبتي، ثم استلقيت فوق مياهه، لعبت بالماء، قذفته إلى الأمام ثم غصت فيه، وبعد ذلك انسحبت إلى الرمل، فوجدت عصيراً، شربت قليلاً ثم انسللت إلى تحت شجرة وغفوت إلى فترة لا أحد يعرف كم دامت، استيقظت الآن لأجد نفسي بين يدي الشيخ جمال الدين في ظلال الزاوية، قال يا ولدي، تقرأ الآن الفاتحة للرابطة الرفاعية الكبار، قرأتها ومسحت وجهي بيدي.. قال اليوم عاشوراء، ومنذ غد تدخل في الخلوة سبعة أيام.. لتعود كما ولدتك أمك، قلت: ومن هي أمي؟ عند ذلك اختفى من بين أصابعي.. ودخلت في الغد في خلوة السنة.. كذلك عمران، فقد دخل في خلوته، أطعموه هذه الليلة ضعف الكمية المتفق عليها، وأكثروا له العسل، خصّصوا له واحداً فقط.. وأدخلوه في الساعة الثانية عشرة تماماً إلى الخلوة، ولكنهم وبعد ساعتين من الانتظار نقلوه إلى حمّام آخر دون أن يكلّموه بكلمة واحدة، ودون أن يدعوه يقول شيئاً، أحسّ برائحة الحمام مستقرة في رأسه فعرف أنه في حمام لم يعرف

مثلها قبلاً، أعطوه كؤوساً فيها خمرة لم يعرفها من قبل هي الأخرى.. سمع غناء وموسيقا وطرقات خفيفة ثم راح يخمن ويقدر أين هو.. لكن لطمة قوية ردّته إلى صوابه وطُلب إليه ألا يفكر بمثل ذلك مرة أخرى.. مرة أخرى جاءت اللحمة بأنواعها والسلطات والمقبلات، وأنواع الكبب، فعرق وهو يشتمّ روائحها، خلع العمامة قليلاً، ومسح صلعته، ولم يفكر في شيء.. أحضروا له صحوناً خاصة به.. فالتهمها، كان يسمع ضحكات خفيفة، ظنّها عليه، قال في نفسه، لاتفرق، لأن صحوناً أخرى، راحت تتسلّل إلى معدته، استراح قليلاً، فجاءته موسيقا دافئة وزجاجة كبيرة من مشروب سلس، توقع أنه مشروب أجنبي، فلا أثر ثقيل يقزّز النفس في أول رشفة منه.. شرب عدة كؤوس، ثم طلب دخاناً، قالوا له: إن الدخان ممنوع هنا فكتم على نفسه، وتابع يدلق الكؤوس المتتالية.. إلى أن أوقف عنها.. فقد بدأ العمل، وأنواع الحلويات ستأتي بعد ذلك.. وخلال العمل والتأوهات راح عمران يتحسّس الجسد الذي أمامه ويدرس تفاصيله، من عرض الكتفين واتساعهما، العظام، اليدين، الخاصرتين.. يبحث عن علامات فارقة، هل هناك شعر.. كان هناك شعر أزيل.. وفي لحظة التأوه المريع، مد يده إلى الوجه، فالتمس فيه ذقناً طويلة.. عند ذلك استبشر بالفرج، فابتسم وتابع طريقه يهدي السفن الضالة، وبدأ المكان يتعرق بالآهات الموجعة المتقطعة بينما كان الأعمى يوغل عميقاً في غابات بكر. وفي اليوم التالي صدر فرمان يقضي بتعيين عمران رئيساً لدائرة بيت مال حارة المزار وعليه أن يتفرّغ كلياً لهذا العمل.

تسلّل البرد من كل أطراف البيت الذي أسكنه، السعف الذي كان يغطي السقف، لم يمنع البرد، طلبوا إلي أن أحفر سرداباً في الأرض كي أنهي هذا الشتاء فيه، لم أكن أستطيع ذلك، جسمي ما زال ضعيفاً، ساعدني بعض المؤمنين الشبان، حفروا لي سرداباً داخل البيت وسقفوه بالخشب وأغصان الأشجار، ثم فرشوا لي الأرض بالأغصان والخرق وذهبوا.

انقسمت الرضوانية في الشتاء إلى قسمين، جماعة المؤمنين، قاعة كبيرة يلتقون كل يوم، يتلون الأذكار ويقرؤون القرآن، ثم يغنّون المدائح النبوية ويرقصون عليها، وبعد

ذلك يتريّضون بالانتقال إلى نقر الدفوف وخفض الرأس ورفعه إلى أعلى وأسفل، ويميناً ويساراً.. وصرت على ضعف أحضر مجالسهم، وبين الصلاتين يحضرون بقايا رجل محمول على محفّة، يضعونه في صدر المكان يقبّلون كل قطعة من جسده، يتهافتون على قدميه ويديه وحذائه، ورأسه ووجهه.. هذا في البداية.. ثم يقبلون كتفيه، ويبدأ البكاء، يتحول المكان إلى مناحة، وبقايا الرجل الذي شل من شدة التعذيب، يرتجف من يديه، ورجليه ورأسه يهتز، ويتشنّج، ويقوم بحركات غريبة من فمه.. ثم ترتفع الرايات ويبدأ الرقص بالأعلام الخضراء، ومدد يا سيدي مدد..، مدد يا رسول الله مدد.. ويشتّد قرع الدّفوف، والضرب على الأكف، والقفز إلى الأعلى والاستلقاء على الأرض، فهذا واحد، تشنّج من كل أطرافه، وانقذف في الأرض حتى أمام مولانا.. وآخر يبست يده وآخر جذعه، وآخر وقع مغشياً عليه، والزبد يخرج من فمه، ويداه ورجلاه متشنجتان، جاءني الحال، فصرت أصرخ وأهتف باسم الرسول الكريم، وأقفز إلى الأعلى، جرّوني على الأرض وأجلسوني أمام الإمام.. قرأ علينا الإمام جميعاً.. جاءت أقوام أخرى من المعطوبين سياسياً.. وممن فقدوا بعضاً من أجسادهم أو عقولهم فقرأ عليهم، كاد أن يقرأ على الجميع إلى أن انفض المجلس في منتصف الليل.. فعدت إلى سردابي، وفي الطريق لمحت أنوار المقهى المنبعث من القسم الثاني.. فجماعة الكفار والمشركين كانت في الطرف الآخر، ولم تكن تقيم الأذكار والاحتفالات الدينية، بل كانت تجلس في مقهى البدعة وتتحدث في السياسة وأمور الثقافة، وكانت عيون زهير وغسان العاشوري لا تفارقهما، تتناوب عليهم وهي تنظر في الماء السحري، ويدسان بينهم العيون ليعرفا كل إثم يرتكب، كما كانا يسميانه، لم أذهب إليهم لم أفكر بذلك لأن الانتقال من طرف إلى آخر عملية تستوجب الجلد، وحتى القتل إن أمكن ذلك.. وأنا لم أكن أرغب الموت قبل أن أعرف من أنا..

كان الطقس حاراً في الزاوية، فاستمتعت به، لأنه يجعل آلامي تزداد، بدأت الصوم في هذا اليوم، وعلى ذلك فقد امتنعت كلّياً عن الطعام، هل يمكن أن يكون لي أخ تؤم؟ ربّما.. فكيف أكون هنا وهناك في وقت واحد، في الرضوانية وفي الزاوية، هناك في الشتاء، وهنا في الصيف، إنني أعي وأدرك ذلك فأنا هنا وهناك في وقت واحد، لا يمكن

أن تفهموا ذلك أبداً، قد أكون في مكان آخر، وآخر.. وفي الفصول الأربعة.. جهزت طعامي منذ الصباح، ودخلت الخلوة.. طعامي يخلو من كل ذي روح، جلبت سبعة أرغفة من خبز الشعير الأسود، وكوز ماء مالح، هل حرمت البهائم طعامها؟ هل سلبت الطيور رزقها؟ ربما، ولكن يجب أن أتقوّت كي أظلّ في دائرة اسم الله، بدأت بـ لا إله إلا الله.. سأنهي هذا اليوم ثلاثة عشر ألف مرة منها، وكلما انتهيت من مائة أدعو بـ "اللهم اغرس في قلبي شجرة (لا إله إلا الله)" وأظهر على لساني ينابيع حكمة لا إله إلا الله.. واحفظني يا رب من كل شك وكفر ورياء ومن مكر الماكرين وحسد الحاسدين وعداوة المعادين ومن شر نفسي وشيطاني وهواي بعناية ووقاية لا إله إلا الله. كان علي أن أظل على وضوء دائم، وأن أحفظ لساني عن التكلم بكلام الدنيا وأن أربط قلبي بالله في كل الأوقات والخلوات، وأن أستحضر همّة المرشد.. الفاتحة.. لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام.. ولصاحب الطريق رضي الله عنه.. وللسلسلة الرفاعية المباركة ولشيخي جمال الدين ولإخوانه المسلمين جميعاً.. آمين.

سامحني يا ربي على كل ضلالة أثمتها.. إنك خير الغافرين، لا إله إلا الله.. تنزّهت بين الأقطاب الأربعة، قبّلت رؤوسهم واحداً بعد الآخر، قرأت الفاتحة بين عيونهم، انتابني الوجد، فأخذتني الرعشة، صرت أرتجف، لم أدر كم صار من اليوم، رأيت الشمس تقف فوق رأسي.. ثم امتصتني، سحبتني إليها، صرت في السماء، قطرة ماء، صار لي عكّازة، توكّأت عليها، ورحت أطرق الأبواب واحداً بعد الآخر، لم يفتح لي أحد، صعدت الأسطحة، رحت ألتجئ من حائط إلى آخر.. لم ينقذني أحد، استلقيت بطولي على أحد الأسطحة.. لعبت وتدحرجت، ثم وجدت شقّاً فانزلقت، وجدت نفسي في بيت مرتّب، نظيف، ففتحت الوردة التي في داخلي فخرجت من قطرة الماء وجلست على كرسي من القشّ، راقبت البيت، سقفه المسقوف بالأعمدة، أرضه المبلّطة، جدرانه المزينة، الكتب على أطرافه، خرجت أستقبل الشمس في باحة الدار، خفت على نفسي.. فعدت إلى الداخل، دلف مفتاح في القفل، اندفع الباب، لا أدري كيف كان ذلك، ها أنذا أمام مريم، التي لم تندهش من وجودي، قالت، هل تأخرت عليك؟، كانت تحمل بعض الأكياس بيديها.. لم أجب.. حاولت أن أساعدها، فلم أستطع، ظللت جالساً على

المقعد، بينما راحت ترتّب الطعام مسرعة، تقشّر، وتفرم وتتكلم، وأنا صامت في حضرتها، أنهت كل شيء، وجلست على الطاولة أمامي، بدأت الطعام، سألتني، لماذا لا آكل؟، قلت لها: إنني صائم، فدهشت، لماذا لم تخبرني؟ ها أنا أخبرتك، قالت: كنت أنتظرك. لا تنتظريني، لدي طعامي، سمعت صوت الاذان.. أعتقد أنني أكلت، وشربت ماء، وحمدت الله، ثم انكفأت أردّد الأدعية التي كانت أمانة في عنقي..

عادت مريم من الحمّام وقد اغتسلت، كان شعرها مبلّلاً، ترتدي ثياب الحمام، غضضت بصري، ثم أغمضت عيني.. كان الوقت صيفاً، هكذا قدرت، وكانت ترتب شعرها، بان تحت إبطها، رحت أذكر الله وأغمض عيني، أخرجت ثوبي من جسدي وغطّيت به رأسي.. لا إله إلا الله، هاهو شيخي بين عيني، وكلمة الله تستقرّ في قلبي، ورحت أصلّي وأصلّي، اللهم إنّي من الخطّائين.. انسللت من نفسي، وجلست في السرداب، قهرني البرد، فتدثرت بنفسي، لفّتني مريم بثوب حمّامها، لم أستطع حراكاً كنا في السرداب جسداً واحداً، كالماء عندما تقبض عليه بأصابعك الخمسة.. وتلقي به في النهر، ها نحن نغنّي، ونقذف أنفسنا فوق الموجات الصغيرات، نلعب ونمرح، نستمتع بالنباتات التي فوق المياه، تحلو الحياة، نغطس أسفل الماء، ثم نعلو، نشبك أصابعنا ببعضها ونمضي، لم أكن أعرف أنني أجيد السباحة هكذا.. فرحت أستلقي على ظهري تداعبني الريح الرخاء، والماء يتعالى بي ثم يمدّني فوقه، على طرفي الأيمن،ومريم تتقلب هي الأخرى، كانت عارية تماماً، لم أهتم بصدرها النافر الصغير، ولا بالحلمتين البارزتين، بلون أسمر معتق ينفذ من بين قطعة الماء، بطنها كان ضامراً كأنما لم تأكل منذ شهور، ربما هي الأخرى كانت صائمة، هل نذرت جسدها للماء؟ كنت قد تركتها في بيروت، ما الذي جاء بها إلى هنا؟، هل هي الأخرى قطرة ماء؟ تعالت في السحب، ثم نزلت في البيت الذي كنت فيه، شعرها أشقر ينساب وراء رأسها، وابتسامتها تتلاقح مع ثبات الماء.. مدّت يدها تداعب أرنبة أنفي، لم أبتسم لها، بل غمرت نفسي في الماء، فتبعتني، صرت أشف داخل الماء.. لم نعد نرى بعضنا، أين أنت يا مريم؟ ربّما صارت موجة صغيرة فابتعدت، ربّما صارت عرق ريحان فابتعدت فوق صفحة الماء، ربّما أنا كنت كذلك.. هل صرت أهذي؟، الظلام يلفّني، كم ليلة صار لي هنا؟ علي أن أجاهد أكثر..

ربّما أنا جائع.. لكنني صائم.. رأسي فارغة، كأنما هي جوف الأرض، تسقط الكلمات فيها فأسمع لها رنيناً متواصلاً كأنّه الصدى يجب أن ألقي بالكلمات فيها.. يجب أن أذكر الله كثيراً.. الله.. الله.. سبعة وعشرون ألف مرّة.. يجب أن يمتلئ هذا الفراغ الهائل بكلمة الحق باسمه تعالى:

"اللهم اسقني من خمر المشاهدة، وأغرقني في بحر المراقبة، وأفهمني دقائق المعرفة، وحقائق الحقيقة لأكون فيك خائفاً وبك عارفاً" يا الله. ربما تجاوزت الفضاء الأول.. هاهي الغيوم أسفل بكثير.. اليابسة والجبل والمياه، الزرقة والخضرة والبرتقالي، صارت بعيدة، هل أجتاز هذه البوابة الفضيّة الواقفة وسط الزرقة الداكنة، سيسمح لي الحارس الواقف عندها، إذا لم يسمح لي، ماذا أفعل؟ سأعود حتماً إلى كلمة الله، وإلى الشيخ جمال الدين، ابنته في الزاوية لا تزال تخطّ كلام الله بخطّ الذهب، تنسج الحرف مع الحرف وتطرّز الكلمة وتزين الفواصل بأناملها، تركن السجدة على أبواب الورق الأسمر، تلون بالأحمر والأخضر والأزرق تبتسم لي، فأهديها نفساً متقطّعاً، والحارس يفتح لي الباب، النجوم البرّاقة تندفع إليّ مستقبلة، تحملني على محفّة من نور، أجساد نورانية تمسك بي، تأخذني إلى قصر من النجوم، تدخلني مدخلاً حسناً فإذا أنا في قاعة كبيرة، فيها سرير واسع، الأضواء خافتة، تصل من بعيد، نساء عاريات يتقافزن في المكان، يطرن من مكان إلى آخر، أعتقد أنهن يسوّين المكان لي.. من أنا حتى يكون لي كل ذلك؟ كنت متعباً فحملنني إلى قصر آخر صغير مجاور، أدخلنني حمّاماً يتسع لأمّة كاملة ورحن ينقّين التعب من جسدي حبة حبة، صببن ماء الطهر علي، وصرن يفلّين جسدي من درنه.. غناء وموسيقى.. وحنين إلى سماء أخرى.. قيثارات وناي، العازفات فوقي، والمغنيات على أطرافي، وأنا بين أيدي العذارى، كنّ عاريات تماماً وأنا كذلك، وقفت ونظرت إلى نفسي، كنت قد فقدت ذكورتي، ربّما كان ذلك حين دخلت البوابة الفضية الأولى.. الفتيات الأبكار كنّ كذلك، لا شيء لهن.. لا شقوق، منطقة فارغة كالبطن كالفخذ، حمدت الله على ذلك، كيلا أقع في الخطيئة، حتى الأثداء لم تثرني، وكذلك شعر الرأس الطويل.. قد يكون ذلك لأنني تجاوزت ذلك، أنا أملك صدراً صغيراً مددت يدي أتحسّسه، كان كبيراً كصدر امرأة، تطاير الشعر فوق رأسي هل أنا هنا

امرأة؟ هل صرت فتاة بكراً؟ عليّ ألّا أفكر بذلك، أن أنصهر في الوجود، سيأخذنني الآن إلى قصري الأول.. أريد أن أنام، لكنّي لا أستطيع لأنني لم أملأ فراغ رأسي بكلمة الله.. الألف.. أحد، أحد، والله له الملك، ما في السموات وما في الأرض، اللام الثانية لا شريك له، أحد، أحد.. والهاء هو، هو.. صمت وسكون.. يملأ الفراغ القادم من بين النجوم.. هاء.. طويلة ورخيّة هو، هو، الله، الحقّ، تبارك وتعالى اسمه، أنا فوق السرير، تنام معي الفتيات الأبكار، يغطينني برقائق الأحلام، فأغفو طويلاً وعميقاً على اسمه تعالى..

"اللهم ارزقني مواهبك الربانية موهبة أطلع ببركتها على مخفيّات الرموز ومعميّات الكنوز تجلّى عين بصيرتي بكحل موهبتك.. يا وهاب".

رفض جسدي النوم، فأخذت ملحاً وضعته في عيني.. جمعت كلمات الحق وغادرت المكان، فتح لي باب حديد من دخان، رأيت غلماناً يطيرون حولي، ويستقبلونني.. كل شيء حولي وأمامي ورائي كان من دخان.. دخان ملون بالأحمر والأبيض والأزرق والأصفر والأخضر، جميع الألوان كانت تحيط بي، جمعت الغلمان حولي وطفت بهم، أراض واسعة من دخان وجبال وسهول، كلها ملّونة بألوان الطيف، شلالات من ألوان الدخان.. سمعت أصواتاً عنيفة، سألت عن ذلك، قالوا: إنها الحرب، رأيت ببصيرتي ولم أر ببصري، رأيت جيوش المسلمين تحيط بجبل عالٍ متوج بالأبيض، سللت سيفي وطرت باتجاه قمته، تبعني جيش من الغلمان الذين كانوا يطيرون حولي، نازلنا جيوش الكفر فضربناهم بالسيوف والرماح، حتى لم يبق أثر منهم.. عند ذلك سمعت الناس يكبرون حولي، فقد طردت جيوش الشرك والكفر، أخذوني إلى قائدهم فتوّجني ملكاً عليهم، ولكنني لم أكن أعرف كيف أكون ملكاً على أحد، قالوا لي: أنت تجلس على الكرسي ونحن ندير شؤون المملكة، أعجبتني الفكرة، فجلست على الكرسي، ورحت أصدر الأوامر، لم يهتم بي أحد.. صارت حولي أكداس من القمامة ولم يهتم بي أحد، حتى الخادم، كان يزدريني كلما طلبت منه شيئاً.. طلبت من قائد الجند أمراً، فتقدّم إلي وصفعني، قال لي: ألم تعد تستحي، ولكنني الملك هنا.. أنتم عينتموني ملكاً، قال: إذاً نحن أيضاً نبقيك ونسحلك، ولكنني أريد أن آكل.. قال: كل من مؤخرتي..

عند ذلك لم أعد أحتمل، وذهبت إلى جنود الأعداء، شتمتهم وأعلنت الحرب عليهم وتركت القوم مع بعضهم يتقاتلون.

سحبت جسدي إلى الربوة المواجهة، ورحت أتفرج على قائد الجيش الذي صار أضحوكة بين يدي جيش الأعداء، بل إن جنوده منه راحوا يسخرون، ثم جلبوا خازوقاً متيناً، وأجلسوه عليه، وضعوا أمامه آنية زهور، وعليه راحوا يبصقون ويتفرجون..

ولمّا تقدّم جيش الأعداء، حملنا عليهم، ورحنا نقطع أوصالهم، ونجدع أنوفهم، ونجتثّ رؤوسهم، حتى رفعنا من جثثهم تلالاً، ومن رؤوسهم وأوصالهم جبالاً.. فهتف لنا المؤمنون، وراحوا يكبرون.. وعند المساء هربت جيوش الأعداء والتجأت إلى الأمم المتحدة تطالب بوقف النار، لكننا تبعناهم حتى الحدود الرضوانية فولوا هاربين خارج المنطقة بكاملها.. فدخلنا إلى الرضوانية ووجدناها منقسمة إلى قسمين، لقد حفر في منتصفها خندق عميق، قسمها إلى قسمين، وقد حفر الخندق كل من المؤمنين والكفار، جماعة الدكتور، لكن الجميع اتفقوا على تقسيم المنطقة إلى شرق وغرب.. يسار ويمين، ووضعت نقاط الحدود، وتضاعفت الحراسة، وبدأت المناوشات بين الطرفين، ووجهت الإذاعات المضادة في كلا الاتجاهين، وراح الجواسيس يرتعون في المنطقتين ويزرعون أجهزة التنصت بحجة البحث عن الكمأة.

ذهبت إلى سردابي، دخلته وأهلت التراب على نفسي، تركت رأسي مرفوعاً عالياً، فكرامتي لم تكن تسمح لي بعد بدفنه في التراب، فيما كان أناي الثاني يجمع الغلمان حوله يشهدهم على أفعاله ويصل بهم الليل مع النهار.. وأنا بدأت أحس رطوبة الظلام، ونبض قلبي يهدأ إلى حد أنني كنت أسمعه يطرق كقذيفة صاروخ.. دوي هائل، هائل، هاهو جسدي مربوط إلى جبلين، بينما نهر من فضة وزبرجد، وهناك في البعيد بوّابة حمراء بلون العقيق تناديني، ها أنا قادم، ويتفجّر الدخان الملّون أسفل قدمي.. وأخطو الخطوة الأولى، فألمح في قعر الوادي نساء، كتل من نساء يهتفن لي، أحدق في المشهد وأعيد البصر، أيضاً أجساد ملونة.. سمراء وصفراء وبيضاء وسوداء، نساء من كل الألوان والأجناس يهتفن لي، كن معلقّات من أثدائهن، وصوت المؤذن يسبح في المكان،

يحاولن أن يصلن إلى النداء فلا يستطعن، يُصّب عليهن الماء المغلي، فيصرخن بصوت تنفر منه الجبال المحيطة، ها هي عاليا، وتلك هي رئيفة، عاليا معلّقة من شعرها وثدياها مضروبان بكلابتين، أما رئيفة فقد كانت مربوطة من ضفائر شعرها، وتحتها قدر كبير من الماء يغلي، ويبقبق.. تنسدل كستارة شيئاً فشيئاً إلى الأسفل وهي تصرخ بصوت يحفر أنفاقاً في الجبال.. تلامس قدماها سطح الماء، فترفعهما وترسل أزيز صوتها، ثم تهبط رويداً حتى يصل الماء إلى مؤخرتها، عند ذلك، لا تدري ماذا ترفع، أترفع قدميها أم سفحها؟، فينزلط لحمها الهش الأبيض، ثم يغطي جسدها بكامله، فلا يبقى سوى رأسها، تخرج وقد تهرّأ الجلد ولم يبق منه إلا تره ّل اللحم، فيعاد إليها مرّة أخرى، لتبدأ من جديد رحلتها، في الصراخ وحفر أنفاق في الجبال، تاج الملوك كانت محز ّمة من إبطيها، لم تكن تبالي بشيء، كانت النسور والعقبان تمزّق قطعاً من لحمها وتمضي إلى القمم لتطعم صغارها.. وكانت هي تسقط رأسها على صدرها، وكأنما فقدت شيئاً عزيزاً عليها، فلم يعد يهمّها شيء، كانت النسور والعقبان تتكاثر عليها في ضحوة اليوم حتى لا تترك منها سوى عظام بيضاء، ثم يكسوها اللحم مرة أخرى والجلد فوقه، لتنتظر مصيرها في اليوم التالي.

وكان هناك عدد من الرجال العبيد، يسمّرون أطراف رسميّة، ثم يجلبون الحديد المصهور، ويصبونه في فرجها، فيخرج من طرفها الآخر على شكل قضبان معدنية من الأمام، مكورة من الخلف.. وهي تبتسم ابتسامة رضى.. لا يظهر عليها سوى النعاس وثقل الجفون، فترفع يديها معلنة باسترخاء، أن هذا يكفي، ولكن طلبها لا يجاب إلا بمزيد من الحديد المصهور.

في الطرف الآخر كانت ميمي وسميرة وحدهما في بركة من الزجاج المصهور.. واحدة ترقص، وأخرى تغني، وفي فترة الاستراحة، تحشى كل ثقوبهما بالزجاج الملون والمعشق، ثم يصبّ فوقهما الفونط المصهور، كان ذلك يجري كل ساعتين، يخرجان في وصلة

صغيرة، لا تتجاوز الربع ساعة، ثم يبدأ الهز والطرب وإملاء الفراغات، وصهر الممنوع، لوضعه في المرغوب.

طرت إلى الطرف الآخر، فلم أعد أستطيع الرؤية، كلمة واحدة، وكنت بين إخواني، كان هناك جمع من المباركين، ربما كانوا ينتظرونني، أخذت الدفّ الملقى على الطريق ووصلت إليهم، استقبلوني بلحاهم وعمائمهم الخضراء والسوداء، بثيابهم الطويلة المزدانة الملونة، تجمعنا في دائرة يحيط بها الخضار من كل أطرافها.. وقفت في وسطهم، والتمّوا حولي، نقرت الدف، فبدأ أحدهم الإنشاد بمدائح للرسول الكريم وآله وصحبه، ثم راح النقر يعلو وأنا أقفز في وسطهم وبينهم، واشتد الوجد بي، فازداد النقر والقرع والقفز، بدأت المزاهر والدفوف الأخرى تتجاوب معي، وإذا كل شيء من حولنا يتجاوب معنا.. الله.. الله.. الجبال والأنهار والسهول وعمائم الرجال ولحاهم، ورؤوسهم وأطرافهم.. وراح بعضهم يلقى نفسه إلى الأرض، بينما مدّ أحدهم كفّه فإذا النار تملأ وسط الساحة اندفع إليها عارياً، والرجال الآخرون يحاولون إمساكه لكنه قذف نفسه وسط النار: يا نار كوني برداً وسلاماً. كانت النار تحيط به، وهو في وسطها كأنه في بستان، يأكل من الخضار ويمسح وجهه بالمياه، ويلتقط الثمار من أغصان الأشجار.. واحد آخر قطع يده بالسكين، ثم أعادها إلى مكانها.. وآخر فتح حفرة في الأرض، فإذا بها ماء يغلي، ألقى نفسه إلى وسطه والماء حوله يفور، جاء رجل إليّ وبيده سيف، ففصل رأسي عن جسدي، أخذ الرأس وقذف به عالياً إلى قمة جبل، ظللت أنقر الدفّ وأنا دون رأس، انقضّ أحد النسور على رأسي وحملها وطار بها إلى جبال شاهقة، ابتعد عنا آلاف الأميال وألقى بها لفراخه.. رجل آخر شقني بسيفه نصفين، لكنني ما زلت أقرع الدف من كل نصف بيد، وقفت قطرة ماء فوقي، سقطت على عنقي، فتجمعت شيئاً فشيئاً، التصق نصفاي، ثم جلس الرأس على رقبتي وعدت كما كنت، ارتمى رجل على قدمي، والزبد يخرج من فمه.. قال، يا مولاي، انهضته ونهضت، ثم تحوّلت إلى غيمة وتركتهم يفرحون.

***

توسّعت منطقة حي المزار لتصبح أشبه بمدينة يكثر فيها الزحام والبيوت الطفيلية المتشابكة والمعلّقة. صار فيها ساحات عديدة، وفي الساحات باعة خضار وفواكه، وباعة المشبك واللقم يكوّرنه ويدوّرونه، يلقون به في الزيت المقلي وهو يغلي ويبقبق، ويخرج مقمّراً شهيّاً يباع للبدو وأبناء الحارات الأخرى القادمين للعمل أو العطالة اليومية يشترون منه ومن غيره، يقرفصون في ظل الشمس البارد يأكلون، ويتناثر الذباب على أطراف أيديهم وعلى القرص الصغير الذي يقبضون عليه بأصابعهم، خوف أن يقتلعه الذباب من بين أصابعهم. كذلك يستلقي عمال الورشات على نعاسهم وهم يتأملون بأسى عدّة العمل الملقوحة أمام وجوههم البائسة.. لاعمل هذا اليوم أيضاً والنهار صار في ضحوته.. لا رجال يقدمون في سياراتهم، ربما يكون ذلك بعد ساعة هل هناك من يقرض مالاً لهذا اليوم أيضاً؟ قد يكون ذلك.. ويبدأ النهار بقضم الحكايات الصغيرة التي تخلو من البدايات والنهايات.

صرخ مؤذن الجامع على ولد ضائع، وقف فوق المئذنة الصغيرة وقال ذلك أعطى إشارات وعلامات، في العمر تسع سنوات، له شامة على خدّه يرتدي ثوباً طويلاً مخططاً.. حافي القدمين.. أمسك بي مبيّض الأواني وأخذني إلى مؤذن الجامع، طلبت منه أن يدعني وشأني، قال لي إنهم يبحثون عنك، كيف ذلك؟ هل أنا ولد صغير؟ قال: نعم أنت ولد صغير.. كنت في الزاوية أتناول كلمة "حي" لأردّدها خمساً وثلاثين ألف مرة.. وأتلو دعاء:

"اللهم أحيني حياة طيبة، أذوق بها حياة الحبّ، وطعم شراب القرب، فأكون بك حيّاً ولك وليّاً، فأموت بك تقيّاً، وأحيا بك رضيّاً، يا حي".

فكيف صرت ولداً صغيراً، نظرت إلى نفسي، كنت كذلك حافي القدمين، أرتدي ثوباً طويلاً ويمسكني الرجل من يدي الصغيرة، قال، لماذا هربت من المرأة العجوز؟ لم أجب كانت المرأة العجوز التي أسكن عندها تنتظرني عند باب المسجد، أمسكوها يدي، ضربتني على قفا رقبتي، وأخذتني وراحت تتجول بي في السوق..

- شيء لله، حسنة لهذا اليتيم..

راحت تمرّ بي على الباعة والدكاكين منهم من يعطينا ومنهم من يشتمنا، تجلس عند الاسكافي فتطلب منه أن يصلح حذاءها، فيعطيها حذاء لا يستحقّ أن يلقى على أكوام القمامة.. وتقف عند بائع الفلافل، لأن الولد اليتيم جائع، يعطينا قرصاً ونصف رغيف، تلقي به في مخلاتها، ونمضي إلى الفرن فنأخذ رغيفاً محروقاً.. وعلى بائع الفاكهة فيعطينا حبتين تالفتين. وعلى بائع الخضار، فيسمح لنا بأخذ بعض حبات البندورة التي على طرف يده اليمنى، المخلاة تنتفخ فننزلق إلى أحد البيوت المستورة حيث أولاد يتصايحون، تفرّغ العجوز مخلاتها، وتشرب القهوة، وتلتف حولها صبايا صغيرات، يكشفن عن صدورهن، وشعورهن، وفتحة أفخاذهن، يلتهين بالتبصير في فناجين القهوة الخالية من القبضات وبعض الأطراف، تحكي لهن العجوز عن عرسان قادمين على الطريق تنتظر، إشارتين أو سمكة رزق، وصرة بها كمشة ليرات من ذهب، وحمامة فرح، وطوق ياسمين، ومئذنة وديك يصيح، وأفعى تنفث السم وراءهن، وسمكة في فمها خبر مفرح، وبوابة كبيرة واسعة.. وأنا أندس في فتحات الثياب، أتابع انزلاق الأفخاذ اللامعة، أوغل عميقاً في القرارات الداكنة، أشرئب بعنقي لأستسلم إلى البساط اللحمي الذي ينثني عند فتحة الصدر، فأتوسد اللحم الاسفنجي المنتفخ الذي يستقبل عيني فأمرغ وجهي على هذا الجدار وذاك الجدار، أشم رائحة الياسمين والتمر حنة والبنفسج، فلا آتي بأي حركة وأذوب خجلاً لأتحول إلى قطرة عرق تتدحرج في الشقّ الذي يتهيل بالروائح الطيبة الممزوجة بقليل من زنخة النساء، أتحرّر من الحرّ، فأبترد بالظل والرطوبة فأغفو في حديقة، أو حدائق مندّاة بأقحوان الربيع وبأزهار حمراء، أسمع ثرثرة الأصوات حولي، فألتصق بالجسد الرطيب، وهي تمسك بالمشد على وسطها وترخيه عدة مرات فأمر مسرعاً في السرة، متمسكاً بالزغب الناعم، فأصل إلى الغابة، أشاهد حطاباً يقطع الأشجار، يطلب مني أن أساعده، فآخذ الفأس عنه، وأضرب وأضرب، لكن الخشب لا ينقطع، تأتي ابنته وتحمل الخشب الذي يقطع، وتساعدنا، وأثناء ذلك تجمع الأزهار وتطارد الفراشات، وألحقها وأوغل وراءها عميقاً في الغابة، فأجد الصباح يتنفس، ويندفع دخان أبيض، ملون، يتخلّله قبصات من النور، هنا وهناك، تنفرج من الأشجار المتشابكة الملتفّة.. أعود إلى حدود الغابة، فأسوّرها

بالرطوبة والدهشة، أمشي على الطرف العلوي، أقفز وأنطّ على الحبل، أصابعها تحكّني، فأهرب إلى الزاوية اليسرى، أعدّ الأشجار واحدة واحدة، تصغر الأشجار فتصير كالإبر ثم تلتفّ فإذا هي غطاء يظلّلني من عيون الحاسدين. أبحث عن طريقي الضائع، فوق الأبيض الفاحم فلا أجده، أعاود المسير في تعرجات طريق يميني، أصل إلى بداية الممر من الأعلى، فأتسلقّه لأجد نفسي في حديقة ألعاب الأطفال أتزحلق من فوق إلى أسفل، ثم أعاود الكرّة مرة أخرى، أتسلّق سلّم الأسلاك السوداء المفتولة، وأتمرجح في الوسط، ذاهباً وآتياً، غادياً ورائحاً، أجلس في راحة النتوء الداكن، أبلّله بالرطوبة.. ثم أندفع إلى بركة في وسط الحديقة، لأني طفل صغير أضاعوه في الأسواق فلم ينتبه أحد إلي، فأمسك بالعمود الأحمر من قمته، وأتلوّى على أطرافه، أضيع مع الماء، وأصل إلى القعر، ثم أمدّ يدي فوق رأسي وأقرفص رجلي، أندفع في الممرّ الوردي، أتشبّث بأهدابه، فلا أجد شيئاً أتمسك به، أسمع ضربات القلب كالطبل تدقّ في أذني، فأقفز خارج الماء، ثم تمدّ كفّها لتحرر الربطة أسفل فخذيها، فأندفع أتنفّس الضوء والهواء وأجلس مكاني على قارعة الذي أراه، أتنقّل من غابة إلى أخرى، عبر طرق بيضاء وسمراء وطويلة، حليبية وبلون الكستناء، والمرأة العجوز لا تزال تدفع بالعرسان عبر طحل القهوة، تودّع الغائبين، وتستقبل العائدين، ثم تنتهي أرنبة أنف النهار، فتمسك بيدي تدفعني إلى السوق مرّة أخرى مشفوعة بطلب الرجوع على أحرّ من الجمر، وأمضي معها من سوق إلى آخر، ثم تستريح في سوق الدجاج على تبّة أرض مرتفعة، تجلس جانب رجل عجوز، هو الآخر يسألها عن أيامها، وعن أحوالها، تجيبه بنظرات بارقة، الرجل العجوز الآخر يفرش أمامه بضاعة تنتظر أحد المغامرين لشرائها.

يتألفّ سوق الدجاج من ثلاث مرتفعات صغيرة، هي عبارة عن ظهر حمّام، ويتواجد عليها كلّ يوم عشرات البائعين والبائعات، ماذا يبيعون؟ يبيعون كل شيء، شفرات حلاقة مستعملة، جزء من آلة الحلاقة، حبات دواء، علب فارغة، قمصان واسعة، سراويل بحاجة إلى إعادة صياغة، أحذية أعيد تصليحها مرات ومرات، مدفأة حطب، ياقة قميص ودكّه أسنان مات صاحبها، جمجمة ميت.. علب أدوية فارغة.. حبات كينا.. زجاجات عطر ماركات أجنبية فارغة، دفاتر لفّ السجائر، علب التبغ.. يا إلهي كل

ذلك، نعم وأكثر بكثير.. ففي الوسط يرقد بائع الكبة المقلية على كرشه الضخم يفغم المكان برائحة الكبة، وبعض الصحب يتربعون على أرجلهم حوله، يدفع رغيف الخبز وعليه قرص الكبة إليهم، وهم يفرشون فوقه البصل والبقدونس ومخلل الفليفلة والقثاء.. يلفونها على بعضها، ويدفعون بها إلى داخل حلوقهم بصمت مبجّل.. يراقبهم ويراقب السوق أحد الكتاب وقد لون نفسه بثياب كرنفالية ووضع نظارة على عينيه وقبّعة فوق صلعته الباردة للتمويه "ما كان أحلى قبلات الهوى، إن كنت لا تذكر فاسأل فمك" ويندفع صوت فريد الأطرش من أسطوانات "كايروفون" من سوق المسجلات والراديوهات المسروقة، أصوات من هنا وهناك، عبد الباسط عبد الصمد، يقرأ القرآن، وأم كلثوم تدحرج الموجة وراء الموجة، وعبد الوهاب يغنّي للنيل، وفائزة أحمد تنده على حبيب الأربعاء، بينما نجاة الصغيرة ترد عليها بلا تكذبي، والبدو يتحلقّون مع ثيابهم الطويلة وعباءاتهم حول صوت سميرة توفيق وهي تفتّش عن حبيبها الذي هجرها ولن يعود.

وقفت العجوز تبحث عني، فأسرعت إليها، أمسكت يدي وسارت وراء الرجل الذي ترك بضاعته مفروشة على الأرض ومضى.. قالت لي: أين ذهبت؟، قلت: إنني أتفرج. قالت: إننا سنذهب إلى بيت الرجل كي يقرأ لها على ظهرها، فهي لا تنام الليل من آلام ظهرها وعليّ أن أجلس وأنتظرها عند باب الدار حتى ينتهي الشيخ، وعلي ألا أتشيطن، هززت رأسي، وهي تدلف إلى داخل الدار العربية الفسيحة وجلست عند الباب كما أمرتني.

راقبت الباب الذي أمام الباب الذي أجلس أمامه.. عددت المسامير التي تزيّنه.. أعجبتني اليد التي تستقرّ على أعلاه، صرت أفكر في سرقتها.. ولكن كيف سأصل إليها، سمعت ضحكة العجوز، فانسللت من تحت فرجة الباب إلى الداخل.. كانت قد جلست مع الرجل العجوز الآخر حول بركة ماء.. خلعت غطاء الملحفة العلوي وراحت تمشّط شعرها.. كان لحمها متهدّلاً وعظامها مرتخية.. الرجل العجوز وضع برميلاً أمامهما وعليه قطعة خشب، ثم وضع فوقها زجاجة عرق وقرص كبة وقليل من اللبنة، وبضع حبات

زيتون، ثم راح يغنّي لها وهي تتجاوب معه فتردّد أغنية وتفقش بأصابع يدها، وتتمايل يميناً ويساراً.. وأمونة ع الليمونة شامة والله.. وبصحتك وبصحتك.. راحا يقرعان الكؤوس مع بعضها، رفعت قليلاً من ملحفتها، فبان ساقها الممطوط، وتمايلت عليه بصدرها الفارغ، ضحك بعنف وهو يقول لها، أنت أجمل من فطوم المغربية.. وهي تقول له يسلم فمك يا أمير.. وزلق في فمه كأس العرق على الصافي، وهي قالت له: كعبه أبيض يا ملك الملوك، ثم سحب دكة أسنان من فمه، وقبلها، وهي فعلت مثله، وتعانقا طويلاً، وعندما توقّفا قليلاً للتنفس انهمرت منها بعض الدموع فالتقطها بمنديله المزهر.. قالت له: لقد أضعت لي أجمل أيام حياتي.. فرد بأنه سوف يعوّضها عن كل ذلك.. سقاها من كأسه بيده، وهي تظاهرت بالزعل، فراح يقبّلها، ثم يشمّ رقبتها، ويدفن رأسه في رأسها، ابتعدت عنه، طالبته سماع شيء من الغناء، فنهض وجهّز آلة التسجيل البكر، وراحت أم كلثوم تعذبهما بيللي كان يشجيك أنيني.. فاستسلم الاثنان لبكاء ونحيب على أكتاف بعضهما، وكلّ منهما يحمّل الآخر شقاء عمره.. وبصحتك يا جميلة، وأنت السبب يا جميل، واشربي يا حياتي وشربت حياته، ومازتها شهقات متقطعة، وهو راح يذكّرها بالأيام الخوالي، عندما كانا شابين، يقلع التوتة من شروشها، وهي كانت تقول للقمر أن ينزاح لتجلس مكانه.. وكان ما كان.. هل نحكي أو نصلي على بدر التمام. نصلي..

يا سادة يا كرام:

الرجل العجوز كان يعمل فرّاناً.. عندما كان يقلع التوتة، وكان الناس يصرخون عليه باسم النايلو.. يا نايلو، أعطنا رغيفين، يا نايلو ثلاثة كيلوات، والنايلو كان يرتدي بنطالاً قصيراً على قميص داخلي كان لونه أبيض في يوم من الأيام.. والعرق يشخب من كل مكان من جسده.

وعندما تهدأ حركة الناس والبيع يقف النايلو عند باب الفرن الخشبي ويكون قد أعدّ رغيفاً مقمّراً وقلبه على وجهيه، وها هو يستعد لقذفه ناحية نافذة بيت نظليّة العالية.

جميلة وهو اسم المرأة التي صارت عجوزاً والتي كانت تقول للقمر أن ينزاح لتقعد مطرحه، تفتح باب النافذة، وتطلّ بقامة عينيها المشهولتين وترى عضلات يديه، وبطات

رجليه والعرق الذي ملأ قميصه وبنطاله فتطلب إليه أن يدخل إلى الفرن كيلا يصاب بالمرض، ترمش له بكل ذلك الكلام بعينيها، وهو يقفز بعينيه في أرجاء الشارع ثم يفتل رغيف الخبز على إصبعه، ويدفعه باتجاه النافذة، فينـزل ساخناً مدوّراً، لا يزال يبرم، تلتقطه نظلية وتفرشه على قليل من الزيت والزعتر، وبعد نصف ساعة، أو أقل.. تخرج مرة أخرى، وقد شكلت وردة حمراء بطرف رأسها، وسبلت شعرها، وقد رفعت الغطاء عنه، ولا بأس إن كشفت عن زنديها العاريين، فيطير صواب النايلو.. ويدخل إلى الفرن، يكسّر سيجارة حشيش، يغبّها فرحاً، ثم يخرج كرسيّاً ويجلس أمام الفرن، ليتمتّع بهذا الصباح الجميل مع كأس شاي، يحمله بيديه، وغبّة فرح تنسيه تعب آخر الليل الذي أمضّه في هذا الصباح.

في حرب الـ 48، رأت جميلة النايلو، وهو يرتدي ثياباً كبقية الناس، يومها فتل لها رسالة وألقى بها إلى النافذة، ولأن جميلة لا تجيد القراءة، فقد انتظرت تسع سنين حتى كبر ابنها ليقرأ لها الرسالة، وكانت قد خبّأتها في مكان أمين، له علاقة بسقف البيت الخشبي، ونقلتها، معها إلى بيت الزوجية، وعندما دخل ابنها المدرسة وتعلم شيئاً من القراءة والكتابة وعلم الأشياء والحساب، أطلعته على كنـزها المصون وقرأ لها الرسالة، وفهمت منها، أن عبد الفتاح، وهو اسم النايلو، أي أن النايلو هو لقب له، قد تطوّع في جيش الإنقاذ وذهب لإنقاذ فلسطين المغتصبة من براثن العدو الصهيوني، وكانت كلمة "براثن" مكتوبة بالسين، ولم تكن مكتوبة بالثاء، كما نبّه الولد النبيه أمه، التي كانت سارحة تتخيّل عبد الفتاح، باسمه الجديد وثيابه الخاكية وعقاله، والنسر على العقال والحطاطة.. يا الله ما أجمله.. وظلت تقرأ الرسالة كل يوم، أو يقرأ الولد لها الرسالة، قبل أن يقصّ عليها سيرة عنترة، فارس العربان، وقبل أن يبدأ كتابة وظائفه.. فلم يكن لديها شيء تتسلى به سوى هذا الولد، وهذه الورقة لأن زوجها قد قضى بحادث سير، عندما دهسه بغل هائج وهو يحفر شبكة المياه التي كانت تغزو المدينة.

ولن أطيل عليكم كثيراً، فقد بقيت المرأة مع الورقة المذيلة بتوقيع عبد الفتاح، لأن ولدها، جفّ عوده، ومات مسلولاً هو الآخر.. دخلت جميلة مع حزنها سنوات طويلة،

ولما لم يبق لها من معيل، فقد توكّأت على نفسها، وراحت تتسول من المارة، ثم طورت نفسها فراحت تغزو الأسواق إلى أن وصلت إلى سوق المدينة، وعندما لم يبق منها شيء، وصارت قفة عظام استأجرتني لتتسوّل علي.. أنا الصغير الضائع عندما وجدوني عند باب الجامع وسلّموني إليها.

ولكن ما دخلي أنا بكل هذه الحكايات.. لقد نسيت ما كنت قد بدأت به، نسيت أن أردّد كلمة الله.. نسيت الدعاء.. ربما لم أنس، وكنت أقرأ وأردّد في مكان، وأتصوّر في مكان آخر، أقرأ في الزاوية، وأتصوّر في الرضوانية.. لكنني كنت هناك صغيراً بيد العجوز، مالي ومال كل ذلك، سأعود إلى زاويتي، وأردّد دعاء اليوم التالي: "اللهم مجّد قدري بحبك وشرّف رتبتي بقربك، حتى أكون بحبّك ممجداً، وبقربك مؤيّداً، وأطّلع على دقائق المجد ودقائق المدد والمجد، وألبس من تيجان المجد والسعد بفضل براهين مجدك يا مجيد".

رحت أكرّر وأنادي وأذوب في حروف الكلمة، هل تناولت شيئاً اليوم، البارحة، حاولت أن أنظر إلى الخبز والماء، فلم أستطع.. استرخيت على نفسي، وتمددت بذهني، عدت إلى العجوزين في أرض الدار حيث كان يحملها بيديه، دخلت معهما إلى غرفة تقع في صدر الدار.. مدّدها فوق أرض البيت، وراح يقبّلها من وجنتيها ويلثم شفتيها.. يقول لها: إنني لا أشبع منك، وكانت تبتسم عن رضى.. يقول لها: لقد ضيعّنا كل تلك الأيام، وهي تقول: أنت السبب، هل الحروب مناسبة لك، كان عليك أن تترك الحروب لأهلها.

والنايلو، أو عبد الفتاح، كما كان مسجلاً على قيود جيش الإنقاذ، حلّ ضيفاً على عدّة مدن قبل أن يعود إلى مسقط رجليه، لأن رجليه سقطتا قبلاً، فقد زار صيدا، وصور وحماة، ودمشق وكان أول من أسماها بقلب العروبة النابض، فقد كان قلبه ينبض كلّما دخل أحد مخيّماتها.. وفي أحد الأيام وبينما كان يشتري خبزاً، شاهد أحد العسكر يأخذ خبزاً مقمّراً على الوجهين، فتذكر جميلة، وقال: هذه البلاد ليست بلادي، وهذا الخبز ليس زادي، فحمل نفسه وعاد إلى مسقطه، وراح يبحث عن جميلة.

جميلة وقد أحسّت بقلبها هي الأخرى وهو ينبض، راحت تزيد من دورانها وتندفع في الأسواق حتى عثرت عليه يتربّع أمام بضاعة، فأخذها إلى بيته الذي استأجره حديثاً، وهناك صار بكاء وعويل، وذكريات وقبل وعناق.. ورحم الله تلك الأيام، ولعن الله الذي كان السبب ولن يكرّر بعد اليوم، يافلسطين جينا لك، جينا لك تا نشيل حمالك، فيكفيها ما حملت.. وما عانت منه وقاست..

استلقت فوق فراش اسفنجي، فطقطقت عظامها، وهو، أي النايلو، فكّ دكّة سرواله الخارجي، فظهر تحته سروال آخر، فكّ دكّته هو الآخر، واستلقى بجانبها، دخن سيجارة، ثم مال على عنقها يريد أن يشمّها، فابتعدت متدلّلة.. قالت: إن رائحة الدخان تزعجها، فما كان منه إلا أن ارتمى على عظامها دفعة واحدة، غرس نفسه فيها، وانثنى وتطاول، وتمدّد، ثم تنفّس، بعمق وصرخ صرخة طويلة، واستقرّ فوقها لا يتحرك، تشبثت به، ولم تتركه، كانت كالرتيلاء المعلّقة، غرزت أظافرها في لحمه، ثم صرخت هي الأخرى صرخة طويلة ممطوطة، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم كل من سمع الصرختين على بعد أكثر من كيلومتر واحد، حتى إن مدير الجمعية التي توزع الأرزاق بالبطاقة التموينية أغلق أبواب الجمعية، وهرب إلى المنزل، معتقداً أن حرباً جديدة قد قامت بين العرب وإسرائيل، ظلّت جميلة مرخيَة الجسد وفوقها جسد متشنّج لأكثر من ساعة، ثم حاولت دفعه، فلم تستطع، استجارت بي صارخة، فأسرعت وقلبته عنها.. ارتدت ثيابها على عجل، وبلمحة صغيرة، كنا نتمطّى في الأسواق، نملأ زواداتنا بالأطعمة، وجيوبنا بالقروش، وعندما وصلنا إلى المساء، أوقفتني عند حدوده، أعطتني نصف ليرة ودعاء ثم دخلنا البيت، سلقت لي الطعام فأكلت منه، وبعد ذلك تذكرت دعاء اليوم، فلم أستطع أن أردّد حرفاً واحداً، لم يطاوعني لساني، كانت قوتي قد ماتت.. لكن ذهني ظل متوقداً بالمجيد.. ينبض فيها، ويكشف لي إشراق الحقّ، لم أستطع التعرف على أسرار الحقّ، ربّما لأنني ضال في صورة شيطان صغير، لذلك قررت أن أعود إلى حجمي، قبضت كفي، ثم أرخيتها، فكنت أنا، أنا. "اللهم أعطني من فضلك عطاء وفيّاً أتقرّب بسببه لأبواب محبّتك، وأكون من أهل حضرتك، وأشاهد أسرارك القدسيّة، فأفوز بعطية جودك الوفيّة".

لم يسع عدنان الفلاح إلى شيء، كانت الحياة مبسوطة، أمام عينيه كراحة يده، لكنه لم يستطع أن يمدّ راحته كي يرى أسرار الحياة، بلغ الضعف منه كل مبلغ، هاهو نبض القلب يأتي بطيئاً، رقيقاً ناعماً، فيفتح فمه كلما وصل النبض إلى الفم.. ترى هل كان بحاجة إلى الماء، إلى الطعام، إلى النوم، إن جسده يطلب شيئاً ما، أما روحه، فلم تكن تختلج إلا إلى المعطي، التي كان يردّدها مع كل نبضة من قلبه..

أربعون ألفاً وثلاث مئة مرة.. هل يعرف إلى أين وصل العدد، ربما أقل بكثير، وربما أكثر.. ربما إذا مشى في هذا الطريق المعبد بالنجوم، يستطيع أن يعدّ أكثر، لقد صار كلمة واحدة، عقله وقلبه، وجسده وحواسه، كلّها تجمعت في كلمة واحدة، السماء والبحار والأنهار، والجبال، والسهول والحجارة والرمال تردّد معه، يا معطي، وهو يحمل كيساً على كتفه ويحاول أن يجتاز طريق النجوم..

نزلت شهب كثيرة تردّ الشياطين عن السماء، سمع هاتفاً يأمره أن يجمع الشياطين الصغيرة التي كانت تتعلق بالنجوم، وتريد النفاذ إلى السموات.. راح يلتقطها واحداً بعد آخر ويدفعها إلى كيسه، حتى امتلأ إلى النصف أو أكثر.. واحد من هنا، وآخر من هناك، من جبل طارق، من ضفاف البوسفور، من نهر الغانج، وآخر سقط في أستراليا، وواحد في المحيط الجنوبي، وسبعة على جزيرة سيلان.. ثلاثة على نهر النيل، وآخر في واحة فزان، وعدنان يركض وراءها، يلتقطها ويجمعها في كيسه، حتى بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فأسرع إلى بيت العجوز، يتسلّل مع ضوء الصباح إلى غفوتها، وفي قفص كبير، راح يسحب الشيطان من الكيس ويدسه في القفص حتى امتلأ بهم، أفاقت العجوز، فرأته يداعبهم من وراء قضبان القفص، طلب منها أن تذهب وتشتري بعض الأقفاص، ثم تخلّى عن ذلك، وانطلق ليعود بلمح البصر محملاً بعدد من الأقفاص الصغيرة والكبيرة، راح يرتب فيها الشياطين الصغار بحسب حجمها، ثم غسلها بالماء والصابون المعطّر، ونشّف أجسادها، ووضع كل زوجين منها في قفص صغير، فرش لها أرض القفص بالقطن الملون، وهي ارتاحت له، فلم ترغب عنه فكاكاً، كان يطعمها بيديه، ويجعلها تنصت إلى أعذب الألحان، بل إنه كان يقرأ لها بعض

القصائد من الشعر الحديث كي تتناسل أمامه، وقد أعطى العجوز قفصاً فيه بعض الشياطين الهرمة.. فأخذتها إلى سوق الخميس وراحت تبيعها، الواحد منها بعشرين ليرة بعملة تلك الأيام.. فأصابا بعض المال، وقرّرا تحسين مستوى الدار حيث تسكن العجوز.

الناس كانت تشتري الشياطين لتساعدهم في حياتهم، وغالباً ما كان الواحد منهم أو الواحدة تشتري الشيطان وتدربه على ماتريد، وتضعه في جيب المعطف الداخلي لتستشيره في كثير من الأمور، حيث يستيقظ ضميرها.. في عمليات السرقة والسطو والنهب، والغشّ والتلاعب بالأسعار والرشوة، وبيع الضمائر، وشراء الذمم.. حتى إن الشياطين باتت تقرف من الأفعال التي يطلب إليها أن تمارسها، ولكنها كما تقول، مغلوبة على أمرها، وكانت النساء توصي بعضها لشراء شيطان أو أكثر من العجوز في سوق الدجاج، تشتري الواحد منها، وتأخذه معها، تدخله معها إلى الحمّام، وتضعه في البانيو، وتكون قد اشترت له سفينة صغيرة مشبعة بالورود، تركبه عليها، وتجعله يسبح فوق الماء، وبعد ذلك تدلّك له جسده، وتعطّره بأنواع العطور، ثم تمشّط له شعره، وتدسه في فتحة صدرها.. وإذا كانت في سرير الزوجية، فإنها تدسه بينها وبين زوجها.. ثم تملأ رأسه بما تريد وتدفعه ليتغلغل في رأس الرجل وينكّد عليه عيشه.

العذارى المائسات كنّ يدخلن الشيطان الصغير في الحقيبة الصغيرة، تلك التي توضع فيها القطع النقدية الصغيرة، أو في علبة التبغ في الحقيبة الكبيرة، وفي الليل يسدلن الستائر على أحلامهن، يخرجنه، وعلى الوسادة يقف، أو يستلقي، وهنّ يحكين له قصص العذاب الذي يلاقينه من الحبيب وأمّه، ثم يطلقنه ليجلب له، أي للمحبوب السهد والسهر، وقلّة النوم، والتفكير، حتى يتزوجن منه.. وهكذا راجت تجارة الشياطين.. ولكن أسرارها ظلّت محفوظة عند عدنان الفلاح.. لا يبوح بها إلى أحد.. ونظراً للطلب المتزايد عليها، فقد راح يصنع لها بيوتاً بلاستيكية، كي تفرّخ بسرعة قبل موعد كسر البيضة بأشهر، مما جعله ينتج أعداداً كبيرة، لكنّها لم تكن تكفي البلد وكانت الناس تقول هل من مزيد؟

أما صناعتها، أي الشياطين الصغيرة، فقد كانت غاية في السهولة، فالأنثى تضع بيضة ملوّنة، كل ثلاثة أسابيع، وبعد أن تضعها تغطيّها بمادة لزجة، وتتركها في الظلام مدّة أسبوع، وحين تنضج، يخرج منها شرنقة لها قرن واحد صغير، ثم تنمو الشرنقة إلى ما بعد الظهر، وعند منتصف الليل وقت تلاصق عقارب الساعة تكون بنْية الشيطان قد اكتملت، ويظل بقرن واحد، إلى أن يرسل بمهمات صعبة، فينبت له قرن ثان مواز.. والذكور من الشياطين الصغار، عادة ما تكون وديعة لطيفة، لذلك تكون بيوضها من الألوان الفاتحة التي تفضّلها النساء، أما الأنثى منها فغالباً ما تكون شرسة، مؤذية، غادرة، أنانية.. بل إنها تحاول خنق ذكورها بعد أن تصل إلى رعشتها العظمى.

عند كل مساء، كان عدنان الفلاح يتحوّل إلى طفل صغير ضائع، ويأتي به الناس إلى العجوز، حيث يجلسان في أرض الدار، ينسّقان ترتيب الشياطين وفرزها.. بينما كنت أنا أظل في الزاوية، أردّد، يا معطي، وخلال ذلك، أقفز بين النجوم ألتقط الشياطين التي تُرجم بحجارة السماء.. أملأ منها كيسي، وأعود به إلى الأرض.

كانت المرأة العجوز، تسخّن الماء، وتصبّها في طشت واسع، ثم تمسك بزوج من الشياطين، أنثى وذكر، وتلقيهما في الطشت، تفتح لهما صوت المسجّلة على موسيقا معينة، وتبدأ الأنثى تلوب حول الذكر.. والذكر يبتعد عنها، وهي تطارده إلى أن تمسك به.. وحول الطشت تكون بقيّة الشياطين واقفة على أطرافه، وكأنها في ملعب رياضي، ويبدأ الصفير والزعيق، والهيه، والهيلا، والهوب.. فتقوم الأنثى بامتطائه، حيث يعلو التصفيق حولها والصراخ، وتظلّ ممسكة به، حتى تصل إلى ذروة نشوتها، حين ذاك تمسك برقبته وتبدأ بخنقه، ولولا تدخل عدنان الفلاح لكانت قد خنقته، وفي بعض الأحيان تمتلك قوة عظيمة فلا تتركه إلاّ جثة هامدة بين يديها، عند ذلك تقتلع ذكره وتلتهمه دفعة واحدة، ثم تسترخي فوق الماء، مطالبة بذكر آخر.. وبعد ذلك تهوش الشياطين على بعضها، وتبدأ بغزو جنسي جماعي لبعضها، لا ينتهي إلا عند أذان العشاء، حيث تتوقف جميعها للاغتسال والذهاب إلى النوم، غالباً لأن لديها مهمات صعبة في اليوم التالي، وأثناء نومها تكون العجوز قد بدأت فرزها في أقفاص مخصصة لليوم التالي، حيث تبيعها في السوق.

بعد حين من الزمن، صارت العجوز تقرأ المستقبل، بل إنها حدّدت ساعة موت شيخ السوق، وفي الوقت الذي حدّدته، وأمام بصر الجميع تقدّم إليها الشيخ، وقبّل رأسها، اشترى منها شيطاناً لفّه في قميصه، وعاد إلى مكانه، استلقى على أرض الدكان، عطس عطسة واحدة، وسلم على الموجودين، بقوله: إلى لقاء آخر، وعندما اقتربوا منه وجدوا جسده كالمهلبية الفاسدة.. ومن يومها صار الناس يتوجّسون خيفة، كلّما تكلّمت العجوز لأنها لم تفشل في أي تنبؤ قالته، سواء في الموت، أم في الزواج أو الطلاق؟ أو أي خدمة كانت تؤدّيها إلى سكان السوق؟، بعد ذلك، صار السوق، سوقاً للنساء، بسبب تردّدهن الغزير عليه، لمعرفة موعد الساعة التي سينقرف فيها عمر زوج كلّ منهن.. والعجوز كانت تضع أغاني فريد الأطرش إلى جانبها، وأمامها كانت تفرش منديلاً، تلعب فيه الشياطين الصغيرة، وكانت المشورة لا تتمّ إلا بشيطان، تأخذه المرأة معها، بعد أن تدفع ثمنه، ليملأ حياتها بالسعادة والهناء، ويخبرها بما تفعله في حياتها القادمة لتستطيع أن تكيد لزوجها وأهله إن كانوا من الصالحين.

ولما تزايد الطلب على بضاعة العجوز، ابتكر لها عدنان الفلاح غرفة وضع فيها قوالب الثلج، وصفّ فوقها البيض، فكانت البيضة تفقس بعد ثلاثة أيام، وازداد عدد الشياطين الصغيرة، بسبب الإقبال الكبير عليها، إلى أن جاء ذلك اليوم، عندما طرق الباب أحدٌ ما.. الأحد ما.. لمّوا كلّ من في البيت وذهبوا، وفي مجلسه قال زهير، يجب أن تُعِدّوهم ليعملوا معنا.. وفعلاً تمّ ربط جميع الشياطين الصغيرة بإبليس الذي في رأس زهير، تحت عمامته، بحيث توصل أخبارها فوراً ومباشرة، ووقع ذلك على المباعة وغير المباعة، وقد برمجت جميعها على شيفرة خاصة، تراقب كل شيء حولها، وتدخل في الرؤوس لتعرف كيف تفكر ثم تبثّ معلوماتها عبر الشيفرة الخاصة، وخلال الهواء تفرز، وتقلب وترسل طازجة إلى رأس إبليس وعلى إثر ذلك توسّعت الرضوانية توسعاً كبيراً، وقامت على أطرافها في المنطقة الجبلية، منطقة سميت بوادي جهنم.. يرسل إليها عباد الله الصالحون، وغير الصالحين.. لتحويل أجسادهم إلى فوسفات مطحونة ومركزة، لتكون علفاً للشياطين الصغيرة أو تنثر فوق الأراضي لتكون صالحة للزراعة وقد تسمّن بها صيصان الدجاج.

"يا إلهي، ما أفظع ذلك".

لا أدري، كيف مرّت الجملة، من بين كلمات، يا معطي.. وعلى إثرها سمعت ضربات قلبي خفيفة، وكأنها تأتي من بئر سحيقة، ارتديت ثوبي ثم انتقلت إلى حذائي، ومشيت إلى ضفة النهر.

كان الناس يستلقون في الظلال عندما مررت بجانبهم، بعضهم رآني وأنا أعبر الضفة إلى الطرف الآخر، ضحكوا، ثم أشاروا بأصابعهم، لم أدر، على من كانوا يشيرون، لكنني رأيت بعد ذلك جمعاً من الأولاد، يجمعون كل شيء بأيديهم، ويقذفونني به، اتقّيتهم بيدي، وأخفيت رأسي عنهم، وهمت في البرية، وهم يركضون ورائي، لم أدر ماذا يريدون مني؟، حاولت أن أسألهم، لكنهم لم يتركوا لي فرصة من أجل ذلك.. كنت أردّد الكلمة وهم يضربونني بالحجارة والأشياء الفاسدة، ولمّا لم أستطع عمل شيء، وضعت أصابع يدي، في أذني، ورحت أصفر وأمضي وحيداً في طريق طويل لا نهاية له.

بعد عودة عدنان الفلاح من الزيارة القصيرة، راح يرتب نفسه على رعاية الشياطين الصغيرة، فقد كان يربطها بخيوط من قرونها ويأخذها معه إلى المرعى على ضفاف النهر، وهناك فوق العشب يتركها تلعب وتمرح وتقفز فوق بعضها، أو تتصارع مع بعضها فتتشابك خيوطها، وتضحك ويضحك معها، بل إنه كان يشجّع أحدها على الآخر أثناء العراك، يظل هكذا حتى آذان الظهر، وتكون العجوز قد أخذت مجموعة منها في كيس من الخام إلى سوق الخميس لتبيعها، وقد تمّ توليف قناتها بقناة إبليس الذي في رأس زهير.

في المنزل، تكون العجوز قد عادت وسلقت البيض لها، وبدأت بتقطيعه إلى أجزاء صغيرة والشياطين تلتهمه من بين يديها، والعجوز تسبّ وتشتم، وأسنان الشياطين تدغدغ أصابعها فتضحك قليلاً وتزعل قليلاً، لكنها لا تقبل على نفسها إلا أن تطعمها بيديها حتى النهاية، ثم تلقي بها في ماء البرميل الفاتر فتغسلها بالماء والصابون، ثم تنشف أجسادها بعد ذلك وتدخلها إلى قفص الزوجية السعيدة لتتفرج عليها وهي تتناكح.

***

وفي الليل رأيتُني ببيتها، لا أدري كيف وصلت إليها، كنت قد حملت كتاب الله ورحت أقرأ في سوره.. هربت مني، ولاذت بالزوايا، أو تعلّقت بخشب السقف، عرفت أنها غير مؤمنة، فرحت أدعوها إلى الإيمان بالله الواحد القهار، كان هذا يومي السابع، ولم يبق بيني وبين الدخول إلى السماء سوى رشفة نور، قلت: ربّما عليّ أن أهديها وأكون شفيعها لأدخل ملكوت السماء، فرحت أرتّل الدعاء، وأقدّس اسم الله.. قدّوس، لا أتوقّف عن تكرارها، إلا كي أدعو:"اللهم قدّس سري وروحي بسر سرك وبروح روحك وأوصلني لمنازل الأنس، واسقني من مشارب القدس، فيكون سري بك مقدّساً مطهراً من كل عيب ودنس عرض، أو وهمي بثبوتي، أو خاطري ببركة قدسك، يا قدوس".

جاءني بعضها، استأنس بي، رحت أتلو بصوت مرتفع وهي تقترب مني أكثر نفضت نفسها، ودنت مطأطئة الرأس، صعدت على ركبتي، وأكتافي، أسبلت عينيها، وبعضها بكت بدموع غزيرة، سمعتها تنطق بالشهادتين، فاستبشر قلبي فرحاً، حملتها في جيوبي وخرجت إلى البرية..

كانت النجوم تفضح أسرار الليل، والجنّ راحت تتطلّع إلى السماء من فتحة المخلاة المعلقة برقبتي.. ثم صرت أجمع لها الطعام من القمامة، أغسله لها، وأطعمها بيدي، وصلت إلى حديقة، توسّدت أحد مقاعدها ونمت وأنا أردّد الدعاء، وجعلتها تحرسني في الليل.. ولما صار الصباح، أدخلتها في مخلاتي ونهضت معها إلى السوق.

كان الناس قد ألفوا وجودي حولهم.. رحت أقف على أبواب دكاكينهم فيعطونني شيئاً لله، لألقي به في المخلاة، ثم أمضي من دكان إلى آخر حتى أختم السوق، فأستريح عند باب الجامع، حيث يلقون إلي النقود فأجمعها وأعود بها عند المساء، أو في الليل، لأدفنها قرب بيت عمران الأعمى ودون أن يدري.

أحياناً كنت ألاعب الشياطين الصغيرة خارج باب المسجد، أو في السوق، فأضحك معها وتضحك معي، أستلقي على ظهري، وتدخل في ثوبي، تدغدغ جسدي، وأحياناً تركب على ظهري، وتقودني كالحمار، فأضحك وأضحك ملء قلبي، والناس تمرّ قربي، تستغرب أو تشتمني، أو تضحك مني أو تقذفني بشيء ما.. لم أكن أهتم لأحد.. يكفيني

هذا الشيء الجميل الذي راح يملأ حياتي، وهاهم أولادي، كما رحت أسمّيهم، يملؤون علي عالمي الجميل والمدهش.. وهكذا كنت أختلي بهم في أحد البساتين أو إحدى الحدائق، فأغسلهم وأطعمهم، ثم أجعلهم ورائي وأصلّي فيهم عدّة ركعات كلّ يوم.. ثم أقرأ عليهم ما تيسّر من آي الذكر الحكيم وأردد دعاء قدوس، قدوس، يا ملكوت السموات والأرض..

جاءني هاتف في رقادي، يقول، أطلقها، دعها تسير أمامك واتبعها، وهكذا فعلت، مع الفجر تطهّرت من كلّ شيء، ولبست رقعتي، وأطلقتها ومشيت وراءها في طريق البرية، لا ألوي على شيء.

***

عاد عدنان الفلاح من البرية مساء.. ظلّ يرعى الجنّ الصغار كلّ اليوم.. كانت تلعب في المدى الفسيح الذي أمامه.. يطاردها وتطارده، تقف على رأسه وكتفيه، يحاول إمساكها فتهرب منه، ثم ينطلق خلفها.. وعندما يتعب، تجلس حوله تواسيه.. وفي طريق العودة جلبت المزاهر والدفوف، وراحت تضربها له وهو يردّد، يا قدوس، وهي، أي الجن الصغار، تمشي أمامه وخلفه وفوقه، وتردّد وراءه.

دخل السوق، ورآه الناس، وهو يهتف ويردّد، فوقفوا يتفرجون عليه، يمخر الطريق، ويضرب على قفا كفه بكفه.. ثم جاءه الحال، فراح يمزّق ثوبه، وصار نصف عار، والجنّ تضرب له الدفوف بقوة أكثر، اللحامون ظلوا ممسكين بسكاكينهم وتركوا خرفانهم المعلّقة وراحوا يتفرجون عليه، باعة الخضار، توقفّوا عن غشّ الخضار، والتفتوا إليه، بائع الحليب، واللبن، بائع الفلافل، بائع السحلب، النسوة اللواتي كن يشترين، الرجال الذين كانوا يمسكون بأيديهم بعض الحاجيات المشتراة، الأولاد وقد تعلقوا بتلابيب أمهاتهم. الحارس الليلي الذي وقف أمام محرسه، إمام الجامع وهو في طريقه إلى المسجد، المؤذن قبل أن يصعد ليؤذن في الناس. بائع العجة الذي كان

يسحب الأقراص من المقلاة.. بائع أقراص الكبّة، باعة البطيخ الأحمر والأصفر.. كلّهم، وقفوا يتفرجون على المشهد، ويحوقلون ويبسلمون.. لقد انجذب، لقد انجذب إلى الله.. وعدنان الفلاح، يهرول كأنه غرّ قد سحب توّاً إلى الجندية.. يأمر الجنّ فيضربون له الدفوف، وفي الطريق انضمت إليه مجموعات أخرى، تهتف وتضرب بأيديها على أيديها، هاهو عمران الأعمى يحمل قمر الزمان على كتفيه ويهتف، ربّما أفرجوا عن صلاح فهاهو في المقدمة يهتف، هاهم جماعة الرضوانية بخيرهم وبشرهم، يرفعون البيارق ويهتفون، أبو عيوش والشيخ مالك، يتقدم الجميع الشيخ جمال الدين، أعلام خضراء وسوداء، عبد الجليل هو الآخر انضم إلى الجماعة، وصار يهتف، هاهي جموع النساء، تنضم إلى الركب، عاليا ورئيفة، رسمية وسميرة، ومريم التي وصلت الآن، لا تزال حقيبتها في يدها، جميلة والنايلو عبد الفتاح.

الأصوات تملأ المكان، والسوق بكامله وقف مشدوهاً ينظر إلى عدنان الفلاح وهو يضرب جسده بيديه، وعدنان يمشي هاتفاً غير مبال بأحد، ثم تنشقّ السماء، ومن بين صفائها الأزرق ينزلق بدران، لقد عاد أخيراً، وها هو يقود الجموع باتجاه ساحة السوق.. لقد حمل كل واحد منهم شيئاً وراح يقرع به، صنوج النحاس، كفات الميزان، التنك الفارغ، بواري المدافئ راحوا يقرعون، ويهتفون وهم يمضون بسلام إلى اتساع الساحة.. وهناك تحلّق الناس حولهم، والجنّ الصغيرة تقرع الدفوف وتبشّر بالسلام على الأرض.. الأصوات تتعالى، تشتدّ والهتاف يملأ المكان.. أخذ بدران مكبّر الصوت، صاح: أيّها الإخوة.. وهنا ساد الصمت الرهيب، ولم يتكلم أحد.. وحده عدنان الفلاح، انجذب إلى شعاع قادم من الأزرق الفاهي، وراح يصعد عليه، رآه الجميع وهو يرتقي، فتحوا فمهم، وهم يتطلعون إلى الدخان الأبيض الذي تركه وراءه.. ثم انفضوا يتابعون أعمالهم وهم يحكون لبعضهم قصة عدنان الفلاح الذي مضى دون أن ينهي حكايته.. بعد ذلك أذّن المؤذن، ودخل الإمام ليؤمّ الناس في الصلاة، بينما ترك الباعة أشغالهم، ووقفوا وراءه يؤدّون فريضة الصلاة، وانتظرت النساء والأولاد خروجهم كي يتابعوا عملية الشراء.

فيصل خرتش

روائي سوري 1952

كاتب وروائي ســوري من مواليد مدينة حلب، حيث نشــأ وتعلّم، وتخرّج في قســم اللغة العربية بجامعة حلب، ثم نال دبلوماً في اللغات الشرقية القديمة عام 1983. بدأ الكتابة في أوائل السبعينيات، وبرز اسمه في الصحافة الثقافية العربية كاتِباً ومراسلاً أدبياً لصحف *كالشرق الأوسط* و*الحياة* و*البيان*.

له مســلســلان تلفزيونيان، وفيلم ســينمائي عن روايته (تراب الغرباء) من إخراج ســمير ذكرى، الذي حاز على جائزة أفضــل فيلم ســينمائي في مهرجان القاهرة عام (2000) ويتناول سيرة الكاتب عبدالرحمن الكواكبي.

تميّز أســلوبه بالســرد المتدفق واللغة المكثفة، وتناولت أعماله قضــايا الإنســان، والهوية، والتحولات الاجتماعية في العالم العربي. نال عدداً من الجوائز الأدبية الرفيعة، منها جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية، وجائزة الناقد من دار رياض نجيب الريس، وجائزة الطيب صالح للرواية العربية، إلى جانب جوائز للقصة القصيرة من *الطليعة* و*أخبار الأدب* وغيرها.

صدر له:

الأخبار (1986) مجموعة قصصية (وزارة الثقافة: دمشق)

موجز تاريخ الباشا الصغير (1991) رواية (رياض الريّس للكتب والنشر: بيروت).

خان الزيتون (1995) رواية (دار الصداقة: دمشق).

مقهى المجانين (1995) رواية (المسار للنشر والأبحاث والتوثيق: دمشق).

تراب الغرباء (1995) رواية (وزارة الثقافة: دمشق).

حمّام النسوان (1999) رواية (المسار للنشر والأبحاث والتوثيق: دمشق).

شجرة النساء (2001) مجموعة قصصية (وزارة الثقافة: دمشق).

مقهى القصر (2004) رواية (وزارة الثقافة: دمشق).

شمس الأصيل (2008) رواية (الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة: دمشق).

دوّار الموت ما بين حلب والرقة (2017) رواية (دار الريّس للكتب والنشر: بيروت).

أهل الهوى (2018) رواية (جائزة الطيب صالح: الخرطوم).

NOVEL

رواية «أهل الهوى» لفيصل خرتش، التي فازت بجائزة الطيب صالح للرواية، تتميز بأنها رحلة روحية وفلسفية تأخذ القارئ إلى عوالم متعددة تتداخل فيها الحقيقة بالخيال، والواقع بالأسطورة. تبدأ الرواية بقصة رجل يسبّ السلطان فيُذبح كأضحية، لتنتقل الأحداث سريعًا إلى قصة عدنان الفلاح الذي يجد امرأة غريبة في فراشه بعد حرب حزيران. هذه المرأة ليست من الإنس، بل هي «عالية» التي يُقال إنها وُلدت من «ماء المرأة فقط» أو «أمير الجان واقعها فحبلت وأنجبت عاليا».

تتعمّق الرواية في قصة بدران، الرجل الذي يكتشف أن المرأة الغريبة التي يحبها «تاج الملوك» هي من كوكب آخر، وتتزوجه لتنجب طفلًا يصبح الجدّ الأول لعدنان الفلاح. هذا التداخل بين الأجيال والأزمان، والحقيقة والخيال، يخلق نسيجًا روائيًا فريدًا يمزج بين التصوّف والواقعية.

تُقدّم الرواية شخصيات تعيش صراعات داخلية عميقة، مثل عدنان الذي يصارع بين غرائزه ونداءات الروح، ويجد نفسه في رحلة صوفية يرتاد فيها الزوايا والجامعات، وينضم إلى الطريقة الرفاعية. كما تُقدّم الرواية مشاهد من الحياة الشعبية في حارة «المزار»، التي تحمي نفسها من الغزاة، وتُقدّس فيها الأماكن ويصبح لها مزار جديد.

«أهل الهوى» ليست مجرد رواية، بل هي دعوة للتأمل في الوجود، والبحث عن الذات، وفهم العلاقة بين الإنسان والكون. إنها تفتح نوافذ على عوالم غريبة ومألوفة في آن واحد، وتترك القارئ يتساءل عن حقيقة ما يقرأ، وعن ماهية «أهل الهوى» الحقيقيين.

FAISAL KHARTASH

PEOPLE OF PASSION

9 781326 230425

Jidar
Culture & Publishing